

مجلة
إسلامية
شهرية
جامعة

البيان

AL BAYAN

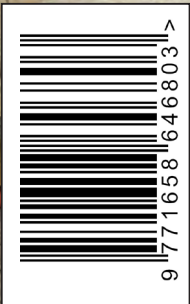
السنة الثامنة والعشرون . العدد ٣١٦ . ذو الحجة ١٤٣٤ هـ . أكتوبر - نوفمبر ٢٠١٣ م

أين مواقع المصلحين
حين الشدائد والفتن؟

حوار مع رئيس
حزب الإرشاد السلفي اليمني

نظرات في
يسر الشريعة الإسلامية

معالم في الحج



سافر

رفيقتك في رحلة الحج

حقيبة منافع لهذا العام ١٤٣٤ هـ

والتي تحتوي على:

- ♦ لتأخذوا عندي مناسكتكم .
- ♦ من وحي الحج .
- ♦ أعمال الحاج اليومية .

رفيقتك في رحلة الحج

البيان
AL BAYAN

sales@albayan.co.uk
www.albayan.co.uk

الرياض
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ (٥٠٢ - ٥٠٠)
فاكس: ٤٥٣٢١٢١
جوال: ٥٠٣٨٩٦٣٦٥
٥٠٤٤٧٨٩٣٢
٥٠٣٤٠٩٨١٦
٥٠٦٤٦١٠٥٦
جدة - مكة - المدينة
جوال: ٥٠٧٢٦٦١٢٠
الجنوبية
جوال: ٥٠٦٤٦١٠٥٨
الشرقية
جوال: ٥٠٦٢٩٢٦٨٩
القصيم
جوال: ٥٠٢٢٢٠٦١٦



الافتتاحية

٦ **ليبيك اللهم ليبيك**
التحرير

العقيدة والشريعة

٨ **ابن تيمية ومقاصد شرعية غائبة**
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف

١١ **نظرات في يسر الشريعة الإسلامية**
د. هاني بن عبدالله الجبير

كلمات في المنهج

١٦ **معالم في الدعوة والتربية والمنهج من حديث جابر**
أ. د. ناصر بن سليمان العمر

قضايا دعوية

٢٤ **أين مواقع المصلحين حين الشدائد والفتن؟**
أ. د. سليمان بن حمد العودة

٣٤ **على مَنْ يُتَنَزَّلُ النُّصْرَةُ؟**
د. أشرف عبد المنعم

قضايا تربوية

٣٨ **التربية في الحلقات القرآنية**
فايز بن سعيد الزهراني

٤٤ **أسباب الارتقاء وموانع السقوط**
أحمد عبد المجيد مكي

٤٨ **حقيقة الغناء.. رؤية إيمانية نفسية تربوية**
د. جمال بادي

حوارات

٥٠ **حوار مع رئيس حزب الرشاد السلفي اليمني**
أجرى الحوار: أحمد الصباحي

معركة النص

٥٦ **الاستدلال الأعمى**
د. فهد بن صالح العجلان

رئيس التحرير

أحمد بن عبد الرحمن الصويان
alsowayan@albayan.co.uk

مدير التحرير

د. عبد الله بن سليمان الفراج

هيئة التحرير

أحمد بن عبد العزيز العامر
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
د. يوسف بن صالح الصغير
د. فهد بن صالح العجلان
د. أحمد بن عبد المحسن العساف
فيصل بن علي أحمد الكامل

سكرتير التحرير

إسلام بن سعد داود

الإخراج الفني

محمد سالم لرضي
صلاح الدين عبده الحجري

عنوان المجلة على الشبكة العالمية
www.albayan.co.uk

YouTube | f | t

اشتراكات البيان Whatsapp & SMS
٩٦٦٥٥٤١٩٢٤١٣

الحسابات

السعودية: مصرف الراجحي
أي بان: SA1٣٨٠٠٠٠٢٩٦٦٠٨٠١٠٠٢١٠٠٧

الاشتراكات

السعودية ودول الخليج ١٢٠ ريال سعودي
بريطانيا وإيرلندا ٤٧ يورو
أوروبا ٥٥ يورو
البلاد العربية وإفريقيا ٤٥ يورو
أمريكا وبقية دول العالم ٥٥ يورو
المؤسسات الرسمية ٦٠ يورو

خدمة العملاء

السعودية

ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.
الهاتف الموحد: ٩٢٠٠٠٤٥٤٨
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ - فاكس: ٤٥٢٢١٢١

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني

التحرير

editors@albayan.co.uk

خدمة العملاء

sub@albayan.co.uk

التسويق

sales@albayan.co.uk

العلاقات العامة

pr@albayan.co.uk

الموزعون

الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥
هاتف: ٥٢٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٢٣٧٧٣٢

الإمارات العربية المتحدة: شركة الإمارات
للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩
هاتف: ٢٩١٦٥٠١، فاكس: ٢٦٦٦١٢٦

سلطنة عُمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص. ب
٤٧٢ - العذبية ١٣٠ - هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ -
فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠

البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف -
المنامة: ص. ب ٢٢٤ هاتف ٥٢٤٥٥٩ - ٥٢٤٥٦١،
فاكس ٥٣١٢٨١

السعودية: الشركة الوطنية للتوزيع:

هاتف: ٤٨٧١٤١٤ - فاكس: ٤٨٧١٤٦٠

السودان: الخرطوم، مكتب المجلة ٨٢٢١٢١٨٣

قطر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف:
٤٥٥٧٨١٠ - ٤٥٥٧٨١١ - ٤٥٥٧٨١٢ - فاكس: ٤٥٥٧٨١٩

الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع،
ص. ب: ٢٩١٢٦ - الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ -
هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ - فاكس: ٢٤٧٨٠٩

المغرب: سوشيرس للتوزيع، الدار البيضاء،

ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ -

هاتف: ٤٠٠٢٣٢ - فاكس: ٢٤٦٢٤٩

اليمن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء:

ص. ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة
القديمة، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ - فاكس: ٤٠٥١٣٥

تونس: الشركة التونسية للصحافة، ت
٠٠٢١٦٧١٣٢٢٤٩٩ - فاكس: ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٤٩٩



كلمة صغيرة

الشام.. وتداعي الأمم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم

المرسلين.. وبعد:

«خلافٌ بين روسيا وفرنسا على سبيل وقف سفك الدماء في سورية...» عنوانٌ خبر نشرته الـ BBC العربية بتاريخ ١٧ سبتمبر ٢٠١٢م يعيد إلى الذاكرة خلافاً بين روسيا وفرنسا انتهى بما يعرف في التاريخ بـ «حرب القرم» (The Crimean War)؛ فكلتا الدولتين اختلفتا حينها - وما زالتا تختلفان - على نصيبهما من جسد الأمة الإسلامية.

كان سببُ حرب القرم الرئيسُ هو الخلاف على حماية القدس - التي كانت حينئذٍ تحت حكم العثمانيين - وحقوق النصارى فيها؛ إذ كانت روسيا تتافع عن أتباعها من النصارى الأرثوذكس، بينما تولت فرنسا الكاثوليكية الدفاع عن حقوق الكاثوليك؛ أما الدولة العثمانية فكانت «رجلاً مريضاً جدُّ مريض» كما وصفها الإمبراطور الروسي نيقولا الأول.

تحركت جحافل الروس قاصدة القسطنطينية (إسطنبول) -عاصمة الروم البيزنطيين الأولى قبل أن تنتقل إلى موسكو-، لتضمن وصايتها على الكنائس الشرقية الأرثوذكسية، والتقت جيوش العثمانيين، فلما رجحت كفتهم على كفة العثمانيين تدخّلت فرنسا وبريطانيا إلى جانب العثمانيين. هل كان ذلك حياً في نصرة الحق وأهله؟ كلا، لكن لئلا تنهش دبة الروس جسد الدولة العثمانية فلا تُبقي للكنيسة الرومية الغربية شيئاً؛ حينها تراجعت روسيا وانتقلت مقاليد كنائس القدس إلى الفرنسيين والكنيسة الرومية الكاثوليكية.

كتب رئيس أساقفة باريس معلقاً على الحرب فقال: «إن حرب القرم، بين فرنسا وروسيا، ليست حرباً سياسية، دولة تقا تل دولة، أو شعب يقا تل شعباً؛ إنما هي حرب دينية، حملة صليبية...».

فهل تعلّم المسلمون درساً من تاريخ تلك الحقبة؟ إن كثيراً منهم لم يسمع بحرب القرم، فضلاً عن أن يتعلم من دروسها شيئاً! إن الروم بشقيها الشرقي (روسيا) والغربي (أوروبا وأمريكا) يتنازعان بلاد الشام منذ أكثر من عامين أيهما ينال نصيب «الأسد»، فهل ستظل الحكومات العربية كالأيتام على موائد اللئام؟ ألا ليت المحللين (والمحرمين) السياسيين تحجوا جانباً لتركوا للتاريخ وصف الواقع الذي يعيد نفسه كثيراً.

المسلمون والعالم

٦٠ الأزمة المصرية.. سيناريوهات المستقبل

طلعت رميح

٦٤ الغرب والموقف من الثورة السورية

مازن أبو بكر عبد الله باحميد

٦٨ الضربة العسكرية المرتقبة على سورية

محمد قطب

٧٢ مرصد الأحداث

عمرو عبد البديع

عين على العدو

٧٤ اليهود والتوتر بين غزة ومصر

د. عدنان أبو عامر

قصة قصيرة

٧٦ أصعب من ضربة سيف

بسام الطعان

فكرية

٧٨ سقوط الليبرالية!

محمد وفيق زين العابدين

إعلام

٨٠ التلاعب بالعقول.. دور الإعلام في الثورة المضادة

سمير حمدي

نص شعري

٨٢ سفينة المسلمين في العيد

علي بن أحمد المطاع

تاريخية

٨٤ نشأة الشيعة عند المستشرقين

د. فرست مرعي

قراءة

٩٠ أحاديث وأسمار.. كتاب يجمع بين الفائدة والمتعة

شمس الدين درمش

الورقة الأخيرة

٩٤ من بركة الحرمين

د. أحمد بن عبد المحسن العسّاف

ليبيك اللهم ليبيك

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين ورحمة الله لعباده الصالحين، محمد بن عبد الله ﷺ.. أما بعد:



الحج، سواء كانت معاصي أو كبائر أو شركاً، فهذا عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه يقول: «فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبأبعك. فبسط يمينه. قال: فقبضت يدي. قال: «ما لك يا عمرو؟». قال: قلت: أردت أن أشترط. قال: «تشتترط بماذا؟». قلت: أن يغفر لي. قال: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله»^(٤).. فالحج يهدم ما كان قبله من ذنوب وآثام وشُرور وشرك، فضلاً من الله ونعمة، واستخدم لفظ الهدم للدلالة على المبالغة في الإزالة والمحو، وإذا كان الحج بهذه المنزلة فلأن شعار الحج الذي يلخص كل أركانه وواجباته ومستحباته التلبية التي تكون بمنزلة تكبيرة الإحرام للصلاة: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك». ولبيك تعني مداومة

فإن فريضة الحج من أجل الفرائض الدينية التي فرضها الله على عباده، لدرجة أن التكاسل عن أدائها حتى تدرك العبد منيته وقد وجد ما يحج به من غير أن يحج؛ يُخشى على إيمان العبد بسببه، فقال عز من قائل: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، ومن أجل ذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: «من أطاق الحج فلم يحج فسواء عليه يهودياً مات أو نصرانياً»^(١). وقد جعل الله للحاج الذي يحج حجاً كاملاً غير منقوص، الأجر العظيم والمنزلة التي لا تدانيها منزلة، فقال ﷺ: «من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»^(٢)، وقال: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»^(٣). بل إن عظم منزلة الحج كافٍ لتكفير كل الذنوب والآثام التي اقترفها المسلم في سنيه السابقة على

(١) قال ابن كثير: «إسناده صحيح» ٨٥/٢ تفسير ابن كثير.

(٢) أخرجه البخاري رقم ١٥٢١.

(٣) أخرجه أحمد برقم ١٤٤٨٢.

(٤) مسلم في صحيحه رقم ١٩٢.

يتابع بين الحج والعمرة فلا يكاد يمر موسم من مواسم الحج والعمرة إلا وقد شد رحله إلى حيث مهوى أفتدة المؤمنين وحزب الله الصالحين، يسوقه الشوق والحنين إلى تلك الديار، فلا معنى للمشقة ولا شعور بها حتى يقول القائل:

وسرنا نشق البيد للبلد الذي

بجهد وشق للنفوس بلغناه

رجالاً وركباناً على كل ضامر

ومن كل ذي فح عميق أتينا

نخوض إليه البر والبحر والدجى

ولا قاطع إلا وعنه قطعناه

ونطوي الفلا من شدة الشوق للقا

فتمسي الفلا تحكي سجلاً قطعناه

ولا صدنا عن قصدنا فقد أهلنا

ولا هجر جار أو حبيب ألفناه

والمسلم يظل يردد التلبية ويرفع بها صوته من حين مروره بالمبقات ولا يقطع التلبية حتى يصل إلى المسجد الحرام وتكتحل عيناه برؤية الكعبة البيت الحرام.

وما تقدم من صيغة التلبية هي الصيغة التي وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن كان هذا لا ينفي الزيادة عليها من جنسها كما كان عبد الله بن عمر يزيد في تلبيته ويقول: لبيك لبيك لبيك وسعديك، والخير في يدك لبيك، والرغباء إليك والعمل. وكان الناس يقولون لبيك ذا المعارج.. ونحوه من الكلام. والنبي عليه السلام يسمع فلا يقول لهم شيئاً، وإن عمر كان يقول بعد التلبية: لبيك ذا النعماء والفضل والثناء الحسن، لبيك مرهوباً منك ومرغوباً إليك. وكان أنس يقول في تلبيته: لبيك حجاً حقاً تعبداً ورقاً.

فالعبد يقبل على ربه معلناً فقره وذله له، طالباً رحمته ورضاه، مظهراً توحيده، مكثرأ ذكره في تلك الفريضة التي هي فريضة العمر التي قد لا يتاح لأكثر الناس تكرارها، فليحرص المسلم على تكميل حجه والقيام بأركانه وواجباته ومستحباته؛ لعل الله أن يوفقه للحج الكامل فيكون ممن رجع من حجه بعد انتهائه من ذنوبه كمن ولد الساعة بغير ذنب ولا معصية.

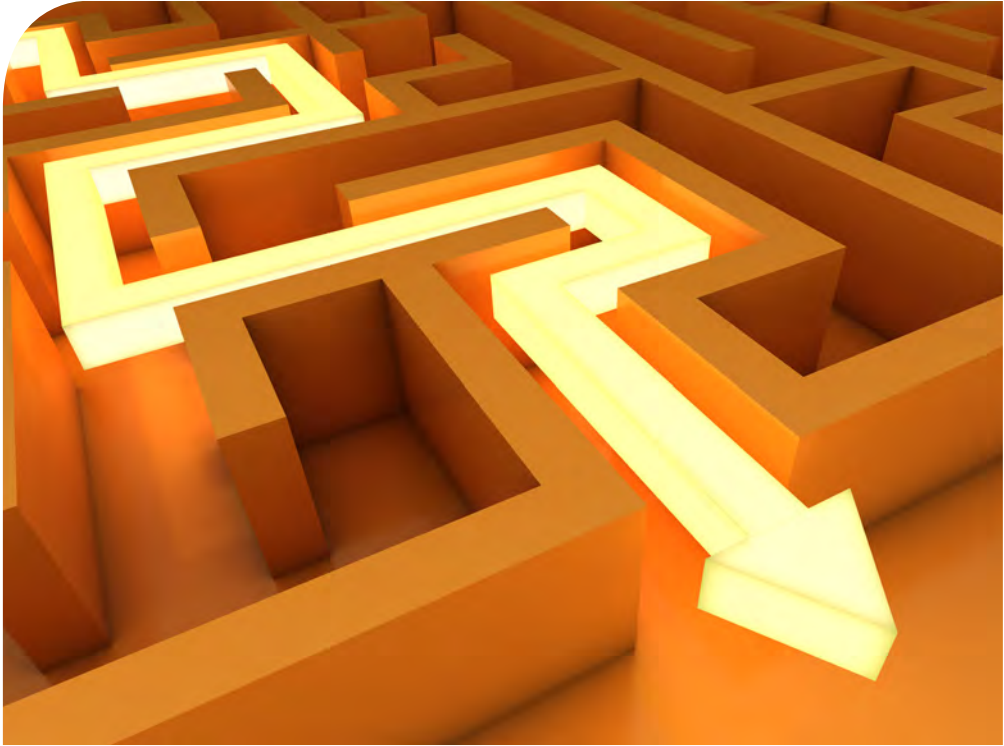
نسأل الله من فضله أن يوفق الحجاج إلى الحج المبرور، وأن يتقبله منهم برحمته وفضله.

الاستجابة لأمر الله تعالى في كل شأن من شؤون المسلم الدينية والدنيوية، وإفراد الله تعالى بهذه الاستجابة، ومن ثم جاء في الحديث: فأهل بالتوحيد لبيك اللهم لبيك، فهي تعني إجابة بعد إجابة، من قولهم: ألب بالمكان، إذا أقام به، فكأنه قال: أنا مقيم على طاعتك مداوم عليها لك وحدك وملازم لها لا أفارقها قد أفردتك بها فأنت أهل أن تطاع وأنت أهل أن تعبد وأن نقيم على طاعتك بلا فتور أو إخلال، يُريد بذلك أنني صرت مجيباً لدعوتك مسرعاً إليها مُقيماً على طاعتك ممتثالاً لأوامرك مجتنباً لنواهيك، فهي متضمنة للإجابة والإقامة: الإجابة لله والإقامة على طاعته. وتبدأ هذه الطاعة والعكوف عليها من أول دخول المسلم في النسك، فيخلي نفسه من كل ما يشده إلى الدار الفانية، ويحلق بطموحه إلى دار البقاء، فيتجرد من المخيط من الثياب، ويكتفي بإزار ورداء يستتر عورته ويكشف ذله وإفتقاره لربه، مهلاً بالتلبية مقبلاً على ربه، ما أجمل شعور المسلم عندما يلبس ثياب الإحرام، إنها من أسعد اللحظات التي تمر بالمسلم رغم أن الإحرام يمنعه من كثير من الأمور التي كان يأتيها وهو حلال قبل الإحرام، لأنه يشعر أن الله تعالى قد استدعاه لذلك، ما يعني إكرام الله له بدعوته واختصاصه بذلك الفضل العظيم، قال ابن المنير: مشروعية التلبية تنبيه على إكرام الله تعالى لعباده بأن وفودهم على بيته إنما كان باستدعاء منه سبحانه وتعالى، فهو مدعو لزيارة بيت الله، ولقد كان لهذه الكلمة وقعا ومكانتها في نفوس أهل العلم حتى قال جعفر بن محمد بن علي بن الحسين: «إني أخشى أن أقول: لبيك اللهم لبيك، فيقول: لا لبيك ولا سعديك». ولقد أحرم جده زين العابدين علي بن الحسين فلما أراد أن يقول اللهم لبيك أو قالها غشي عليه وسقط من ناقته فهشم وجهه رضي الله عنهم أجمعين. وكانت إجابة المسلم لداعي الحج تعني عنده أنه ممن استجاب لدعوة إبراهيم عليه السلام عندما أمره ربه وأذن في الناس بالحج، قال ابن حجر: «روى الفاكهي بإسناد صحيح من طريق مجاهد عن ابن عباس قال قام إبراهيم على الحجر فقال يا أيها الناس كتب عليكم الحج فأسمع من في أصلاب الرجال وأرحام النساء فأجابه من آمن ومن كان سبق في علم الله أنه يحج إلى يوم القيامة لبيك اللهم لبيك». فيا لها من بشرى يبتهج بها قلب المؤمن ويسعد ويطرب، ولذلك تجد كثيراً من المسلمين



ابن تيمية

ومقاصد شرعية غائبة



غالب المتحدثين عن مقاصد الشريعة يعولون على ما كتبه الشاطبي - رحمه الله -، ويجعل بعضهم سائر العلماء تبعاً لما حرره الشاطبي في المقاصد، كما فعلوا مع ابن تيمية، دون النظر في مواطن التميز والاستقلال لكل منهما. وفي تراث ابن تيمية معالم جليلة وتقريرات بديعة في شأن مقاصد الشريعة، تكشف رسوخه في التحقيق والتأصيل للمقاصد، وتظهر تفرد ومخالفته الفلاسفة والمتكلمين والمتصوفة - ومن تأثر بهم - الخاضعين في هذا الباب.

(*) أستاذ مشارك سابق في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض.

د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف (*)

www.alabdullatif.n#t

@drabdullatif

«ومتى اغتذت القلوب بالبدع لم يبق فيها فضل للسنن»^(٨).

ولما قرر أن النفوس خلقت لتعمل لا لتترك، انتقد - في موطن آخر - المتفلسفة ونحوهم في تعويلهم على السلب والنفي للصفات الإلهية، وأما الأفعال والسلوك فيغلب عليهم الذم والتترك من الزهد الفاسد والورع الفاسد من غير أن يأتوا بأعمال صالحة^(٩).

والحاصل أن الشرائع المأمور بها مقصودة لذاتها، وبلزومها يخلص العبد من المنهيات، ويسلم من الكسل والبطالة والعجز.

• اعتنى أبو العباس ابن تيمية بإظهار مقاصد الشرائع تفصيلاً، فقال عن الحج: «المقصود من الحج عبادة الله وحده في البقاع التي أمر الله بعبادته فيها، ولهذا كان الحج شعار الحنيفية»^(١٠).

وحدد مقصود الجهاد بقوله: «المقصود بالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: هداية العباد لمصالح المعاش والمعاد بحسب الإمكان»^(١١).

وأوجز مقصود الولايات والإمارات - كولاية الحرب والقضاء والإمامة العظمى ونحوها -، فقال: «جميع الولايات في الإسلام مقصودها أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، فإن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق لذلك»^(١٢).

• إذاً تقرر من خلال الأمثلة السابقة - كالحج، والجهاد، والولايات - أن المقصود منها: عبادة الله وحده، وإقامة الدين كله لله.

فهذا يتسق مع قرارات ابن تيمية بأن العبادة أصلها القصد والإرادة، وأن الله تعالى هو المألوه أي المعبود المقصود المراد المطلوب^(١٣).

فعبادة الله هي أشرف الغايات، وهي مقصودة في نفسها، خلافاً للمتفلسفة والمتكلمة والمتصوفة ممن جعل العبادات وسيلة لتهديب الأخلاق!

ولعل هذه السطور التالية تفتح الباب إلى هذا الموضوع الكبير.

• كثيراً ما يقرر ابن تيمية أن الإنسان مضطر إلى شرع في حياته الدنيا^(١)، وأن هذا في طبيعة الإنسان كما في قوله ﷺ: «أصدق الأسماء حارث وهمام»^(٢)، فهو حارث أي عامل كاسب، فالشرع من لوازم وجود بني آدم، فمن لم يأمر بالشرع المنزّل أمر بضد ذلك^(٣).

وكما أن الشرائع ضرورة لبني الإنسان، فهي قرة العيون وسرور القلوب، وليست مجرد تكاليف.. كما حرره ابن تيمية بقوله: «لم يجيء في الكتاب والسنة وكلام السلف إطلاق القول على الإيمان والعمل الصالح أنه تكليف، كما يطلق ذلك كثير من المتكلمة والمتفقهة، وإنما جاء ذكر التكليف في موضع النفي، كقوله «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها».. أي وإن وقع في الأمر تكليف فلا يقع إلا قدر الوسع، لا أنه يسمى جميع الشريعة تكليفاً، مع أن غالبها قرة العيون، وسرور القلوب، ولذات الأرواح، وكمال النعيم»^(٤).

• احتفى ابن تيمية بالأوامر الشرعية، باعتبار أن المأمورات مقصودة لذاتها، وقرّر أن جنس فعل المأمورات أكد من جنس ترك المنهيات^(٥)، فقال - رحمه الله - : «لا ينهى عن منكر إلا ويؤمر بمعروف يغني عنه، كما يؤمر بعبادة الله سبحانه، وينهى عن عبادة ما سواه، والنفوس خلقت لتعمل لا لتترك، وإنما التترك مقصود لغيره، فإن لم يشتغل بعمل صالح، وإلا لم يترك العمل السيئ، أو الناقص»^(٦).

وبيّن - رحمه الله - أن من لم يفعل المأمور، فعل بعض المحذور.. فكان مما قال: «وهكذا أهل البدع لا تجد أحداً ترك بعض السنة التي يجب التصديق بها والعمل إلا وقع في بدعة، ولا تجد صاحب بدعة إلا ترك شيئاً من السنة»^(٧).

(١) ينظر: التدمرية ص ٥٠٠، الإيمان ص ٤٠، جامع الرسائل ٢/ ٢٢١، المجموعة العلية ٢٠١/٢.

(٢) أخرجه أبو داود ح (٤٩٥٠)، وأحمد (٣٤٥/٤).

(٣) ينظر: الاستقامة ٢/ ٢٩٤.

(٤) الفتاوى ١/ ٢٥-٢٦، وينظر: شفاء العليل لابن القيم ص ٤٧٥.

(٥) انظر: الفتاوى ٢٠/ ٨٥.

(٦) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٦١٧.

(٧) كتاب الإيمان ص ١٦٤.

(٨) الاقتضاء ٢/ ٥٩٧.

(٩) انظر: الفتاوى ٢٠/ ١٢٦.

(١٠) الاقتضاء ١/ ٨٣٠.

(١١) الفتاوى ٣٥/ ١٦٠.

(١٢) الفتاوى ٢٨/ ٦١ (الحسية).

(١٣) ينظر: الفتاوى ١/ ٢٢، ١٠، ٢٧٢/٩، ٣١٩.

فقال - رحمه الله - : «لنّاس في مقصود العبادات مذاهب، منهم من يقول: المقصود بها تهذيب أخلاق النفوس وتعديلها.. وليست هي مقصودة في نفسها، وهذا قول متفلسفة اليونان، وقول من اتبعهم من الملاحدة والإسماعيلية وغيرهم من المتفلسفة الإسلاميين، كالفارابي وابن سينا وغيرهم، ومن سلك طريقتهم من متكلم، ومتصوف، ومتفق»^(١).

• انتقد ابن تيمية قوماً من الأصوليين الذين يعللون الأحكام الشرعية بحفظ مصالح دنيوية، ويهملون ما يتعلق بصلاح القلوب وتزكية البواطن، فقال: «وقوم من الخائضين في أصول الفقه وتعليل الأحكام الشرعية بالأوصاف المناسبة، إذا تكلموا في المناسبة، وأن ترتب الشارع للأحكام على الأوصاف المناسبة يتضمن تحصيل مصالح العباد ودفء مضارهم، ورأوا أن المصلحة نوعان: أخروية، ودنيوية، جعلوا الأخروية ما في سياسة النفس، وتهذيب الأخلاق من الحكم، وجعلوا الدنيوية ما تضمن حفظ الدماء والأموال والفروج والعقول والدين الظاهر، وأعرضوا عما في العبادات الباطنة والظاهرة من أنواع المعارف بالله، وأحوال القلوب وأعمالها: كمحبة الله، وخشيته، وإخلاص الدين له، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، ودعائه»^(٢).

وهذا التحرير السابق هو تعقيب لمن قال: إنما حُرِّم الميسر لمجرد المقامرة، أو لمجرد أكل أموال الناس بالباطل.. فبيّن ابن تيمية أن علة التحريم جاءت منصوصاً عليها في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: ٩١]، ففوق العداوة والبغضاء من أعظم الفساد، وصدود القلب عن ذكر الله وعن الصلاة من أعظم الفساد.. فكيف تجعل مفسدة المال هي حكمة النهي فقط، وهي تابعة، وتترك المفسدة الأصلية التي هي فساد القلب^(٣).

• جعل الفلاسفة مقصود الشرائع إقامة مصالح الناس في دنياهم بالعدل الذي شرعته الأنبياء^(٤)، لا لأن ذلك يوجب السعادة في الآخرة، وفي كلام أبي حامد

الغزالي ما يميل إلى هذا، كجعله منفعة علم الفقه في الدنيا فقط^(٥).

• وكشف ابن تيمية زيف الذين يجعلون الشرائع لمصالح دنيوية، ولا يقيمون ليوم الآخرة وزناً، ولا يرفعون بذلك رأساً.. فكان مما قاله: «ليس المقصود بالدين الحق مجرد المصلحة الدنيوية من إقامة العدل بين الناس في الأمور الدنيوية، كما يقوله طوائف من المتفلسفة في مقصود النواميس والنبوات أن المراد بها مجرد وضع ما يحتاج إليه معاشهم في الدنيا من القانون العدلي الذي ينتظم به معاشهم.

• إلى أن قال: وهؤلاء المتفلسفة الصائبة المبتدعة من المشائين، ومن سلك مسلكهم من المنتسبين إلى الملل في المسلمين واليهود والنصارى؛ يجعلون الشرائع والنواميس لوضع قانون تتم به مصلحة الدنيا، ولهذا لا يأمرهم فيها بالتوحيد، وهو عبادة الله وحده، ولا بالعمل للدار الآخرة، ولا ينهون فيها عن الشرك، بل يأمرهم فيها بالعدل والصدق والوفاء بالعهد، ونحو ذلك من الأمور التي لا تتم مصلحة الحياة الدنيا إلا بها»^(٦).

فكان ابن تيمية يتحدث عن واقعنا الحاضر، فقد استحوذ النَّفسُ الدنيوي في هذا العصر، فانهمكوا في الحديث عن ثقافة الحقوق المعاشية والدنيوية، واقتصروا في الأخلاق على ما يحقق مصالح الدنيا وحفظها فحسب، وغاب التذكير بالإيمان بالآخرة، وغلب الاهتمام بال عمران والحضارة وشبهها من أحوال الدنيا والمعاش، وصار الاهتمام بالحكم الدنيوية في العبادات والمعاملات، والغفلة عن الحكم الأخروية، ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

وأخيراً، فهذا الشرع المنزّل أعظم الضرورات، وهو أتمّ نعمة، وأعظم سرور، وعبادة الله ولزوم شرعه أشرف الغايات والمقاصد، فلا يسوغ أن يكون وسيلة لغيره، ولا يصلح أن تكون مجرد حظوظ الدنيا مراداً من الشرع مع الإعراض عما هو خير وأبقى من صلاح القلب ونعيم الآخرة والشوق إلى لقاء الله والنظر إلى وجهه الكريم.

(١) الجواب الصحيح ١٠٥/٤.

(٢) الفتاوى ٣٢/٢٣٤= باختصار يسير.

(٣) ينظر: الفتاوى ٣٢/٢٢٤-٢٢٣.

(٤) ينظر: الدرء ٧/٢٢٣، والفتاوى ١٧/٢٣٠.

(٥) ينظر: الرد على حزب الشاذلي ص ٢٠٣.

(٦) جامع الرسائل ٢/٢٢١-٢٢٣= باختصار.



نظرات في يسر الشريعة الإسلامية



■ د. هاني بن عبد الله الجبير*

وقال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].
وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «إن الدين يسر»^(١).

فهذه كلها أدلة على أن الشريعة الإسلامية شريعة سهلة يسيرة، وأن أي حكم خرج عن التسهيل والسهولة واليسر إلى ضده من المشقة والعنت والحرص، بمعنى: أنه خلاف السهولة

(٢) صحيح البخاري (٣٩).

الشريعة الإسلامية جاءت بالتخفيف والتيسير ورفع المشقة والحرص، قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال النبي ﷺ: «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»^(١).

وفي مسند الإمام أحمد أن النبي ﷺ قال: «بعثت بالحنيفية السمحة»^(٢).

(*) قاض شرعي في محكمة الرياض.

(١) أخرجه البخاري (٢١٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) مسند أحمد (٢٢٢٤٥)، عن أبي أمامة رضي الله عنه.

والفرس والقبط والبربر والروم والتتار والهنود والصين والترک من غير أن يجدوا حرجاً ولا عسراً في الإقلاع عما نزعوه من قديم أحوالهم الباطلة^(١).

معنى المشقة وأنواعها:

وليتضح المقصود بتخفيف الشرع عند ورود المشاق، نحتاج إلى أن ننتب معنى المشقة في التكليف. والمشقة ترد على أمرين:

الأول: ترد على الظروف التي تصيب الإنسان من مرض وفقير وغير ذلك.

الثاني: ترد على التكاليفات نفسها.

وعلى هذا تأتي المشقة على مرتبتين:

الأولى: مشقة لا يقدر عليها المكلف وتخرج عن قدرته، وما كان كذلك فلا يكلف به الإنسان؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

الثاني: مشقة يقدر عليها المكلف، لكن بحرج وصعوبة تخرج عن المعتاد، فهذه المشقة التي تخرج عن المعتاد إذا وجدت في أفعال مخصوصة (كالصوم في السفر مثلاً)، فإن الله تعالى شرع فيها التيسير.

أما الأفعال الكلية فليس في تشريعها مشقة، ولا يمكن أن تكون الأفعال الكلية التي جاءت بها الشريعة فيها مشقة، فلا يمكن أن تكون في الصلوات الخمس المفروضة أو الوضوء أو الصيام أو الزكاة مشقة، لكن قد ترد المشقة في النوافل إذا أكثر منها الإنسان؛ ولذلك أمر الشرع المكلف بالتوسط والاعتدال فيها، كما قال النبي ﷺ: «عليكم من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا»^(٢)؛ لأن النوافل قد ترد فيها مشقة خارجة عن المعتاد في أفعال كلية، فلذلك أمرهم النبي - عليه الصلاة والسلام - بلزوم التوسط والاعتدال بالألّا يدخلوا على أنفسهم المشقة بفعل كلي من أفعال النوافل، لكن مجرد الفرائض ليس فيها مشقة.

كذلك النوافل على الوجه الذي ليس فيها مبالغة ليس فيها مشقة، وحد المبالغة في النوافل يتفاوت بينها وليس له ضابط، لذلك النبي - عليه الصلاة والسلام - قال للأعرابي الذي قال: «والله لا أزيد على الفرائض. قال: «أفلح إن صدق»^(٣).

واليسر؛ فهو ليس من الدين، فالشريعة الإسلامية جاءت برفع الحرج عن المكلفين بمراعاتها الظرف، والزمان، والمكان، والوضع الاجتماعي، والسياسي؛ الذي يعيش المكلفون فيه؛ فليس الحكم للقوي مثل الضعيف، ولا للأمن مثل الخائف، ولا من كان في حال السعة والاختيار كمن كان في حال الحاجة والاضطرار.

ولذا: كان من قواعد الفقه الأساسية: المشقة تجلب التيسير، وهذه القاعدة ليس المراد منها: أن في هذا الدين عسراً، وإنما المراد: أنه قد يطرأ عسر ومشقة في ظروف الإنسان المكلف يستوجب التخفيف والتيسير.

مثال ذلك: فرض الله تعالى الصلاة والصيام علينا، وليس فيها مشقة في حالة الاعتقاد، فيستطيع الإنسان أن يصوم وأن يصلي الصلاة في وقتها، فيصلحها أربع ركعات، لكن قد تدخل المشقة على المكلف بسبب ظرف السفر، فاستوجبت حصول نوع من التيسير، وهو تخفيف الصلاة الرباعية إلى ركعتين، والإذن بالجمع بين الصلاتين في وقت إحداهما فيما يجمع بعضه لبعض، وأن يؤذن له بالفطر في السفر على أن يقضيه بعد ذلك.

فهذا نوع من التيسير لحق بالمكلف بسبب ظرف أصابه، وإلا فالشريعة كلها يسر وسهولة؛ لذلك فعلى من يدعو إلى التيسير في الأحكام الشرعية أن يعلم ولا بد وأن يستقر عنده أن الشريعة بوضعها الذي أنزله الله تعالى على نبيه كلها يسر وسهولة، فإن الله تعالى رفع عن هذه الأمة ما كان على الأمم السابقة من الإصر والأغلل والحرج، فليس في هذه الشريعة مشقة حتى يأتي من يطالب بالتيسير فيها.

يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: (فعموم الشريعة لسائر البشر في سائر العصور مما أجمع عليه المسلمون، وقد أجمعوا على أنها مع عمومها صالحة للناس في كل زمان ومكان، ولم يبيّنوا كيفية هذه الصلوحية؛ وهي عندي تحتل أن تتصور بكيفيتين:

الكيفية الأولى: أن هذه الشريعة قابلة بأصولها وكلياتها للانطباق على مختلف الأحوال بحيث تسائر أحكامها مختلف الأحوال دون حرج ولا مشقة ولا عسر.

الكيفية الثانية: أن يكون مختلف أحوال العصور والأمم قابلاً للتشكيل على نحو أحكام الإسلام دون حرج ولا مشقة ولا عسر كما أمكن تغيير الإسلام لبعض أحوال العرب

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية، ص ٩٢ - ٩٣.

(٢) أخرجه البخاري (١١٠٠)، ومسلم (٧٨٢) واللفظ له، عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري (٤٦)، ومسلم (١١)، عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه.

وقال لابن عمر: «يا عبد الله! لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل فترك قيام الليل»^(١).

والمشقة المعتادة هي: التي لا يؤدي الاستمرار عليها إلى الانقطاع عن العمل، أو الانقطاع عن بعضه، أو الإخلال بالملكف.

فالانقطاع عن العمل معناه: أن يصيب الإنسان الملل والسأم والفتور، أو الانقطاع عن بعضه فلا يكمله، أو الإخلال بالملكف، بمعنى: أن يؤثر على حقوق أخرى مطالب بها، لذلك في قصة سلمان وأبي الدرداء لما أراد أن يقوم فأمره بالنوم، وأراد أن يصوم فأمره بالفطر، قال: «إن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً»^(٢)، فأمره بمقتضى التوسط الذي لا يدخل الإخلال على الملكف.

وكذلك: «لما أمر النبي ﷺ ابن عمر بالآل يختم القرآن في كل ليلة، وألا يصوم كل يوم»^(٣)؛ لأنه يؤدي به هذا إلى الانقطاع عن العمل، كما وقع منه رضي الله عنه في آخر حياته.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال لرسول الله ﷺ يا عبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل فقلت بلى يا رسول الله قال فلا تفعل صم وأفطر وقم ونم فإن لجسدك عليك حقاً وإن لعينك عليك حقاً وإن لزوجك عليك حقاً وإن لزورك عليك حقاً وإن بحسبك أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها فإن ذلك صيام الدهر كله فشددت فشددت عليّ قلت يا رسول الله إني أجد قوة قال فصم صيام نبي الله داود عليه السلام ولا تزدد عليه قلت وما كان صيام نبي الله داود عليه السلام قال نصف الدهر فكان عبد الله يقول بعد ما كبر يا ليتني قبلت رخصة النبي ﷺ.

قال في فتح الباري^(٤): (قال النووي: معناه أنه كبر وعجز عن المحافظة على ما التزمه ووظفه على نفسه عند رسول الله ﷺ فشق عليه فعله لعجزه، ولم يعجزه أن يتركه لالتزامه له، فتمنى أن لو قبل الرخصة فأخذ بالأخف، قلت: ومع عجزه وتمنيه الأخذ بالرخصة لم يترك العمل بما التزمه، بل صار يتعاطى فيه نوع تخفيف كما في رواية حصين: «وكان عبد الله حين ضعف وكبر يصوم تلك الأيام كذلك يصل بعضها إلى

(١) أخرجه البخاري (١١٠١) واللفظ له، ومسلم (١١٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٨٦٧) واللفظ له، عن أبي حنيفة وهب بن عبد الله رضي الله عنه، ومسلم (١١٥٩)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٣) انظر: صحيح البخاري (١٨٧٥)، صحيح مسلم (١١٥٩).

(٤) (٢٤٦/٦) باب حق الجسم في الصوم.

بعض ثم يفطر بعد تلك الأيام فيقوى بذلك، وكان يقول: لأن أكون قبلت الرخصة أحب إلي مما عدل به، لكنني فارقت على أمر أكره أن أخالفه إلى غيري).

لكن لو أن إنساناً يلتزم نوافل لا تؤدي به إلى الانقطاع عن العمل، فلا حرج عليه، وهذا يتفاوت بين الناس، ولذلك نجد فعل السلف في تفاوتهم في الأخذ بالعبادات، وتفاوتهم في التشديد والتيسير على أنفسهم؛ نعرف أن مرده إلى هذا، فمن الناس من يكون تحمله أكثر فلا تكون هذه العبادة التي يفعلها من قبيل المشقة الخارجة عن المعتاد، ومنهم من يكون تحمله أقل فيكون فعله خارجاً عن المعتاد، فيلزم أن يترك فعله إلى ما هو أقل منه.

قال ابن تيمية: (وقد يكون العمل المفضول أفضل بحسب حال الشخص المعين؛ لكونه عاجزاً عن الأفضل أو لكونه محبته ورغبته وأهتامه وانتفاعه بالمفضول أكثر فيكون أفضل في حقه لما يقترب به من مزيد عمله وحبه وإرادته وانتفاعه كما أن المريض ينتفع بالدواء الذي يشتهي ما لا ينتفع بما لا يشتهي وإن كان جنس ذلك أفضل)^(٥).

وقد ترد المشقة بمعنى: المشقة التي لا تخرج عن المعتاد، فمجرد خروج الإنسان من بيته وذهابه إلى المسجد فيه مشقة، بمعنى أن الأسهل له الجلوس في بيته.

وكذلك مجرد امتناع الإنسان عن الطعام والشراب وبقية المفطرات من طلوع الفجر إلى المغرب فيه مشقة، لكنها ليست خارجة عن المعتاد.

والمشقة بهذا الاصطلاح تأتي بها التكاليف ولا يشرع فيها تخفيف، بل لا تقوم حياة أحد إلا بمثل هذه المشقة، فمجرد عمله في الدنيا وسعيه فيها فيه مشقة، ومجرد حياته المعتادة فيها مشقة، فلكذلك التكاليف الشرعية قد جاءت بمثل هذه المشقة التي لا تخرج عن المعتاد، وإلا لو لم تكن هذه المشقة موجودة لكان الناس كلهم طائعين، ولما وجد عاص في هذه الدنيا.

وتأتي المشقة بمعنى: خروج الملكف عن مقتضى هواه وغرائز شهوته، فهذه المشقة جاءت الشرعية بها ولا يعذر الملكف بوجودها، فمجرد هواه ورغبته وميله لا يكون سبباً للتخفيف، والمشقة هنا جاء الشرع بعدم الالتفات إليها كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [٧١]، وقال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «لا يؤمن

(٥) مجموع الفتاوى (٣١١/٢٥).

فيها حد شرعي، فإذا وجد الحد الشرعي انتهينا إليه، ولذلك قال الناظم:

والقول في ضبط المشاق مختلف

بحسب الأحوال فيما قد عرف

وإذا تأملنا موقف الإمام أحمد، فمن المعلوم أن من أكره على قول كلمة كفر يباح له أن يقولها، فلما جاء يحيى بن معين إلى الإمام أحمد بعد اندفاع فتنة القول بخلق القرآن، وكان يحيى بن معين - رحمه الله تعالى - قد أجاب في هذه الفتنة بقصد التخلص من هذا الأذى الذي أصابه؛ امتنع الإمام أحمد عن محادثته تأنيباً له، فالإمام أحمد لم يجعل فعل يحيى بن معين محل رخصة، بل هجره على هذه الكلمة، فقال له يحيى بن معين: (عمار بن ياسر أكره على كلمة الكفر).

ومع ذلك لم يرخص له الإمام أحمد؛ لأنه يقول: هذه الأمور ترجع إلى تفاوت الناس، فمن الناس من لا يتكلم بكلمة الكفر ولو أكره، وقال: يحتج بحديث عمار وحديث عمار مررت بهم وهم يسبونك فنهيتهم فضربوني وأنتم قيل لكم نريد أن نضربكم، أي أن عمار ضرب، وأنتم قيل لكم ستضربون^(٤).

لذلك لما جاءه عبدالرحمن بن مهدي وقال له وقت الفتنة وهو يعذب: (يا أبا عبد الله! عليك عيال، ولك صبيان، وأنت معذور. كأنه يسهل عليه الإجابة. فقال الإمام أحمد: إن كان هذا عقلك يا أبا سعيد فقد استرحت)^(٥)، أي: إذا كان هذا مستوى تفكيرك فقط أنك تبحث عن رخصة فأنت مرتاح، ثم قال له: اخرج فانظر، فخرج فرأى طلاب العلم معهم القراطيس والأقلام يكتبون ما يقوله الإمام أحمد، قال: أوضل كل هؤلاء! أي: فيحسبون أن هذا هو اعتقاد السلف وهو منهجهم فيقفون عنده.

الاستطاعة شرط للتكليف:

ومن أوجه يسر هذه الشريعة أن تكليف الله تعالى للعباد لا يكون إلا بما يقدرون عليه، قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»^(٦)، فالذي لا يستطيعه الإنسان لا يجب عليه؛ لأن الله تعالى يمكن أن يكلفنا بشيء لا نقدر عليه.

أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به^(١). ومن تأمل الشرع وجد أن كثيراً من أحكامه تنصب في إخراج المكلف من دائرة هواه ودواعي ونوازع شهوته.

فيتلخص مما سبق: أن المشقة ترد بمعنى: المشقة المعتادة، والمشقة التي هي إخراج الإنسان عن هواه، ولا ترد بمعنى: خروج الإنسان عن المعتاد، ولا بما لا يقدر عليه. أما المشقة التي تعني الظروف التي تصيب الإنسان فهي على قسمين:

القسم الأول: مشقة عظيمة تخرج عن المعتاد، مثل: إنسان يريد أن يصلي في المسجد وفي طريقه إلى المسجد ظالم يريد أن يأخذه، فهذه مشقة خارجة عن المعتاد، وقد جاء الشرع بالتخفيف والتيسير فيها.

القسم الثاني: المشاق اليسيرة، وهي ليست على درجة واحدة، فمنها: صداع يسير يصيب الإنسان، أو ألم في بعض أصابعه، فهذا لا يقتضي التيسير.

فإذا كان في الطريق من بيته إلى المسجد لصلاة الجماعة مطر وخروجه يؤدي به إلى أن تبتل ثيابه، فالمطر مشقة يترك الجماعة بسببها، فإذا قيل: ما الفرق بينها وبين الصداع اليسير؟ نقول: هذه المشاق جاء فيها نص من الشارع فتقف عنده، وهو: «أن رسول الله ﷺ كان يأمر المؤذن إذا كانت ليلة باردة أو ذات مطر في السفر أن يقول: ألا صلوا في رحالكم»^(٢).

أما ما لم يرد فيه نص من الشارع فترجع إلى ما تقدم من تفاوت واختلاف المكلفين، وهذه ليس فيها ضابط، بل كل إنسان ينظر في نفسه، وكل إنسان يكون فقيه نفسه.

وحاصل ما سبق أن المشاق الواردة على الإنسان؛ إما أن تكون مشاقاً عظيمة تستدعي التخفيف، وإما أن تكون قد ورد الشرع بالتخفيف والتيسير فيها، مثل: السفر والمطر، فهذا مورد للتخفيف، سواء كان شاقاً أو لا، وما لم يرد فيه نص فإنه يرجع اعتباره إلى حال الإنسان؛ لذا قال الشاطبي: (الرخصة إضافية لا أصلية)^(٣)، بمعنى: أن ينظر فيها باعتبار كل شخص، فكل أحد في الأخذ بها فقيه نفسه، ما لم يوجد

(١) أخرجه البغوي في شرح السنة (٢١٢/١-٢١٣)، وابن أبي عاصم في السنة (١٢/١).

(٢) أخرجه مسلم (٦٩٧)، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) الموافقات (١/٣١٤).

(٤) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (١/١٦٤).

(٥) الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/٢٥).

(٦) أخرجه البخاري (٦٨٥٨) واللفظ له، ومسلم (١٣٣٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.



ولما سئل بعض السلف: أيجسد المؤمن؟ قال: «لا أباً لك، أما أنساك بني يعقوب!»^(١)، فأخوة يوسف حسدوه - عليهم السلام -).

فالإِنسان هنا يكون مطالباً فقط بالسوابق واللواحق. فمثلاً: إذا حسد فهو مطالب بألا يعتدي وألا يبغى وألا يظلم وألا يتكلم بالشر، وأيضاً مطالب قبل ذلك بألا يتمنى زوال النعمة عن أخيه، وأن يعترف بنعمة الله تعالى عليه، وأن الله تعالى منعه لحكمة عظيمة فيه.

مثال آخر: إنسان رأى امرأة حسناء بغير قصد منه فوقعت محبتها في قلبه، وهو رآها نظرة واحدة فصرف بصره عنها؛ فهو هنا ليس مكلفاً ومؤاخذاً بما يقع في نفسه من المحبة، وإنما هو مكلف ومؤاخذاً بلواحق المحبة، أي: أنه مأمور بالتعفف، والبعد عن مواضع الريبة، والبعد عن المجاهرة بالسوء، والبعد عن الجلوس لها أو الارتباط بها إلا بالحلال.

وعموماً نقول: إنه لا يجب على الإنسان شيء إلا إذا كان تحت قدرته، وأما ما لا يقدر عليه فإنه غير مكلف به. وبعد.. فهذه نظرات في بعض من وجوه عظمة التشريع الإسلامي، وموافقته مقتضى الفطرة البشرية، وما تتصف به من توسطٍ باتباعها بين الغلو والجفاء، آخذةً بآبائهما طريفاً لا يقطعهم عن نيل مقاصدهم البشرية، ولا يقعدهم عن تبتلاتهم الروحية، مشبعةً حاجة الجسد والروح في تناسقٍ مبهرٍ واتساقٍ فريدٍ.

اللهم يا مقلب القلوب ثبتنا على الإسلام حتى نلتقاك.

(٢) أخرجه ابن السري في الزهد (٦٤٢/٢) واللفظ له. وانظر: التمهيد (١٢٦/٦)، وتفسير القرطبي (١٣٨/٩).

فلو جاء الشرع بتكليف ما لا يدخل تحت قدرة العبد - لو فرض هذا -، فالتحقيق أن التكليف إنما وقع بسوابق هذا الفعل غير المقدور أو بلواحقه وليس التكليف به هو.

مثال ذلك: قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، أي: أمرك بالموت وأنت مسلم، فجلب الإنسان الموت لنفسه مما لا يدخل تحت قدرته، وإنما المراد: الشيء السابق عليه، وهو: أن تدخل في الإسلام حتى يجيء الموت وأنت عليه.

كذلك: الأمر بحب من أمرنا الله تعالى بحبه، وبغض من أمرنا الله تعالى بيبغضه، فالحب والبغض لا يتحكم الإنسان فيهما، فلا يقدر أن يبغض ويحب كما يريد.

إذاً: التكليف يكون في مثل هذه الأمور بالسوابق وباللواحق، والسوابق معناها: التأمل في فضل هذا الإنسان الذي أمرنا بحبه، وفي إحسانه، وفي سبقه، وفي مزاياه، ومحاسنه؛ حتى يورث هذا التأمل محبته.. وكذلك بلواحقه، فإذا أحببنا النبي ﷺ اتبعنا هديه، وإذا أحببنا أبا بكر وعمر ترضينا عنهما ودعونا لهما.

ولذا يقرر الشاطبي أن الإنسان لو تعاطى السوابق واللواحق ولم يتمكن من تعاطي الفعل نفسه الذي وقع عليه التكليف، وهو غير مقدور عليه؛ فإنه لا يؤاخذ، مع أنه لا يتصور هذا عقلاً^(١).

فمثلاً: لو تعاطى الإنسان أسباب المحبة، وتأمل الفضل، وتأمل السبق، وتأمل الإحسان، ثم ترضى عن أمرنا بحبه، لكن لم تقع في قلبه محبة؛ فهو غير آثم، مع أن هذا غير متصور عقلاً؛ إذ إن كل من تأمل محاسن أحد فإنه لا بد أن يورث هذا التأمل في قلبه المحبة.

وبعدما ذكر هذه القاعدة قال رحمه الله: (وهذا باب من الفقه من أدركه وفهمه حل له كثيراً من العضلات، وبخاصة في أبواب أعمال القلوب والمقاصد والنيات؛ لأن من الأمور ما تكون داخلة على الإنسان اضطراراً، مثل: الحسد وحب الدنيا وحب الجاه والكبر، فهذه أحياناً تدخل على الإنسان اضطراراً، بمعنى: أنه لا يستطيع أن يتخلص من الحسد، لذلك قيل: ما خلا جسد من حسد، لكن الكريم يخفيه والثيم بيديه.

(١) انظر: الموافقات (١٠٨/٢).



معالم في الدعوة والتربية والمنهج

من حديث جابر

أ. د. ناصر بن سليمان العمر*

@naseralomar

والمقصود نحن مع حديث يرويه إمام في الضبط والفهم والفقہ والديانة، وهو حديث دال على ضبطه ودقته، فسياقه الحسن الطويل، وتخريجه في أصح الكتب، واحتجاج الناس به على من خالفه؛ كل ذلك يدل على إمامة راويه وتقدمه رضي الله عنه وأرضاه، وهذا الحديث له مكانة عند أهل العلم اعتنوا به قديماً وحديثاً، قال الإمام النووي: «حديث جابر رضي الله عنه - وهو حديث عظيم - مشتمل على جمل من الفوائد ونفائس من مهمات القواعد، وقد تكلم الناس على ما فيه من الفقه وأكثروا. وصنف فيه أبو بكر بن المنذر جزءاً كبيراً، وخرج فيه من الفقه مائة ونيفاً وخمسين نوعاً، ولو تقصى لزيد على هذا القدر قريب منه»^(٤). ولا يزال الناس يكتبون في حديث جابر ويؤلفون المؤلفات النافعة في شرحه، وفقه أحكامه. والمقام لا يتسع للحديث عما تضمنه هذا الحديث من الفقه، وقصدي هنا الوقوف مع فوائد ومعالم تضمنها في المنهج والتربية والآداب، أعرضها باقتضاب، فمن ذلك:

يعدُّ حديث جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري رضي الله عنهما، من الأصول في كتاب الحج، فعبد الله بن حرام صحابي جليل نقيب بدري له مناقب وفضائل مشهورة، وابنه جابر بايع تحت الشجرة، وشهد العقبة، والمشاهد كلها سوى بدر وأحد، فقد كان يخلف أباه في شؤون أهلهم، وكانت له أخوات.

قال الذهبي في ترجمته: «الإمام الكبير، المجتهد، الحافظ، صاحب رسول الله ﷺ أبو عبد الله، وأبو عبد الرحمن الأنصاري، الخزرجي، السلمي^(١)، المدني، الفقيه. من أهل بيعة الرضوان، وكان آخر من شهد ليلة العقبة الثانية»^(٢).

وقال: «وكان مفتي المدينة في زمانه، عاش بعد ابن عمر أعواماً، وتفرد، وشاخ، وذهب بصره، وقارب التسعين»^(٣).

(*) الأمين العام لرابطة علماء المسلمين.

(١) السلمي هكذا يضبطها أكثر أهل الحديث، وأما أهل اللغة فيضبطونها السلمي، بفتح اللام، والنسبة لبني سلمة بطن من الخزرج، ووافق الغويين في هذا الضبط بعض أهل الحديث كما ذكر ذلك الحافظ ابن رجب.

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ١٨٩.

(٣) سير أعلام النبلاء ٣/ ١٩٠.

(٤) شرح النووي على مسلم ٨/ ١٧٠.



أولاً:

الحديث يروي عن جابر رضي الله عنه محمد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب أبو جعفر المعروف بالباقر الإمام الخامس عند الاثني عشرية، والراوي عنه ابنه جعفر الصادق الإمام السادس عند الاثني عشرية، وقد افترت عليهما الرافضة وكذبت كثيراً حتى قال بعض أهل العلم في الباقر: «ليس يروي عنه من يحتج به»^(١)، وهذا خرج مخرج الغالب، وإلا فمثل هذه الرواية المثبتة في الصحيح حجة بإجماع أهل السنة، والمقصود أن أبا جعفر الباقر، وابنه جعفر الصادق؛ كانا إمامي هدى، يتولان الصحابة ويحبانهم، استفادا من علمهم، وطلبا السنة عند أكابريهم، لكن الأفككون - قاتلهم الله - افتروا عليهما، فلا يجوز أن نطعن في الباقر أو الصادق - رحمهما الله، بل علينا أن نتولاهما، وأن نعلم أنه كذب عليهما. ومما ينبغي أن نعلمه أنهما كانا يجلان أبا بكر وعمر، قال محمد بن فضيل بن غزوان، عن سالم بن أبي حفصة: سألت أبا جعفر محمداً بن علي وجعفر بن محمد عن أبي بكر وعمر، فقالا لي: يا سالم تولهما وإبراً من عدوهما، فإنهما كانا إمامي هدى^(٢). وقال إسحاق بن يوسف الأزرق عن بسام الصيرفي: سألت أبا جعفر، قلت: ما تقول في أبي بكر وعمر؟ فقال: والله إني لأتولاهما وأستغفر لهما، وما أدركت أحداً من أهل بيتي إلا وهو يتولاهما^(٣). وقال أبو نعيم عن عيسى بن دينار المؤذن: سألت أبا جعفر عن أبي بكر وعمر، فقال: مسلمان رحمهما الله. فقلت له: أتولاهما وأستغفر لهما؟ قال: نعم. قلت: أتأمرني بذلك؟ قال: نعم - ثلاثاً -، فما أصابك منهما فعلى عاتقي! وقال بيده على عاتقيه، وقال: كان بالكوفة علي خمس سنين، فما قال لهما إلا خيراً، ولا قال لهما أبي إلا خيراً، ولا أقول إلا خيراً^(٤).. والآثار عنهم في هذا المعنى محفوظة.

(١) قاله ابن سعد في الطبقات ٥/٣٢٣.

(٢) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة ١/١٧٥ (١٧٦) بإسناد حسن، ورواه شعبة! والآجري في الشريعة ٥/٢٢٢٥ (١٧٠٨)، والدارقطني في فضائل الصحابة ص ٣٣ (٢٤)، وغيرهم.

(٣) أخرجه الدارقطني في فضائل الصحابة ص ٣٧ (٢٧)، بإسناد جيد.

(٤) أخرجه ابن عساکر في تاريخ دمشق ٤/٢٨٨، وسنده جيد.

في قول محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما: «دخلنا على جابر بن عبد الله، فسأل عن القوم، حتى انتهت إليّ، فقلت: أنا محمد بن علي بن حسين، فأهوى بيده إلى رأسي، فنزع زري الأعلى، ثم نزع زري الأسفل، ثم وضع كفه بين ثديي، وأنا يومئذ غلام شاب، فقال: مرحباً بك يا ابن أخي، سل عما شئت...» الحديث: ردّ على الرافضة من وجوه عدة، منها:

• استفادة الباقر رحمه الله العلم من صحابة رسول الله ﷺ.

• ومنها أن الأئمة لا يعلمون الغيب، فإذا كان عالماً للغيب ما احتاج لأن يسأل جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

• ومنها أن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما الذي كان يجله الباقر رحمه الله، كان يجلس الصحابة ويروي الأحاديث في فضائلهم، لا سيما أبي بكر وعمر، فمن ذلك حديثه رضي الله عنهما، قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: رَأَيْتِي دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا أَنَا بِالرُّمَيْصَاءِ امْرَأَةِ أَبِي طَلْحَةَ وَسَمِعْتُ خَشْفَةً فَقُلْتُ مَنْ هَذَا فَقَالَ هَذَا بِلَالٌ وَرَأَيْتُ قَصْرًا بِنِجَانِهِ جَارِيَةٌ فَقُلْتُ لِمَنْ هَذَا فَقَالَ لِعُمَرَ فَأَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَهُ فَأَنْظَرَ إِلَيْهِ فَذَكَرْتُ غَيْرَتَكَ فَقَالَ عُمَرُ بِأُمِّي وَأَبِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعَلَيْكَ أَغَارٌ، وهو في البخاري^(١)، ولجابر أحاديث كثيرة يرويها عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، بل روى محمد بن عقيل عن جابر بن عبد الله، قال: مشيت مع رسول الله ﷺ إلى امرأة من الأنصار، فذبحت لنا شاة، فقال رسول الله ﷺ: (ليدخلن رجل من أهل الجنة)، فدخل أبو بكر، فقال: (ليدخلن رجل من أهل الجنة)، فدخل عمر، فقال: (ليدخلن رجل من أهل الجنة)، فقال: (اللهم إن شئت فاجعله علياً)، فدخل عليّ، الحديث في مسند أحمد^(٢)، وحسنه جمع من أهل العلم.

• ومنها أن جابراً نقل خيراً عن ذلك الجيل، فقد ذكر العدد العظيم الذي حج مع رسول الله ﷺ، وبين حرصهم على الائتمام به، وعملهم بما عمل به ﷺ، والرافضة لا تعتقد ذلك في صحابة رسول الله ﷺ.

(١) صحيح البخاري (٣٤٧٦)، وصحيح مسلم (٢٣٩٤).

(٢) مسند أحمد ٣/٢٨٧، وانظر تخريجه في (١٥١٦٢) من طبعة الرسالة.

يظهر في الحديث بجلاء حرص الصحابة رضوان الله تعالى عليهم والجيل الأول من التابعين على الخير وتعلم هدي النبي ﷺ، والائتمام به رجالاً ونساء، ومن ذلك:

• مجيء أبي جعفر الباقر رحمه الله وحرصه على السؤال مع صغر سنه: (وأنا يومئذ غلام شاب)، يعني صغير، وقد كان مولده رحمه الله سنة ٥٦هـ، ووفاة جابر بن عبد الله رضي الله عنهما كانت بعد السبعين على قول، وقيل قبلها، وقد أضرّ بآخر عمره، فالظاهر أن هذا الحديث يرويه والباقر عمره نحو ١٥ سنة أو قريباً منها.

• ومن ذلك ضبط جابر رضي الله عنه خبر الحج، وسياقه هذا السياق الحسن بعد أكثر من ستين سنة.

• قوله فيه: (فقدم المدينة بشر كثير، كلهم يلتمس أن يأتيهم برسول الله ﷺ، ويعمل مثل عمله)، جاءوا من الأصقاع والبلدان ليأتهم ويتعلموا ويعملوا، وهذا يدلنا على شيء من أجواء ذلك الجيل العلمية والإيمانية.

• قوله فيه: (فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة، فولدت أسماء بنت عميس، محمد بن أبي بكر، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ كيف أصنع؟ قال: اغتسلي، واستثري بثوب، وأحرمي)، وهذا أمر عجب والله! فذو الحليفة قريب جداً من المدينة، وهذا يدل على أن أسماء رضي الله عنها كانت تشعر بالطلق وآلام المخاض، ومع ذلك بلغ من حرصها رضي الله عنها على تلك الحجة أن خرجت في تلك الحال، ثم لما نفست وذلك قبل أن تحرم، ما فكرت في الرجوع! فلا إله إلا الله أين نساء المؤمنين من تلك صويحبات تلك العزمات.

• قوله: (فصلى رسول الله ﷺ في المسجد، ثم ركب القصواء، حتى إذا استوت به ناقته على البيداء، نظرت إلى مد بصري بين يديه من راکبٍ وماشٍ، وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ومن خلفه مثل ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، وعليه ينزل القرآن، وهو يعرف تأويله، وما عمل به من شيء عملنا به)، فانظر إلى هذا الجم الغفير، كيف يرمق رسول الله ﷺ ليعمل بعمله، (ما عمل به من شيء عملنا به)، ما كانوا يتساءلون: واجب هو؟ لا! يكفي أن رسول الله ﷺ عمله ليحرصوا على العمل به.

• حرصهم على السؤال عما أشكل عليهم، ومن ذلك:

- سؤال سراقه بن جعشم في الحديث لما قال رسول الله ﷺ: «لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدى، وجعلتها عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدي فليحل، وليجعلها عمرة. فقام سراقه بن مالك بن جعشم، فقال: يا رسول الله! ألعامنا هذا، أم لأبدي؟ فشبك رسول الله ﷺ أصابعه، واحدة في الأخرى، وقال: دخلت العمرة في الحج، مرتين، لا بل لأبدي أبدي».

- سؤال علي رضي الله عنه عما صنعتها فاطمة رضي الله عنها لما حلت ولبست الصبيغ من الثياب: (فذهبت إلى رسول الله ﷺ محرشاً على فاطمة للذي صنعت، مستفتياً لرسول الله ﷺ فيما ذكرت عنه).

إلى غير ذلك مما يدل على حرصهم على الخير والعلم والعمل.. ففرق بين حج هؤلاء وحج أناس يبحثون عن الرخص ويتبعونها، وربما لووا أعناق النصوص ليركبوها! أما أولئك فالأصل عندهم الاقتداء بالنبي ﷺ، لأجل ذلك خرجوا، وما عمل به عملوا، ثم وقعت لأفراد منهم عوارض وجد فيها لهم رسول الله ﷺ رخصة، فالواجب أن نربي الناس على الاقتداء بالنبي ﷺ والأخذ بسنته، وندعوهم لذلك، لا أن نجتهد في إعلان مخالفة السنة بالرخصة، أما من وقعت منه المخالفة جهلاً أو نسياناً أو لعذر فهذا له في الرخصة مندوحة.

رابعاً:

بنسبه، وشرفه بالدين أفضل، فهذا هو الذي أبقى للأول - شرف النسب - حكمه.

وعوداً إلى المقصود من الوقفة فالتعرف على الزائرين مطلوب وله فوائد، لكن لا ينبغي أن يقال إن هذا مستحب بكل حال، ففي بعض الحالات ينبغي أن لا يطلب فيها ذلك، فإن جاء تبعاً فهو مما يحسن، ومن ذلك حالات ضيافة أو إكرام المنقطعين أو العابرين، فقد لا يناسب أن يتعرف المحسن على أشخاص من أحسن إليهم، إذ فيه تعريف له بمن من عليهم، وأنت تجد هذا المعنى في قول الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [٢٤] إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال

سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَوَاعَ

إِنِّي أَهْلُهُ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾

[الذاريات: ٢٤ - ٢٦]، وفي

الآيات الأخرى: ﴿قَالُوا سَلَاماً

قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعَجَلٍ

خَبِيثٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا

تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ

خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ

قَوْمٍ لُّوطٍ ﴿٧٠﴾ [هود: ٦٩، ٧٠]..

فعلى المزور أن يكون حصيماً

لبقاً يعرف متى يسأل ومتى

يسكت عن السؤال.

يحسن بالمرء أن يتعرف على الضيفان إن كان فيهم من لا يعرفهم حتى ينزلهم منازلهم وأن يرحب بهم، وفي أثر جابر قول الراوي: «دَخَلْنَا عَلَى جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فَسَأَلَ عَنِ الْقَوْمِ حَتَّى انْتَهَى إِلَيَّ فَقُلْتُ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ حُسَيْنٍ فَأَهْوَى بِيَدِهِ إِلَى رَأْسِي فَتَزَعَزَعَ زِرِّي الْأَعْلَى ثُمَّ نَزَعَ زِرِّي الْأَسْفَلَ ثُمَّ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ تَدْيِيٍّ وَأَنَا يَوْمَئِذٍ غُلَامٌ شَابٌّ فَقَالَ مَرَحَبًا بِكَ يَا ابْنَ أَخِي سَلْ عَمَّا شِئْتَ».

وترحيبه بجعفر رحمه الله جاء بوصف بنوته لأخيه، يريد والله أعلم علياً رضي الله عنه، وهذا أقرب من إرادته جده الحسين، وهو محتمل، لكن جابر رضي الله عنه يقارب علياً

رضي الله عنه في السن، أما الحسين فقد ولد في السنة الرابعة من الهجرة، فالفرق في السن بينه وبين جابر رضي الله عنهما كبير. والمقصود أن سبب الإكرام محل أخي جابر رضي الله عنه من جابر، كما هو ظاهر لفظه، وأخوه علي رضي الله عنه شرف بدينه ومحل الرفيع فيه ثم



خامساً:

من الإكرام الذي ينبغي إكرام من كان يمّت بسبب أو نسب إلى من أحسن إليك، أو كان بينك وبينه ود، لا سيما إذا كان على هدي المحسن وطريقته، ولهذا اعتنى جابر رضي الله عنه بجعفر بن محمد، أما من لم يكن سالكاً على طريقة سلفه فليس شأنه كشأن هذا، بل كما قيل:

وكم من فتى كُرُّ اليبدين مذمّم

وكان أبوه عصمة الناس في المحل

وكز اليبدين كناية عن البخل، كجعده اليبدين.

وقال الآخر:

لئن فخرت بأبء ذوي حسب

لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

«وقد أجمع العلماء على أن الرجل إن مات وليس له من القرباء إلا ابن كافر، فإنّ له يكون للمسلمين بأخوة الإسلام، ولا يكون لولده لصلبه الذي هو كافر، والميراث دليل القرابة.. فدل ذلك على أن الأخوة الدينية أقرب من البنوة النَّسَبِيَّة»^(١).

فمن انتسب من المبتدعة إلى أصل شريف لم ينفعه ذلك مع مخالفته ما كان عليه سلفه، من انتصاره للشركيات والبدع والضلالات، وهل شرف الأصل المنتمى إليه إلا بخلال وخصال! فإنّ عدمت فيه لما كان له ذلك الشرف، فكذلك من انتسب، وإذا كان الأصل إنما شرف بالدين فكيف يشرف الفرع إذا ترك الدين؟ والأصل نفسه لو ترك الدين زاو له الشرف!

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه

فلا تدع التقوى اتكالا على الحسب

فقد رفع الإسلام سلمان فارس

ووضع الشرك الشريف أبا لهب

ومن اللطائف أن هذا البيت ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه^(٢).

وهكذا الناس من لدن آدم إخوة كلهم من ماء، ثم شرف بعضهم بما تميّز به من دونهم، وخمل ذكر آخرين، ثم قد ينبل في ذرية هؤلاء ما يشرف به من بعده، وينقطع الشرف عن آخرين.

سادساً:

حجة النبي ﷺ كانت في السنة العاشرة من الهجرة لقوله في حديث جابر: «ثم أذن في الناس في العاشرة أن رسول الله ﷺ حاج»، وفي هذا إشارة إلى مناجاة نبي في ترتيب الأولويات. قد يقول قائل: لماذا لم يحج النبي ﷺ في السنة التاسعة أو في السنة الثامنة أو في السنة السابعة مثلاً؟ أما قبل الثامنة فلأنه لا يمكن أن يحج إلا على شرط المشركين، فقد كانت مكة تحت أيدي المشركين، وقد ردوه عن العمرة إلا بشرطهم، فكيف بالحج؟!.

وأما في السنة الثامنة بعد الفتح فقد كان مشغولاً عليه الصلاة والسلام بالجهاد، فإنه لم يفرغ من ثقيف إلا في آخر ذي القعدة. وأما في السنة التاسعة فقليل إنه لم يحج لأن هذا العام كان عام الوفود.. فإن العرب كانوا ينتظرون فتح مكة، ولما فتحت مكة انتظروا أيضاً أن يدين من بقي من العرب في هوازن وثقيف ونحوهما، فلما أذعن العرب صاروا يأتون أفواجا إلى رسول الله ﷺ في المدينة، فكان في المدينة ليلتي هؤلاء الوفود يعلمهم دينهم عليه الصلاة والسلام.

وسبب آخر أنه في السنة التاسعة حج المشركون مع المسلمين، فأراد النبي ﷺ أن يكون حجه خالصاً للمسلمين، ولهذا أذن في التاسعة ألا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. هذا إذاً على القول بأن الحج فرض في التاسعة، وأما على القول بأنه فرض في العاشرة فلا إشكال.

سابعاً:

قوله: (فَاهَلَّ بِالتَّوْحِيدِ لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ إِنَّ الْحَمْدَ وَالنُّعْمَةَ لَكَ وَالْمَلِكُ لَا شَرِيكَ لَكَ).

فَانظُرْ إِلَى تَجْرِيدِهِ التَّوْحِيدِ مِنْ

أَسْبَابِ كُلِّ الشُّرْكِ بِالرَّحْمَنِ

والناس من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، يهلون به، تتنوع ألفاظهم في توحيد الله وتعظيمه، موكب مهيب وجمع عظيم اجتمع على التوحيد، ولله ما أعظمه من مشهد يبيّن سبيل الوحدة الإسلامية، ويوضح كيف كان على توحيد رب البرية، وإن اختلفت الألفاظ وتباينت العبارات، فذلك تنوع يدور حول مقصود واحد، فلا يضر ما تحقق التوحيد.

وفي مقابل هذا وبينما يهل النبي بالتوحيد ويهل أصحابه به، يهل اليوم من يزعم حبه بنحو إهلال المشركين الأوائل الذين كانوا يقولون: لبيك الله لبيك لبيك لا شريك لك لبيك. وإلى هنا كان إهلالهم بالنسك صحيحاً، غير أنهم لا يقفون فيخلطون كلمة التوحيد بغيرها ويستثنون فيقولون: (إلا)، وقف عند

(١) أضواء البيان ٣/ ٤٧.

(٢) انظر: الفقيه والمتفقه للخطيب ٢/ ٢٤٦.

◀ ثامناً:

مخالفة المشركين من هدي النبوة، وفي حديث جابر أنه ﷺ لما توجه لتقاء عرفة مر بمزدلفة، قال جابر رضي الله عنه: «وَلَا تَشْكُ قُرَيْشٌ إِلَّا أَنَّهُ وَاَقْفٌ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ كَمَا كَانَتْ قُرَيْشٌ تَصْنَعُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَأَجَازَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَتَى عَرَفَةَ»، ثم في خطبته بعرفة قال: «أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ».

وليسست المخالفة مختصة بأهل الشرك، بل بالكفار، سواءً أكانوا مشركين أم يهوداً أم نصارى، وفي صحيح مسلم أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يأكلوها، ولم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي ﷺ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ مِمَّا فَاعْتَرَلُوا النَّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢] إلى آخر الآية، فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح». فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه، فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا: يا رسول الله! إن اليهود تقول كذا وكذا، أفلا نجامعنهم. فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليهما، فخرجا، فاستقبلهما هدية من لبن إلى النبي ﷺ، فأرسل في آثارهما فسقاهما، فعرفنا أنه لم يجد عليهما. الحديث أخرجه مسلم^(١).

فهذا الحديث يدل على كثرة ما شرعه الله لنبيه من مخالفة اليهود، بل على أنه خالفهم في عامة أمورهم حتى قالوا: ما يريد أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه.

ومن ذبول مخالفة المشركين في حديث جابر عدم تمييز قوم عن قوم، فالحمس وغيرهم يُعَرَّفُونَ ويدفعون ويشتركون مع سائر أهل الأصقاع في المناسك والمشاعر، ولم يميز ﷺ بين كبار الصحابة وغيرهم، بينما نجد مظاهر التمييز قد بدأت تعود، بعض الناس لهم قصور! والبعض يفرشون الطرقات وهو يوم واحد فقط، وهذا مخالف لهدي النبي ﷺ.

(١) صحيح مسلم (٣٠٢).

هذا الاستثناء وتأمل لتجد أن القوم كانوا يعبدون الله يحجون ويعجون ويثجون، يطوفون ويسمعون ويقفون ويصلون ويذكرون؛ كل ذلك لله، إلا أنهم يستثنون؛ (إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك)، فهم يستثنون شريكاً يصرفون له شيئاً من العبادة - نذراً، دعاء، ذبحاً، وغيرها -، ويقرون بأنه مملوك لله؛ لا يعتقدون أن للشريك من الملك شيئاً، لكن ليقربهم حبه له ودعاؤهم وذبحهم (وغيرها من أضرب عبادتهم له) إلى الله زلفى، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَلَّوْا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

واليوم يلبي بعض الحجيج ويهلون بالتوحيد ثم يخلطون ما خلطه الأوائل، فبعد أن يقول أحدهم: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إلى أن يبح صوته، تسمعه في عرفات الله يقول بعدها ما حاصله: (إلا شريكاً هو لك)، فتراهم ينشدون الأناشيد التي يستغيثون فيها بعلي والحسن والحسين رضي الله عنهم وبغيرهم، ويكررون لفظ النداء والاستغاثة خلالها، وفي ذلك انكسار لغير الله الواحد القهار! وسلك طريقة هؤلاء قبورية تجد أحدهم في عرفات الله!

ينادي:

فَأَعْتَنَا يَا مَنْ هُوَ الْغَوْثُ

وَالْغَيْثُ إِذَا أَجْهَدَ السُّورَى الْاَلْوَاءُ!

وآخرين يرددون:

يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَا لِي مِنْ أَلْوَذِ بِهِ

سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الْحَادِثِ الْعَمَمِ

فَإِنْ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضُرَّتْهَا

وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمَ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ

وكما تنوعت ألفاظ الصحابة في الإهلال بالتوحيد، تنوعت ألفاظ هؤلاء في الاستثناء: (إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك)! وهذا شأن خطير يجب أن يحذر المسلم منه ويحذر من يجب أشد التحذير، فقد قال الله تعالى لنبينا ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

فَلَيْسَ عِنْدَهُمْ دِينٌ وَلَا نُسُكٌ

فَلَا تَغْرُكَ أَيْدٍ تَحْمِلُ السُّبْحَا

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، عقب بذكر التوحيد لما ذكر وحدة الأمة، ونحوه قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢]، فأسأل الله أن يجمعنا والمسلمين على كلمة التوحيد الخالص، وأن يؤلف بين قلوب الموحديين.

والأمة اليوم تحتاج إلى أن يبعث فيها مبدأ التآخي فيما بينها، والمفاصلة لعدوها، وهذا لا ينافي المعاملة الحسنة مع من يستحقها مع معاداته في دينه.

تاسعاً:

قد يحصل لبس يجعل فاضلاً من الناس ينكر على فاضل أمراً يظنه منكراً بحسب مبلغه من العلم، وقد يتمادى في ذلك حتى يستبين له الحق، والواجب أن لا يحمل مثل هذا الخلاف أكبر من قدره، وليعلم أنه أمر طبعي يقع في كل جيل وكل مجتمع بل كل بيت، وفي أثر جابر رضي الله عنه قوله: «قَدِمَ عَلَيَّ مِنَ الْيَمَنِ بَيْدَنُ النَّبِيِّ ﷺ فَوَجَدَ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مَمَّنْ حَلَّ وَلَبَسَتْ ثِيَاباً صَبِيغاً وَكَتَحَلَّتْ فَأَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهَا فَقَالَتْ إِنَّ أَبِي أَمَرَنِي بِهَذَا قَالَ فَكَانَ عَلَيَّ يَقُولُ بِالْعِرَاقِ فَذَهَبْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُحَرِّشاً عَلَى فَاطِمَةَ الَّذِي صَنَعْتُ مُسْتَفْتِياً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيمَا ذَكَرْتُ عَنْهُ فَأَخْبَرْتُهُ أَنِّي أَنْكَرْتُ ذَلِكَ عَلَيْهَا فَقَالَ صَدَقْتَ صَدَقْتُ»، وذلك أن علياً تقرر عنده أن المحرم واجب عليه أن يجتنب المحظورات، ولم يكونوا يعرفون العمرة في أشهر الحج، بل يرونها من أبطل الباطل أو أفجر الفجور قبل الإسلام، فلما جاء علي ووجد فاطمة رضي الله عنهما قد وقعت فيما خاله محظورات إجماع، أنكر عليها، فلما أخبرته بعدها لم يقبله حتى استفتى رسول الله ﷺ، وليس ذلك اتهاماً لها فيما قالت، لكن ليتحقق من دقة الفهم، وربما ليتأكد أنه ليس ثمة تورية ترضيه بها، وربما ليحصل العلم بالسند العالي.

والمقصود أن نحو هذا الخلاف ينبغي أن يأخذ حيزه، فلا يقال: كيف ينكر حقاً، ويكثر من التثريب والتأنيب على هذا، وذلك أنه قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، فمن كان مجتهداً في إنكاره مستفرغاً لوسعه عاملاً لما فهمه أو بلغه من الشريعة إنما يريد الإحسان؛ فإن رأيته قد أخطأ فأرشده بالتي هي أحسن.

عاشراً:

في هذه الحجة فوائد كثيرة تتعلق بمنهاج النبوة في الدعوة إلى الله تعالى، منها ما يتعلق بموضوعها، ومنها ما يلمح إلى طرائق وأساليب وقواعد إدارية في العمل

الدعوي. أما الموضوعات فبإدب في جميع خطبه التي ألقاها في هذه الحجة، ومن أبرزها خطبة حجة الوداع، وقد تناولها العلماء قديماً وحديثاً بالشرح والتبيين، ولو لم يرد فيها إلا قوله ﷺ: (وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله)؛ لكفى به نبزاً. وأما الطرائق والأساليب والقواعد فكاستثماره ﷺ لذلك الجمع، فخطب يوم عرفة، ويوم النحر، وذكر بالأصول والقواعد والفروع التي يحتاج إليها الناس، وفي هذا إشارة إلى أنه على طلاب العلم أن يستثمروا موسم الحج للتذكير بالأصول وما يحتاج إليه الناس من فروع.

ومن ذلك عندما قال ﷺ: (ودماء الجاهلية موضوعة)، بادر فقال: (وإن أول دم أضع من دمائنا)، ولما قال: (وربا الجاهلية موضوع)، قال مباشرة: (وأول ربا أضع ربانا)، وهكذا يكون القائد! في مقدمة الركب عندما يأمرهم أو ينهاهم، يبدأ بنفسه وأهل بيته، فيكون لكلامه الأثر العملي والنفسي، ومن ثم يتسابق الناس للاقتداء به عن قناعة ورضا، وبهذا تستقيم الأمور وتنظم. أما إذا رأى الناس قائدهم يخالف فعله قوله، فعندها يتفنن الناس في الاحتيال على مخالفة الأوامر والنواهي، وتحل الفوضى والاضطراب، ويقع الظلم، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ ثَلَاثُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٦٠﴾ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣].

لا تنه عن خلق وتأتي مثله
عار عليك إذا فعلت عظيم

ابداً بنفسك فانها عن غيها
فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك ينفع إن وعظت ويُقتدى
بالقول منك وينفع التعليم

وختاماً، طال المقال والفوائد كثيرة، ومن ذلك ما جاء في خبر سراقاة، وإرداف النبي ﷺ لأسامة، وبعده الفضل رضي الله عنهما، ثم قصة الفضل مع الظعن، وحديث النبي ﷺ مع بني عبد المطلب في شأن زمزم، إلى غير ذلك من مواقف تلك الحملة النبوية المباركة التي تستحق أن نقف معها، بيد أن المقام لا يسعنا.

أفضل تطبيق "مفكرة" إسلامي على "آب ستور"
باللغتين العربية والإنجليزية

مجلة البيان



12:34 AM 1433 18 رجب 8
مفكرة البيان الرقمية

12 AM
1 AM
2 AM
3 AM
4 AM
5 AM
6 AM

إصدارات البيان الجديدة

الظهر الشرقي الظهر العصر المغرب العشاء
08:07 06:41 03:14 11:52 05:04 03:27

واجهه خدمية مميزة

12:35 AM 1433 18 رجب 8
مفكرة البيان الرقمية

08-06-2012

11 يونيو 2012

27	28	29	30	31	1	2
3	4	5	6	7	8	9
10	11	12	13	14	15	16
17	18	19	20	21	22	23
24	25	26	27	28	29	30

تقويم: هجري/ميلادي

تقويم: هجري/ميلادي

12:35 AM 1433 18 رجب 8
مفكرة البيان الرقمية

الجمعة 18 رجب 1433 - 08 يونيو 2012

الظهر الشرقي الظهر العصر المغرب العشاء
08:07 06:41 03:14 11:52 05:04 03:27

السبت 19 رجب 1433 - 09 يونيو 2012

الظهر الشرقي الظهر العصر المغرب العشاء
08:07 06:42 03:14 11:53 05:04 03:27

الأحد 20 رجب 1433 - 10 يونيو 2012

الظهر الشرقي الظهر العصر المغرب العشاء
08:08 06:42 03:14 11:53 05:04 03:27

الاثنين 21 رجب 1433 - 11 يونيو 2012

الظهر الشرقي الظهر العصر المغرب العشاء
08:08 06:42 03:14 11:53 05:04 03:27

أوقات الصلاة

أوقات الصلاة

12:35 AM 1433 18 رجب 8
مفكرة البيان الرقمية

اتجاه القبلة

اتجاه القبلة

12:35 AM 1433 18 رجب 8
مفكرة البيان الرقمية

- الإعدادات
- التنبيهات
- هواتف العلماء
- أذكار الصباح والمساء
- الإسكافية
- رسائل مجلة البيان
- مجلة البيان

والعديد من الخدمات المميزة

والعديد من الخدمات المميزة

Al-Bayan Digital Calendar



www.albayan.co.uk



أين مواقع المصلح

■ أ. د. سليمان بن حمد العودة*

suliman-alodah@hotmail.com

@suliman1432



وهنا إحالاتٌ واتهاماتٌ للآخرين، والمتهمون غير سالمين.. نعم إننا نركي أنفسنا أحياناً من حيث نشعر أو لا نشعر، ونظنُّ أن المصائبَ بغيرنا، والمعاصي ليست من نصيبنا، وفينا خللٌ ولدينا تقصير.. قد ندرك بعضه، وقد يغيبُ عنا الكثيرُ من عيوبِ أنفسنا، وحين تحلُّ المصائبُ تدعونا بالقوة إلى أن نفتشَ في أحوالنا، ونتهمَ أنفسنا اتهاماً لا يحبطُ ولا يقعدُ بها عن العمل، لكنه يصحح ويرشد المسيرة، وفي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه: «إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالاً، هِيَ أَدْقُ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ، إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْمُوبِقَاتِ»^(١).

ولابن القيم - رحمه الله - كلامٌ جميلٌ في المعاصي وأثرها.. انظره في الداء والدواء.

وثمة منكراتٌ قد لا يقيم لها بعضُ الأخيارِ وزناً.. وهي من المصائبِ والبلايا، ذلك حين لا يتمعرُ الوجهُ، ويضعفُ الإنكارُ.. وعنها قال ابن القيم: (وأي دين وأي خير فيمن يرى محارمَ الله تنتهك، وحدوده تضيع، ودينه يترك، وسنة رسوله ﷺ يُرغِبُ عنها، وهو باردُ القلب، ساكتُ اللسان، شيطانٌ أخرس) ... إلخ كلام جميل في^(٢).

ويقول الشيخ حمد بن عتيق - رحمه الله -: (لو قُدِّرَ أن رجلاً يصوم النهار، ويقوم الليل، ويزهد في الدنيا كلها، وهو مع ذلك لا يفضب، ولا يتمعر وجهه... فلا يأمر بالمعروف، ولا ينهى عن المنكر، فهذا الرجل من أبغض الناس عند الله، وأقلهم ديناً.. ثم نقل الشيخ عمن حدثه عن الشيخ محمد بن

(٢) أخرجه البخاري: ح ٦٤٩٢.

(٣) أعلام الموقعين: ١٧٦/٢.

لا بد قبل الحديث عن مواقع المصلحين حين الشدائد والمحن من تأكيد:

أ - سنة الله في الابتلاء، وهي سنة ماضية

في الأولين والآخرين، ﴿الْمَ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ^(١) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿ [العنكبوت: ١ - ٣].

وكلما عظم الإيمان عظمت الفتنة: (أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ، ثم الصالحون، ثم الأمتلُ فالأمتلُ، يبتلى الرجل على حسب إيمانه، فإن كان في دينه صلابَةٌ زيد له في البلاء)^(٢).

ب - بين المصائب والمعاصي:

ومع هذه السنة الربانية هناك سنة وقدّر آخر حكم الله به وهو خير الحاكمين، ذلك هو الصلة بين المصائب والمحن والمعاصي والذنوب وعقوباتها وآثارها، والتقصير في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، ولو كان ذلك في خير القرون الذين قيل هم في (مصائب أحد): ﴿أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أِنَّا هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٦١]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٦٣].

(*) أستاذ التاريخ الإسلامي والمشرف على كرسي الرسول ﷺ والسيرورة النبوية.

(١) أخرجه أحمد والبخاري وغيرهما، صحيح الجامع: ٢٢٢/١.



بين حين الشدائد والفتن

تحرير مصطلح (الفتنة) في المواقف العملية:

إذ إن تحريرَ المصطلحِ علمياً (نظرياً) تمتلئ به الكتب، لكن المهم هنا: تحريره في المواقف العملية حين الشدائد، فمن الناس من يتخذ من (الفتنة) وسيلةً للغياب عن المشهد حين تقع النوازل، ويُعفي نفسه من جهادِ الكلمة، وقولِ الحق، ودفعِ الباطل، فإذا ما بان للمسلم وجه الحق فلا يجوز له أن يتخلف عن البيان وفي وقت حاجته، وبما يقتضيه البيان (من حكمة، ومراعاة للمصالح والمفاسد...)، والمهم ألا يقعد حيث يجب القيام بأمر الله وعبوديته من الأمر والنهي.

الصبر حين البلاء:

فلا يمكن أن يَسَلَّمَ أهلُ الإيمان من بلاءٍ على قدر جهادهم، وهو طريق الرسل وأتباعهم، وهنا لا يسوغ الجزع ولا الخور، ولا التسخط والقلق، بل لا بد من احتساب الأجر، وصلاح النوايا، والبشورى بقدر الله الشرعي، دون تمنُّ للقاء العدو، أو تحميل للنفس من البلاء ما لا تُطيق، وفي الحديث الصحيح: (لا ينبغي للمؤمن أن يُذل نفسه، يتعرض للبلاء ما لا يُطيق)^(١). والناس يختلفون بين (العزيمة) و(الرخصة)، والمهم القدر الأعلى من الصبر، والحد الأدنى من المجاهدة.

(الذكر الحسن):

ومع ما في الصبر من عظيم الأجر لمن احتسب حتى (ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه، وولده، حتى يلقي الله

عبد الوهاب - رحمه الله - أنه قال: أرى ناساً يجلسون في المسجد على مصاحفهم، يقرؤون ويبيكون، فإذا رأوا المعروف لم يأمرؤا به، وإذا رأوا المنكر لم ينهوا عنه، وأرى أناساً يعكفون عندهم، يقولون: هؤلاء (لحى غانمة)، وأنا أقول: إنهم (لحى فوائن)، فقال السامع: أنا لا أقدر أقول إنهم لحى فوائن، فقال الشيخ: أنا أقول: إنهم من العمي البكم)^(٢).

فلا بد من مراجعة النفس، والتفتيش عن الأخطاء، والنظر في المناهج، وأسباب النكبات والمعاصي فينا وفي غيرنا. ونعود للسؤال: أين مواقع الصالحين حين تقع الشدائد والفتن؟

والمقصود بالسؤال: استفسارٌ عن موقعهم في الأحداث، وجهودهم في دفع البلاء، وإسهاماتهم الإيجابية حين تقع الفتن، وهنا عدة وقفات (واجبات، مشاريع، مبادرات، مدافعات... إلخ). وقد قيل: (وما المرء إلا حيث يضع نفسه)، وأبلغ من ذلك وأصدق: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧]. وهنا أسجل (من هذه الواجبات والمبادرات) ما حضر في الذهن، لأفتح الباب للإضافة والتسديد.



(٢) صحيح الجامع: ٦/٢٥٣.

وما عليه خطيئة^(١)؛ إلا أن ذلك قد يكون غير منظور للناس، بل لصاحب البلاء نفسه، لكن هناك ما يُسلي ويسري عاجلاً، ألا وهو (الذكر الحسن) لأهل البلاء والإيمان، قال ابن القيم: (مَنْ أَعْظَمَ نِعْمَ اللَّهِ عَلَى الْعَبْدِ: أَنْ يَرْفَعَ لَهُ بَيْنَ الْعَالَمِينَ ذِكْرَهُ، وَيُعَلِّي قَدْرَهُ، وَإِهْدَا حَصَّ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ مِنْ ذَلِكَ بِمَا لَيْسَ لغيرِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَنْصَارِ﴾ [ص: ٤٥، ٤٦].

وقال إبراهيم: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [سورة الشعراء: ٨٤]، وعن محمد ﷺ قال الله ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [سورة الشرح: ٤]، ثم قال: فَاتَّبَاعُ الرَّسُولِ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ ذَلِكَ بِحَسَبِ مِيرَاتِهِمْ مِنْ طَاعَتِهِمْ وَمُتَابَعَتِهِمْ، وَكُلُّ مَنْ خَالَفَهُمْ فَإِنَّهُ بَعِيدٌ مِنْ ذَلِكَ بِحَسَبِ مَخَالَفَتِهِمْ وَمَعْصِيَتِهِمْ^(٢).

والواقع في القديم والحديث يشهد على ذلك، فكم من صادق شهر اسمه بسبب عداوة ومعاقبة الظالمين له، فوقع عليه من الظلم ما ذكر به من لم يعرفه، وأحبه من لم يسمع منه..

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت

أتاح لها لسان حَسودٍ

محكمات الدين أصول ومنطلقات في البلاغ والدعوة:

محكمات الدين لا يسع المسلم إلا التسليم لها، والعمل بها، وعلى المصلحين أن يُعنوا بها ويرسخوها لعامة الأمة وخاصتها، ويجعلوا منها ميداناً رحباً للحديث والتأليف، والشرح والبيان؛ إذ هي أقصر الطرق وأنفعها للبلاغ والإقناع، وهي أعظم حجة لقطع الطريق على أهل الريب؛ فتوحيد الله بالعبادة، والتسليم لشرعه، وتحريم الشرك، ومحبة الرسول ﷺ وطاعته فيما أحب المرء أو كره، وتثبيت أركان الإسلام والإيمان والإحسان، وحفظ الضرورات الخمس (الدين، النفس، المال، العرض، العقل)، والولاء للمؤمنين والبراءة من المشركين، والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وإحقاق الحق، وذهوق الباطل، وتحريم الظلم والإثم والزنا والخمر والربا وسائر الفواحش، والأمر بالأخلاق الفاضلة من العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى.. ونحو ذلك من محكمات في الدين لا تقبل المساومة والجدل، وتمثل (أم الكتاب) كما قال تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٧]، والأم هو الأكثر والأصل كما قال العالمون^(٣).

هذه المحكمات تتأكد الحاجة لبيانها وتعميمها كلما كانت الظروف داعية لها في أزمان الشدائد والفتن، وكلما حاول المبطلون اختراقها بأساليب ملتوية، وطروحات غريبة، ويحتاج كذلك للحديث عن هذه المحكمات في سبيل وحدة الأمة، إذ «الواجب تقديم الإسلام في التطبيق والدعوة من خلال المحكمات والأساسيات لا من خلال الاجتهادات والخلافات السائفة أو غير السائفة»^(٤).

وليس يخفى أن عالم اليوم يموج بعقائد باطلة، ومذاهب فكرية منحرفة، وفرق ضالة، وانفتاح إعلامي مهول.. ومن هنا فعلى المسلمين كافة، وعلى المصلحين خاصة، أن يُعنوا بهذه المحكمات والمنطلقات الإسلامية، دليلهم قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِلُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَزَجًا مِمَّا قُضِيَتْ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وقوله ﷺ: (ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه)^(٥)، وميزانهم قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

ومن رام المزيد عن هذه المحكمات وأهميتها وتطبيقاتها، فليراجع ما كتبه (د. عابد السفياني: المحكمات حوار وتطبيقات).

العزلة المشروعة والمذمومة:

لا شك هناك عزلة مشروعة أخبر عنها النبي ﷺ، لكن لمن؟ ومتى تكون؟ وكيف؟ هذا هو المهم، إذ قد يتصور طالب علم، أو قادر على المساهمة في دفع الشر وإقرار الحق.. أنه معذور باعتزال الفتنة، والغياب عن الأحداث.. وتلك قضية بين العبد وربيه، فإذا ما اشتبهت على الإنسان الأمور إلى درجة لا يعرف فيها أين يكون الحق؟ وأين يوجد الباطل؟ وأشهد الله على ذلك، بعد تحري الأسباب الممكنة.. فهنا قد يسوغ للإنسان أن يعتزل، كما فعل بعض الصحابة حين الفتنة الواقعة بين المسلمين.. لكن الأصل الاختلاط بالناس، والمساهمة بالدعوة والإصلاح، ودفع المنكرات: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصِدْقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١]، و«المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»^(٦).

وهنا نموذج وتصحيح للعزلة، ففي^(٧): عَنِ الشَّعْبِيِّ، قَالَ: خَرَجَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ إِلَى الْجَبَانَةِ (الصحراء) يَتَعَبَّدُونَ،

(٤) عابد السفياني: المحكمات ص ١٢.

(٥) أخرجه أحمد وغيره.

(٦) صحيح الجامع: ٦٦٥١.

(٧) شرح السنة للبيهقي ٥٤/١٠.

(١) صحيح الجامع: ١٩٢/٥.

(٢) الداء والدواء ١١٤.

(٣) انظر: أصول الجصاص: ٣٧٣/١، أصول السرخسي: ١٦٥/١، عن عابد السفياني

في المحكمات: ص ١٦.

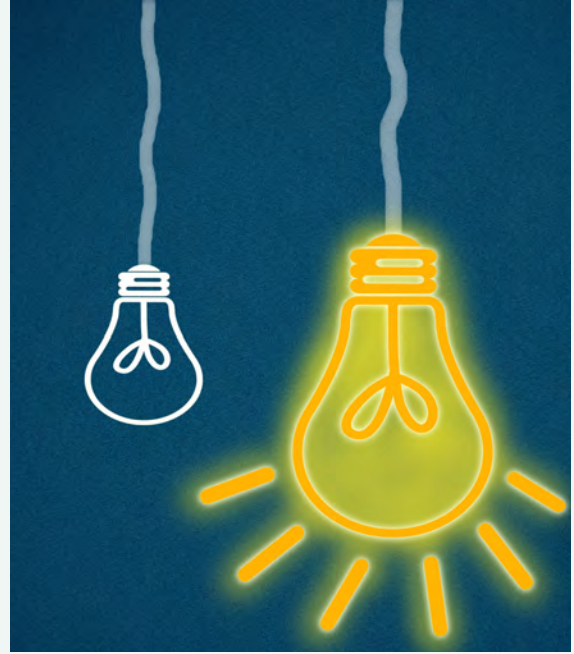
ونقيضه.. وهكذا.. ومن هنا تتحتم مسؤولية كشف الباطل والمبطلين (بسيماهم) وهو الأصل، أو بأسمائهم وأفعالهم إذا لزم الأمر، وقد جاء الإنكار في القرآن الكريم صريحاً: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]. وأهل العلم والدعوة، والفكر النزيه، والشرفاء، وأهل المروءة والكرم... هم المؤهلون لهذه المهمة الشريفة.

معركة الفكر والقيم في عمقها وأهدافها:

مما ينبغي أن يُتفطن له على الدوام وفي أزمنة الشدائد على الخصوص، أن رعى الممارك الدائرة في الفكر والقيم، وبين الأختيار وخصوصهم، أعمق مما يتصوره البسطاء، ولا بد من كشف ما يريد أن يسطحه أهل الريب، ذلك أنهم وحتى لا يُتفطن لمكرهم يُسطنون طروحاتهم، ويلبسونها لبوس (التجديد) و(التطوير) و(الانفتاح)، أو غير ذلك من مصطلحات خادعة، لتُمرر هذه الطروحات وتُقبل، ولا يجترئ معترضٌ عليها حتى لا يُرمى بالتخلف والرجعية أو نحوها من ألقاب (تحييد) و(محاصرة) للرافضين للفساد.. فليُنْتبه لهذا جيداً.

وثمة أمرٌ آخر ينبغي التفطن له، وهو أهم، وذلك بتصوير الفكرة أو المشروع المراد بأبسط مظاهره، وعدم الإفصاح عن أهدافه العميقة، وذلك لسهولة تقبله حين يفصل عن توابعه وآثاره.. ولعله بالمثل يتضح المقال، وقضية المرأة نموذج صارخ، وخذ على سبيل المثال (قيادتها للسيارة)، فالأمر لا ينتهي عند القيادة، بل يراد الوصول إلى (الحجاب)، ويراد (تحرير المرأة من قوامة الرجل)، ويراد (نشر الفساد، وابتزاز المرأة)، ويراد (سفرها بلا محرم) و(تصوير المرأة) و(ضرورة إيجاد (شرطة نسائية).. وهكذا قل ما شئت من أمور ستتيح (قيادتها للسيارة)؛ ولذا فمن البساطة والتغفيل مناقشة الأمر مناقشةً فقهيةً تنتهي عند حدود (ألم تترك المرأة البعير؟)، أو (طرح الخلاف الفقهي في تغطية وجه المرأة)، أو حكاية (المرأة والسائق الأجنبي).. أو نحو ذلك.. مما لا يقيم أهل الريب له بالاً، بل يهدفون إلى ما أبعد من ذلك.. هذا نموذجٌ وقس عليه غيره مما يطرح أحياناً، ويلبس في طرحه، أو يهون من شأنه.. وعلى أهل العلم والفكر والرأي أن يُجلو الصورة، ويكشفوا مخطط الفساد.. وحتى يتأكد الأمر وفي قضية المرأة طرحت تباعاً (الاختلاط في المراحل الأولى)، و(المرأة والرياضة)، و(المرأة والأندية النسائية)، وأخيراً (حضور المرأة للمدرجات الرياضية)، ودمج

وَاتَّخَذُوا مَسْجِدًا وَبَنَوْا بُيُوتًا، فَآتَاهُمُ عَبْدُ اللَّهِ بِنُ مَسْعُودٍ، فَقَالُوا: مَرْحَبًا بِكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ لَقَدْ سَرَرْنَا أَنْ تَزُورَنَا، قَالَ: مَا أَتَيْتُكُمْ زَائِرًا، وَلَسْتُ بِالَّذِي أَتْرُكُ حَتَّى يَهْدِمَ مَسْجِدَ الْجَبَانِ، إِنَّكُمْ لَأَهْدَى مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ! أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ النَّاسَ صَنَعُوا كَمَا صَنَعْتُمْ مَنْ كَانَ يُجَاهِدُ الْعَدُوَّ، وَمَنْ كَانَ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَمَنْ كَانَ يُقِيمُ الْحُدُودَ! أَرْجِعُوا فَتَعَلَّمُوا مِمَّنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكُمْ، وَعَلَّمُوا مَنَ أَنْتُمْ أَعْلَمُ مِنْهُمْ. قَالَ: وَاسْتَرْجَعَ فَمَا بَرِحَ حَتَّى قَلَعَ أَبْيُنَهُمْ وَرَدَّهُمْ.



تعميق الوعي بالحق:

فتلك مهمة كبرى لأهل الإيمان، سلكها المرسلون وأتباعهم، وأعلنوها لقومهم عبر (مصطلحات، وقيم، ونداءات، وتحذيرات متكررة) تملأ آيات القرآن الكريم من مثل قوله تعالى (على ألسنة هؤلاء المرسلين والمؤمنين): ﴿قَالَ أَعْيَزَ اللَّهُ أَنْبِيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٤٠]، ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٨]، وحين يختلط على الناس الحق أو شيء منه، فلا بد للعالمين من البيان والبلاغ، ولا يجوز كتمانهُ: ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١]. إنه ميثاقٌ عظيمٌ أخذه الله على أهل الكتاب: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

ومع بيان الحق لا بد من كشف الباطل، ورفع التلبس والتدليس، وكشف الكذب، وفضح الخونة، واستبانة سبيل المجرمين، وأشد ما يكون التدليس حين تقع الشدائد والمحن، وتحل الفتن، فيُصور الباطل حقاً وعكسه، والمعروف منكراً

حتى لا يُخترق العلماء والأمرء:

هؤلاء هم أولو الأمر، وهم يُعلمون الناس ويقودونهم، يُسألون فيفتون، ويأمرون فيُطاعون. يصلحهم يصلح الناس، وباجتماعهم على الحق يسعد المجتمع، ويتعاونهم على البر والتقوى تأمن البلاد والعباد، ومن حظهم وحظ المجتمع أن يوقفوا لبطانة صالحة تدلهم على الخير وتعينهم عليه، وقاتل الله (بطانة السوء): فكم أفسدوا ما بين الحاكم والمحكوم، بل وبين العالم والأمير، ومن قرأ التاريخ بعمق وجد علاقةً بين صلاح الراعي وصلاح من حوله، ووجد أثر ذلك في العدل والاستقرار والرخاء، كما يشهد التاريخ على أثر بطانة السوء على أولي الأمر في حصول الفتن، وانقسام الناس، ونزع الثقة، وتآرجح الطاعة المشروعة، والمصلحون أقدر الناس على قراءة التاريخ، وبيان آثار القطيعة بين العلماء والأمرء، وأحرى الناس بنصح الأمرء، وتحذيرهم من بطانة السوء، وشؤم المنتفعين لأنفسهم على حساب مصالح المجتمع والدولة... ودعونا نضرب لنوعي البطانة نموذجاً من التاريخ، ونقرأ آثارهما:

أما نموذج البطانة الصالحة ففسي الدولة (الأموية) ومع الخليفة (سليمان بن عبد الملك) - رحمه الله - حيث كان (رجاء بن حيوة) - رحمه الله - كبير المنزلة عند سليمان بن عبد الملك، وهو ثقة عالم فاضل، وقد أجرى الله على يديه الخيرات (كما نقل الذهبي في السير: ٥٥٨/٤ - ٥٦٠)، وليس يخفى أن (رجاء) هو الذي أشار على (سليمان) أن يكون الخليفة من بعده (عمر بن عبد العزيز) - رحمه الله - في قصة تمتلئ بها كتب التاريخ، ومعلوم ما حصل للمجتمع والدولة والأمة باستخلاف عمر بن عبد العزيز الذي اشتهر عهده بالعدل والرخاء.

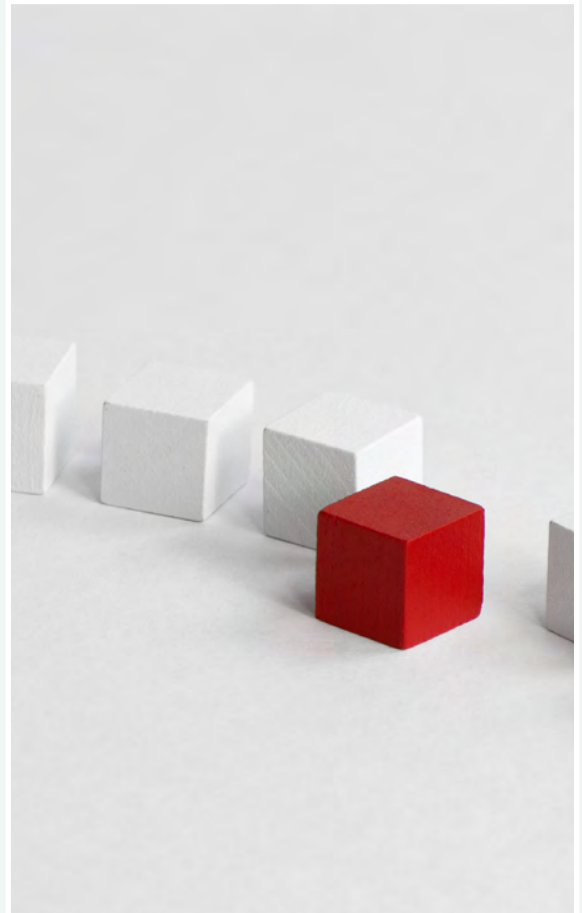
أما النموذج الآخر: فكان في الدولة (العباسية)، وفي زمن المأمون والمعتصم والواثق، حين وقعت (فتنة القول بخلق القرآن)، وامتنح الناس، وأوذى العلماء، وحصل تفرق وشروء وبلاء وفتنة، وكان قطبا رحي هذه الفتنة من بطانة السوء:

أ. (بشر بن غياث المريسي)، قال عنه ابن كثير: شيخ المعتزلة، وأحد من أضل المأمون [البداية والنهاية: ١٠/١١٨]، وقال كذلك: كان المأمون على مذهب الاعتزال لأنه اجتمع بجماعة منهم (بشر المريسي)، فخدعوه وأخذ عنهم المذهب الباطل، ودعا إليه، وحمل الناس عليه قهراً، وذلك في آخر أيامه.. [البداية والنهاية: ١٠/٣١٢].

المرأة مع الرجل، و(عمل المرأة في المستلزمات النسائية)... إلخ القائمة التي تؤكد أن القضية (مشروع متكامل لتغريب المرأة) من التفعيل أن يفصل بعضه عن بعض.. ولعل الأنظمة الصارمة والمدونة في سياسات بلادنا عطلت تنفيذ هذه المشاريع برهنة من الزمن، ولعل الأغلبية الساحقة وفي بلادنا كذلك والرافضة لهذه الطروحات الغربية، تعطلها مستقبلاً، لا سيما إن انضم إلى ذلك وعود من المسؤولين في بلادنا بعدم الاستجابة لهذه المطالب المخالفة لقيمنا وأنظمتنا.

تمايز الصفوف:

ففي أزمان الأزمات والفتن، تتجلى المواقف، ويتميز الناس، وإذا قيل لخير القرون على أثر مصاب أحد: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]، فغيرهم بالتمييز من باب أولى، وهنا يتسنى لأهل العلم والدعوة أن يتعاملوا مع الناس حسب مواقفهم، وأن يرصدوا ويكتشفوا المواقف وأصحابها على حقيقتهم.



ب. (أحمد بن أبي دؤاد)، وعنه قال الخطيب: كان موصوفاً بالجوهر والسخاء.. غير أنه أعلن بمذهب الجهمية، وحمل السلطان على الامتحان بخلق القرآن، ثم نقل أنه ولي قضاء القضاة للمعتصم ثم الواثق، وكان (ابن أبي دؤاد) هو الذي يمتحن العلماء، ويدعو إلى القول بخلق القرآن.. [تاريخ بغداد: ١٤٢/٤].

وقال الذهبي عنه: ابن أبي دؤاد: جهمي بغيبض [الميزان: ٩٧/١]، وقال في السير: كان ابن أبي دؤاد يوم المحنة ألياً على الإمام (أحمد) يقول: يا أمير المؤمنين، اقتله، هو ضال مضل [١٧٠/١١]، ومعلوم ما جرى بسبب هذه المحنة من الشرور، حتى قال ابن كثير: وهذه المحنة التي هي أسُّ ما بعدها من المحن، والفتنة التي فتحت على الناس باب الفتنة^(١)، وفي النهاية، وبعد السجن والأذى، ينصر الله الحق ب (المتوكل)، ويعلو ذكر الإمام أحمد، ويطلبه (المتوكل) مستشاراً فيعتذر.

أما ابن أبي دؤاد فيبتلى بمرض (الفالج)، فيبقى طريح فراشه، لا يستطيع أن يحرك شيئاً من جسده، وحرم لذة الطعام والشراب والنكاح^(٢).

أما الخلفاء (المأمون والمعتصم والواثق) فيصف حالهم (المتوكل) حيث يقول حين كتب رجل رقعةً إلى المتوكل يقول: يا أمير المؤمنين، إن أحمد يشتم آباءك، ويرميهم بالزندقة. فكتب فيها المتوكل: أما المأمون فإنه خلط فسلط الناس على نفسه، وأما أبي المعتصم فإنه كان رجل حرب ولم يكن له بصر بالكلام، وأما أخي الواثق فإنه استحق ما قيل فيه.. ثم أمر أن يضرب الرجل الذي رفع إليه الرقعة مائتي سوط، فأخذ عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم فضربه خمسمائة سوط، فقال له الخليفة: لم ضربته خمسمائة سوط؟ قال: مائتين لطاعتك، ومائتين لطاعة الله، ومائة لكونه كذف الرجل الصالح أحمد بن حنبل^(٣).

وإذا كان ما سبق نموذجاً للتأثير على الخلفاء، فالعلماء كذلك يتأثرون أو يؤثرون عليهم، وفي فتنة القول بخلق القرآن السابقة، وقع تأثير (أو اختراق) للعلماء حتى أجاب لهذه الفتنة طائفةٌ عد منهم ابن كثير ما يزيد على ثلاثين عالماً، ومنهم جهاذة في العلم، أمثال: يحيى بن معين، ومحمد بن سعد (صاحب الطبقات)، وأبي خيثمة (زهير بن حرب)، وبشر بن

الوليد الكندي، وأبي نصر التمار... وغيرهم^(٤).

بل ذكر ابن كثير أن المأمون دعا إلى هذه الفتنة خلقاً من مشايخ الحديث، والفقهاء، وأئمة المساجد، وغيرهم، فأجابوا؛ لأنه (وكما ذكر ابن كثير) كان يعزل من لا يجيب عن وظيفته، وإن كان له رزق على بيت المال قطع، وإن كان مفتياً منع من الإفتاء، وإن كان شيخ حديث رُدَّ عن الإسماع والأداء، ووقعت فتنة صماء، ومحنة شنعاء، وداهية دهياء، فلا حول ولا قوة إلا بالله^(٥).

وهنا ينبغي أن يفرق بين من أجاب مكرهاً، ولعل أكثر هؤلاء العلماء كذلك، ومن أجاب دون إكراه، ولهذا دافع الذهبي عن أكره منهم، وعلق على كون الإمام أحمد لا يرى الكتابة عن أبي نصر التمار ويحيى بن معين بقوله: «قلت: هذا أمر ضيق، ولا حرج على من أجاب في المحنة، بل ولا على من أكره على صريح الكفر عملاً بالآية، وهذا هو الحق، وكان يحيى رحمه الله من أئمة السنة، فخاف من سطوة الدولة، وأجاب تقياً»^(٦).

مدُّ الجسور وتجسير العلاقات مع شرفاء الناس وعامتهم والحذر من أهل الربيب والتلون:

وهذا متمم لما قبله، إذ لا يكفي (معرفة الخبيث من الطيب)، بل يمكن الاتصال والتسويق والتعاون مع أصحاب المواقف المشرفة دعماً لهم، واستفادة مما لديهم، وتعاوناً معهم على البر والتقوى، وتوسيعاً لدائرة أصحاب الحق، مع رصد خطوات الباطل وكشف المبطلين، وهل يخفى أن العامي من الناس قد يكون له دورٌ في تثبيت العالم الجبل، وقصة الإمام (أحمد بن حنبل) مع أعرابي (الرحبة) (جابر بن عامر) الذي قال لأحمد.. أنت إمامُ الناس فاثبت... إلخ القصة المشهورة.

بين المسكنات والاستراتيجيات.. لا بد من (المبادرة) حين الفتن لتسكنها، والتقليل من مساحة شرورها وتأثيرها، وذلك بالبيان العاجل، وحضُّ الناس على الثبات، والتثبيت، وعدم الاستعجال بالأقوال أو الأفعال إلا بدليل وتثبت: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]، وإيضاح الحق ولزومه، وكشف الباطل ورموزه.. وهكذا من خطوات عاجلة ومسكنة.. وثمة ما هو أبقى وأهم، ألا وهو التفكير بمبادرات طويلة الأجل، ومشاريع (عُمريّة)، سواء كانت فردية أو جماعية، لا تتأثر

(٤) البداية والنهاية: ٣٠٨/١٠ - ٣٠٩.

(٥) البداية والنهاية: ٣٠٩/١٠ - ٣١٠.

(٦) الذهبي، سير أعلام النبلاء: ٨٧/١١.

(١) البداية والنهاية: ٣٦٥/١٠.

(٢) البداية والنهاية: ٤٦٤/١٠.

(٣) البداية والنهاية: ٣٨٥/١٠.



بالأزمات، بل تسهم في علاجها بشكل مُعمَّق، وهنا لا تُستفد الجهود كلها في أطرِ (الدفاع)، بل يكون لجهود (البناء)، والمشاريع الاستراتيجية نصيبٌ كبيرٌ في الإصلاح والدعوة، ونشر الحق ومدافعة الباطل.

وبين المشاغلة والدعوة:

إذ لا بد من (مشاغلة أهل الباطل) والاستمرار في الإنكار عليهم مشاريعهم الإفسادية والتفريية، وفتح الملفات كلما ظنوا أنها أغلقت واستقرت، وبأرقى الوسائل، وأنجع الطرق، فتلك مدافعةٌ مشرعةٌ ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، ومع المشاغلة لا بد من استمرار سوق الدعوة، وعدم التوقف عن مشاريع الخير، وطرح المبادرات إثر المبادرات، فتلك تعطي فرصاً لانتشار الخير، وتمنح فرصاً للراغبين في عمل الخير، وتؤسس لأعمال ومشاريع مستقبلية يصعب تجاهلها أو إلغاؤها، وهي في النهاية من أمضى وسائل محاربة الباطل وتحجيم المبطلين.

الرقبي بمستوى الخطاب الدعوي:

لا شك أن خطاب القرآن منطلق مهم في الدعوة والإصلاح، فالتأمل في آياته بعمق، ورصد تجارب المرسلين، وطرائق دعوتهم بوعي؛ يسهم في رفع الخطاب الدعوي، وثمة منعطف مهم في الرقي بمستوى الخطاب الدعوي ربما كان غائباً أو ضعيفاً فيما مضى، وقد آن الأوان لتفعيله حاضراً ومستقبلاً، ألا وهو (ثقافة الحقوق) في الخطاب الدعوي، فنحن في زمن (المرافعات) و(المحاميين) و(دعاوى الاعتراض)، و(المطالبة بالحقوق)، و(المنظمات والهيئات)... إلى غير ذلك، ومهما كان نصيب المصادقية منها، أو نسب قبولها، فيمكن استثمارها في الخطاب الدعوي المعاصر، أو غير ذلك من أنماط (مشروعة) للرقبي بمستوى الخطاب الدعوي، وتجديد وسائله.

رصد الأزمات والتحري والدقة في رصد الأحداث وتسجيلها:

فما يقع اليوم سيصبح تاريخاً للغد، والأجيال المعاصرة للحدث إن احتاجت إلى معرفة الحقيقة دون تلبيس، فحاجة الأجيال القادمة التي لم تشهد هذه الأحداث أشد: لتستفيد من عبرها ودرسها، وحتى لا تبدأ الطريق من بنيان الأولى في أحداث تتكرر وتتشابه، وليس من فارق فيها سوى فارق الزمان أو المكان.

حرب الإعلام:

معارك اليوم تعتمد الإعلام، وتتكئ على آلاته الحديثة، وقنواته واسعة الانتشار، بالغة الأثر.. ومن هنا فلا بد لأصحاب الحق أن يأخذوا بنصيبتهم الوافر من هذه الآلة المؤثرة في المعركة، فيدعموا (القائم المفيد)، وينشئوا (الجديد)، ويهتموا بوسائل الاتصال المجتمعية الحديثة، حتى تكون هذه وتلك عوناً لهم على بيان الحق، وكشف الباطل، وحتى لا يضطروا إلى وسائل أو مؤسسات إعلامية (لا يملكونها)، وقد تخونهم أحوج ما يكونوا إليها.. وهنا مسؤولية مشتركة، فإعلاميون متميزون يقترحون ويخططون، ومفكرون وعلماء يدعمون بعلمهم وفكرهم، وأغنياء ومنفقون يدعمون بمالهم، وشركات إعلامية لها سبق، وبيوت خبرة تتبرع بتجاربها وتقتصر الطريق على المبتدئين.. وهكذا تتكامل القوى، ويتعاون الناس على البر والتقوى، وفي النهاية سيكون لهذا الإعلام دورٌ في محاصرة ترويج الباطل عبر آليات ووسائل إعلام فاسد، يعتمد الكذب وتزوير الحقائق، وفتنة الناس.

الفأل الحسن وحسن الظن بالله:

فالفأل الحسن دائماً وفي زمن الشدائد بالذات، نهج الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم، وأول الرسل ﷺ تتقاصر القرون في دعوته، وصبره وحسن ظنه بربه: ﴿فَلَيْبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ

حتى لا يَخْلُقَ الْإِيمَانَ:

فالإيمان قولٌ وعملٌ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وقد ثبت في الحديث: (إن الإيمان ليَخْلُقُ في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبكم)^(١)، والواقع يشهد أن الأزمات والفتن تحرك الإيمان، فإما أن تزيده أو تنقصه، ومن علائم أهل الإيمان أن الفتن كلما اشتدت كلما زاد سوق الإيمان في قلوبهم، وأليس الله قد قال عن خيار الأمة: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]، ومن علائم أهل الريب والنفاق أنها تضيق صدورهم بالنازلات والمحن، وربما ودوا أنهم خارج دائرة المكان، أو لم يكونوا في ذلك الزمان، وقد قال الله عنهم: ﴿يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يُدْهِبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابَ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبِيَائِهِمْ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿وَإِن مِّنْكُمْ لَمَن لَّيْبَطُنَّ فِإَنِ اصْبَاتِكُمْ مُصِيبَةٌ قَالِ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٢].

وكثرة العبادة برهان على الثبات:

فليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، وإنما الإيمان عقيدة، وتكليف، وعبادة، وأياً ما كانت هذه العبادة خاصة لذات الإنسان لتزكية نفسه وفلاحها، أو متعديّة لنعف الآخرين ودعوتهم.. فتلك مؤشّر على استقرار النفس، وعظيم الثقة بالله، والقرب منه، والأنس بعبوديته، وحيث تشحن النفوس في الفتن وربما انشغلت بالثقل والقال، أو مجرد متابعة الأخبار، كان أجر العبادة في الهرج (الفتن) كهجرة إلى المصطفى ﷺ كما صح الخبر بذلك: (العبادة في الهرج كهجر إلي).

مشاريع جماعية ورسم خريطة طريق مستقبلية:

وحين تكون الهجمة على أهل الإسلام جماعية، ومن أصحاب الملل والنحل، أو الأفكار الهدامة؛ فلا بد أن يكون اتقاء هذه الهجمة بشكل جماعي، يتداعى فيه المسلمون وبكافة شرائحهم وأعمارهم وأجناسهم للتعاون على البر والتقوى، والتناصر، والتناصح، وجمع الكلمة، وردم فجوات الاختلاف، ومن لم يستطع القيام بوحده بمشروع لخدمة الإسلام، يمكن أن ينضم إلى غيره، وهكذا تتضافر الجهود، وتستثمر الطاقات، ولا يبقى في المجتمع عاطل أو متردد، فالحكم لله، ومن يبتغي

سنة إلا خمسين عاماً﴾ [العنكبوت: ١٤] حتى أخذهم الطوفان، بل بلغنا بالخبر الصادق أنه دعا قومه (ليلاً ونهاراً) (سراً وجهاراً) وخاتم المرسلين ﷺ قال لصحابه: ﴿لَا تَحْزَنُوا إِنَّا نَعْنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وأوحى إليه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، وفي سيرته العملية دروس في الفأل وحسن الظن، يكفي من ذلك أنه في غزوة (الأحزاب) وزلزلة أهل الإيمان بعد أصحابه حين الاستعداد للمعركة وهم يحضرون الخندق بفتوحات ستكون في الشام، وفارس، واليمن، وفي نهاية المعركة يبشر المسلمين ويعدهم على أثر الهجمة الشرسة للأحزاب ويقول (متفائلاً) بمستقبل زاهر للإسلام والمسلمين: (الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم)، وقد كان، فلم يغز المشركون المدينة بعد الأحزاب، وفي رواية: ففرح المسلمون واستبشروا^(١).

وبين نوح ومحمد (عليهما الصلاة والسلام) موسى عليه الصلاة والسلام، يعد قومه (بني إسرائيل) ورغم الاستدلال والاستضعاف بالقوة والتمكين: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [١٢٨، ١٢٩]، والنتيجة تحقق وعد الله، وصدق فال موسى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

إن على أتباع المرسلين أن يبعثوا هذه الروح المتفائلة دائماً، لا سيما حينما تتقبض النفوس وتصاب بالإحباط على أثر الضربات والصدمات المتتالية، وأن يربطوا الناس بخالقهم، فلا يقع شيء في هذا الكون إلا بإذنه.

والدعاء سلاح متين:

به يكثر القليل، ويهزم الجمع، ويتهاوى الظلم، وينتصر المظلوم، وطالما فرطنا في هذه العبادة والعبودية لله (الدعاء هو العبادة)، به استتصر المرسلون، وبه كشف الله الضراء، ومناذي السماء يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، والرحمن يذكرنا برفع البأساء ويقول: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام: ٤٣].

ومن الدعاء المطلوب: التعمد بالله من الفتن، وجماعها في دعاء النبي ﷺ: (اللهم إني أعوذ بك من فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال، وفتنة القبر، ومن فتنة النار)^(٢).

(١) فتح الباري: ٢٩٧/٧.

(٢) متفق عليه.

(٣) صحيح الجامع: ٥٦/٢.



تصحيح المصطلحات وقلب التهم:

ثمة مصطلحات يتلاعب بها المبطلون، ويوصف بها البراءة من الناس، وفي كل حين تُرحل التهم إلى آخرين، حتى تتم محاصرة الأخير، بل المتدينين بشكل عام، بهذه الألقاب المثيرة للمجتمع، مثل مصطلحات (التطرف)، و(الأصولية)، و(الإرهاب)، وهكذا من مصطلحات جديدة تروج الآن، وما من شك أن (الإرهاب) منه محمود كما في قوله تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ومنه مذموم، وهو ما تجاوز به المرء حدود الله، وأرهب خلق الله بغير حق. وكذا (التطرف) مذموم لكن بشقيه (الغالي، والجافي).. وهكذا تُحرر المصطلحات، ويُمنع تلاعب أهل الريب فيها وتصديرها. ومن الجميل كذلك ومع تحرير المصطلح أن يُقَلَبَ على أهل المنكر منكرهم، وتُرد إليهم بضاعتهم، ويوصفون بما يستحقون، ومصطلح (الاسترهاب) مصطلح قرآني ﴿وَأَسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وهذا المصطلح (الاسترهاب) خليق بمن يتهمون بغير حق، ويُرهبون بلا برهان، فهل نسوق لهذا المصطلح الشرعي الغائب عن الساحة؟

ركنا الصدع بالحق وأقل درجات الإنكار:

ليس يخفى درجات إنكار المنكر في السنة.. لكن هناك مقولة جميلة للذهبي حدد فيها ركنين للصدع بالحق فتأملوها، قال الإمام الذهبي - رحمه الله - في ترجمة (الإمام أحمد): (الصدع بالحق عظيم، يحتاج إلى قوة وإخلاص، فالمخلص بلا قوة يعجز عن القيام به، والقوي بلا إخلاص يُخذل، فمن قام بهما كاملاً فهو صديق، ومن ضعف فلا أقل من التألم والإنكار بالقلب، ليس وراء ذلك إيمان، فلا قوة إلا بالله)^(١).

فقه إدارة الأزمات:

لا بد من فقه في إدارة الأزمات يحافظ على المكتسبات، ويحقق مزيداً من المنجزات، ويفرق بين ما يصلح في مكان دون مكان، أو زمان دون آخر، والقراءة الفاحصة للأحداث بعمق يتجاوز الوقوف على مجرد الأسباب للأزمة إلى عمقها وآثارها، والموقف الشرعي منها، وكيف الخروج فيها بأفضل المكاسب وأقل الخسائر.. ومن تأمل في سيرة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وجد فيها فقهاً وعمقاً لإدارة الأزمة حرياً بآبائهم أن يقتدوا بهم.

غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، وعليكم بالجماعة فإن يد الله مع الجماعة، وإذا توحد من أصلهم الافتراق كان حقاً على أهل السنة والجماعة أن يتحدوا ويتعاونوا، ولا بد من الوعي بأن أعداء الأمة (يمرحلون) خصومهم، لكنهم في النهاية يستهدفون كل من وقف رافضاً سبيلهم، مستنكراً هجمتهم، وإن بدأوا (بالثور الأسود) (فالأبيض على الطريق).

والحذر الحذر من الانتكاسة، والحدود الكور.. فالهداية فضل من الله وتوفيق.. والثبات على الحق حتى الممات فضل ومنة.. وقد صح عن المصطفى ﷺ: «تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوْدًا عُوْدًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكْتُ فِيهِ نَكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكْتُ فِيهِ نَكْتَةٌ بَيْضَاءٌ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَيْبُضٍ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْأَخْرُ أَسْوَدُ مَرِيَادًا كَالْكُوْزِ، مُجَحِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»^(١).

لا بد من الوقوف عند أحاديث الفتن وتأمل فقهاها، ولا بد من الدروس والمحاضرة في الثبات وعوامله، ولا بد من أحاديث عن الانحراف عن صراط الله المستقيم ومخاطره.. وفي النهاية لا عاصم من أمر الله إلا من رحم، والدعاء بالثبات مطلب.

نعم، هم القدوات والمنارات، والظن بهم الثبات والتثبيت للناس، وحيثما زلوا أو ضعفوا كان الضعف والانحراف لمن وراءهم كبيراً.. لا بد من العلم والحذر من فتنة الشبهات والشهوات.. ولا بد من الإكثار من قراءة سير الثابتين، وفي مقدمتهم الأنبياء والنبيلاء، ولا بد من تواصلهم بالحق، وتواصلهم بالصبر، وقبل ذلك وبعده لا بد من سؤالهم وإلحاحهم على ربه بالثبات أسوة بمن سلفهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُرْغِ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

ألا يا عباد الله فاثبتوا.. وثبتوا تغنموا ويسلم غيركم.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١١/٢٣٤.

(١) صحيح مسلم: ح ٢٢١.

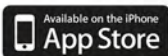
مجلة البيان



www.albayan.co.uk

إلكترونياً

تفاعل معنا



موقع البيان الإلكتروني
يطلق نافذته الإندونيسية





على من يتنزل النصر

■ د. أشرف عبد المنعم (*)

abo_nour_a@yahoo.com

لكنهم رأوا الحق واضحاً

ليس لأنهم لم ترد عليهم الشبهات، فقد ملأ المجرمون بها الأسماع والأبصار، فإن ﴿شَاطِئِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُرْجَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفُ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، وهذا قدر رباني لامتحان الناس ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]، لكن للشبهات أهلها ﴿وَلَتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلَيَرْضَوْهُ وَلَيَتَقَرَّبُوهَا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٣]، وما هم بهؤلاء.

إن منهم العالم والجاهل وبين ذلك، منهم المثقف المتابع ومن دون ذلك، منهم الصغير والكبير.. تفاوتوا في أشياء كثيرة، وجمعت بينهم بصيرة إيمان وبقية فطرة سوية، ففهموا استنكار ربنا حين قال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، فلم يسووا بينهما. لقد وهبهم الله ما فرقوا به بين الحق والباطل، تصديقاً لوعده الكريم: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، وغاب أثر الفوارق الأخرى بينهم، كهؤلاء الذين يقرؤون بين عيني الدجال «كافر»، فقد قال ﷺ: «يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب» [أخرجه مسلم، عن حذيفة بن أسيد الغفاري]، فعاد التمييز إلى الإيمان، واختفى أثر الوسائل الدنيوية التي تفاوت المؤمنون فيها، من ذكاء وتعلم ونحوهما.

(*) عضو اللجنة العلمية والدعوية بالجبهة السلفية.

في مصر، قلب العروبة والإسلام النابض، ومركز الثقل الأكبر، والأقرب إلى الأرض المقدسة في فلسطين، ومن حيث تعلق قلوب المسلمين بالتغيير؛ وقع أسوء تغيير معاكس بانقلاب عسكري، يمارس أشرس صور الإقصاء والاستئصال للحركة الإسلامية، ولكل المكتسبات الثورية، بمنف زائد ظن أنه سيمهد له الطريق.. فمهد لغيره طريقاً آخر.. فلماذا ثبتوا؟

مع أن المحنة شديدة، والخطر داهم، والطاقة البشرية محدودة، وقد عز الناصرون، وتكالب المعتدون: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ [١٠، ١١].. وهذا هو المشهد.

مع أن هناك من يشكك، وهناك من يدعي الواقعية؛ ﴿لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارِجُوهَا﴾ [الأحزاب: ١٣]، وهناك من يعتذر بظروفه الخاصة: ﴿يَقُولُونَ إِنْ يُبْرئتَا غَزْرَةً﴾ [الأحزاب: ١٣]، وهناك من يدعونهم لما يزينون أنه سلامة عاجلة في دعوة ﴿الْمُعَوقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب: ١٨]، في ظل إبداء استعداد للتنازل مراعاة لميزان القوة ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٤].. وهؤلاء كانوا بيننا، و﴿كَانُوا عَاهِلُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُولَئِكَ الْأَذْيَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ [الأحزاب: ١٥].

واجتمعوا على نصرته

كما لم يجتمعوا قبل ذلك، على تفاوت الانتماءات والاجتهادات، بل على التفاوت في الاستقامة نفسها. جمعهم حق مشترك أحبوه وأعلوه على ما سواه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، حين شعروا بالخطر يتهدد دينهم ويتهدد الأمة والأجيال.

ففيهم وريث الصديق وابن حنبل، من أئمة الحق والتقى، وممن تميز بنصرة الحق والثبات عليه بين الناس، اللذين قال فيهما علي بن المديني: «إن الله أعز هذا الدين بأبي بكر يوم الردة، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة»^(١).

وفيهم وريث أبي محجن الثقفي، الذي قيد بذنبه، فلما رأى المعركة تدور، لم يهن عليه إسلامه، وعز عليه أن تكون معصيته سبباً لحرمانه، بل اشتاق إلى ما يكفر سالف زلاته، فقال:

كفى حزناً أن ترتدي الخيل بالقنا
وأترك مَشْدُوداً عَلَيَّ وَثَاقِيَا

ثم انطلق ببذل الروح في سبيل الله: تطهيراً للروح، وتقرباً لله^(٢).

فهذا أوان الثبات

لأنه إنما يحتاج إليه في موطن الامتحان بالرغبة والرغبة، ولهذا امتنَّ الله به على الفتية المؤمنين أصحاب الكهف، حين قاموا للسؤال بين يدي ملكهم الكافر: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا﴾ [الكهف: ١٤].

يحتاج إليه حين يكثر العدو ويقبل الناصر، حين يحيط العدو بأسبابه الأرضية، وتقل أسبابنا المادية بإزائه، كما كان حين تحزبت الأحزاب: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠].

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ٧١/١٨.

(٢) الاستيعاب للقرطبي ٤/١٧٥٠.

يحتاج إليه حين يكون له ثمن، فلا يكون مجرد كلمة جميلة يسهل أن تسمع في خطبة، أو تقرأ في كتاب، أو حتى يتمناها الإنسان لنفسه أو يدعيها. حين يعلو تهديد ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَنقَى﴾ [طه: ٧١]، فلا يجدون إلا استمداد العون الرباني على الثبات حتى الممات ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦].

في تلك اللحظات العصبية، التي تتلفت فيها الأمة، تبحث عن الثبات وأهله، تحتاج إليهم؛ لأنهم في تلك اللحظات طوق نجاتها، وسر حفظ الحق الذي به وجودها، يكون أوان الثبات. فليس التلون ذكاء، ولا التراجع حكمة، ولا سلامة الدنيا أعلى المطالب.

ورأوا القدوات

كما رآهم النبي ﷺ في خطاب ربنا - تعالى - ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]، ورآهم كذلك المؤمنون، بل ورأوه ﷺ ﴿أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] «في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه - عز وجل - صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين»^(٣).

ورأوا أئمة المسلمين وأبطالهم قديماً وحديثاً، فلم يجدوا منهم إلا ثباتاً في وجه الباطل، وانتصاراً في وقت الحاجة، وكلمة حق في وجه الطغيان، وتقديماً للمصالح العليا للأمة على ما سواها من المصالح الضيقة، وإيثاراً للأخرة في مقابل التضحية بالدنيا. ونظروا أمامهم فإذا بالبطلوات تتجسد؛ وقوف في وجه السلاح، وتحت زخات الرصاص، محاولة لإسعاف مصاب، وحمل لجثة شهيد، تقدم للصفوف من شاب يافع، وارتقاء من بجوارك شهيداً في لحظة لا تكاد تفرق بينك وبينه.

بل امرأة تقف أمامهم، ترفض أن

تراجع، تستحث الرجال بوقفة تبذل

(٣) تفسير ابن كثير ٦/٢٣٥.

فيها روحها، وشيخ كبير يكفيه من وقفته أن يبرئ ذمته، ولا يبقى عذراً للقاعدين من الشباب، ودعاء بالثبوت والنصر يتردد بين جنبات المكان وأنفاس الزمان.

رأوا كيف توقن القلوب وتطمئن لما بشرهم به ربهم من نصر، رأوا سكينه الحي في لحظات الضيق، ورأوا ابتسامته الشهيد بعد أداء الواجب. رأوا كيف تتكافأ دماء المسلمين فكلها غالية، وكلها ملؤها التضحية، وبعضها يفدي بعضاً رضا وطواعية.

فطاحت العبارات، وطاشت الإشارات، ولم تعد تغني الهيئات، وانتصب القدوات بأعمالهم، ربما لم يحز بعضهم ألقاباً كبيرة قبل اسمه، وربما منهم من لا يكاد يعرف اسمه.. لكنهم سطروا أسماءهم بأحرف من نور، في لحظات من نار، فانحطت ظلمات الأرض، وارتقوا معروفين في السماء، يعرفهم ربهم وملائكته، وغداً يعرفهم العالمون في مقام كريم.

فالحق إنما يحفظ بثبات أهل العزائم

لذا وجب إنكار المنكر على أهله، وكان هذا هو الإيمان الواجب في هذه الحال، فمن جاهدتهم «فهو مؤمن.. وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل» [مسلم، عن عبدالله بن مسعود]، بل كان بذل الروح في سبيل حفظ الحق بالكلمة، سبيلاً إلى أعلى درجات الشهادة «سيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه، فقتله»^(١).

وهذا الثبات الظاهر دأب بين الوجوب والاستحياب، ودليله «ما جاء في الشريعة من الأمر بالوقوف مع مقتضى الأمر والنهي مجرداً، والصبر على حلوه ومره، وإن انتفض موجب الرخصة... فأباح التكلم بكلمة الكفر، مع أن ترك ذلك أفضل، عند جميع الأمة أو عند الجمهور. وهذا جار في قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن الأمر مستحب، والأصل مستتب، وإن أدى إلى الإضرار بالمال والنفس، لكن يزول الانحتمام ويبقى ترتب الأجر على الصبر على ذلك»^(٢).

فإن حُفظ الحق بغيرك كانت النصره منك مستحبة، وإن لم يُحفظ بغيرك كانت النصره عليك واجبة. فإنه «إذا كان الفعل مندوباً بالجزء، كان واجباً بالكل»^(٣)؛ لأن في ترك ذلك «مضادة لإظهار شعائر الدين»^(٤).

والوجوب هنا يتأكد بأمرين: أولهما: القرب من العدو، فمن كان أقرب، كانت المجاهدة والمرابطة عليه أوجب منها على من هو أبعد، لهذا كان التولي يوم الزحف كبيرة، والثبات على من شهد الوقعة واجب، فإن غيره لا يسد مكانه.

ثانيهما: النعمة من الله، فمن أوتي من الله مزيد نعمة، في دين أو عقل أو صحة أو مال أو غيرها، فالواجب عليه أكبر وأوكد منه على غيره ممن نقص حظه من هذه النعم، فإنه ﴿لَا يَكْفِي اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧]، وما دام قد آتاه فقد كلفها.

فيلحق الوجوب كل قادر - بحسب قدرته - ما دام فرض الكفائية لم يسد؛ «لأن القيام بذلك الفرض قيام بمصلحة عامة. فهم مطالبون بسدها على الجملة. فبعضهم قادر عليها مباشرة، وذلك من كان أهلاً لها. والباقيون - وإن لم يقدرُوا عليها - قادرون على إقامة القادريين. فمن كان قادراً على الولاية فهو مطالب بإقامتها، ومن لا يقدر عليها مطالب بأمر آخر، وهو إقامة ذلك القادر وإجباره على القيام بها.. إذ لا يتوصل إلى قيام القادر إلا بالإقامة، من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»^(٥).

وعلى هؤلاء يتنزل النصر

فإن أهل العزائم هم المقدمون المنصورون في المحن، لذا كان الأمر الرباني ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرَّسُولِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وكان الثناء على أكابر الأنبياء ﴿أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥]، ووراثتهم إنما تكون بقدر ما يتحقق تابعوهم بصفاتهم، ويقدر ما يقومون به من رسالتهم.

بل إن الوجود الصحيح للأمة هو الذي يكون امتداداً لوجود النبي ﷺ؛ لذلك يحفظ الوجود الصحيح للأمة بالطائفة الظاهرة على الحق المنصورة، حتى إن الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم لما ذكر حديث الطائفة، قال: «فيه دليل لكون الإجماع حجة، وهو أصح ما استدل به له من الحديث»^(٦)؛ لأنه إذا حصل الإجماع، فمن المؤكد أن الطائفة المنصورة مع من أجمع، وهي ظاهرة على الحق، فيكون هذا الذي أجمع عليه هو الحق.. فهم الامتداد العظيم للنبي ﷺ ولرسالته في الأمة.

(١) صحيح، صحيح الترميز والترهيب ٢٢٠٨، عن جابر بن عبدالله.

(٢) الموافقات للشاطبي ١/٢٢٤-٢٢٦.

(٣) الموافقات للشاطبي ١/١٢٢.

(٤) الموافقات للشاطبي ١/١٢٣.

(٥) الموافقات للشاطبي ١/١٧٨-١٧٩.

(٦) شرح النووي على مسلم ١٣/٦٩.

لذلك كانت ظاهرة على الحق، معلنة له، تتحمل وتتكدب تكاليف إقامة الحق وحفظه، بل هي تقا تل على الحق، كما في روايات كثيرة من الأحاديث: «يقا تلون على الحق» [مسلم، عن معاوية بن أبي سفيان]، وفي لفظ آخر: «لا تزال طا ئفة من أم تي يقا تلون على الحق ظاهري ن على من ناوأهم حتى يقا تل آخرهم المسيح الدجال»^(١). فهذه الطا ئفة تمثل العصمة للأمة؛ لقر يها من النموذج النبوي في فهم الدين، وأداء دوره الرسالي، بإظهار الحق وتغيير الحياة على مقتضى هذا الحق، ويستمر ون في ذلك إلى آخر الزمان.

أما عن خصوصية ذكر الدجال، فلأن فتنة الدجال كما قال النبي ﷺ: «والله ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة أمر أعظم من الدجال»^(٢).

والنبي ﷺ أخبر عن أثره على الناس فقال: «ليفرن الناس من الدجال في الجبال» [مسلم، عن أم شريك].. لكن الطا ئفة تجتمع لقتال الدجال، فهي لا تجتمع للضرار من الدجال، ولا للمحافظة على دينها فقط، بل لقتاله؛ لأنها امتداد للدور الرسالي الذي قام به النبي ﷺ أول مرة.

وبينما هم مجتمعون لقتال الدجال، وأقاموا الصلاة ليصلي بهم إمامهم، ينزل عليهم عيسى - عليه السلام - ويقودهم، ويقتل الله على يده الدجال [مسلم، عن النواس بن سمعان]. لكن هل تأملت م على من نزل عيسى عليه السلام؟! إنه لم ينزل على هؤلاء الذين فروا يطلبون النجاة بإيمانهم، مع علو ما قاموا به من خير؛ لكنه نزل على المجتمعين لقتال الدجال. فهل تأملت م هذا الفقه للدين؟!.. إنهم يعلمون أن الدجال لن يُقتل حتى نزول عيسى - عليه السلام -، فإنه لا يقتل الدجال إلا عيسى، فالمنتظر أنهم يجلسون وينتظرون نزول عيسى - عليه السلام -.. لكنهم فقها أن من قعد.. لا ينزل عليه النصر.. إنما يتنزل النصر على من تجهز للقتال.. وسار في الطريق.. لا على من ناأ في الجبال.. ولا على من جلس ينتظر الوعود، من غير أن يعد لها عدتها.. إن هؤلاء هم الطا ئفة الظاهرة، وهم الذين يتنزل عليهم النصر.

ولا يضرهم خا ذل أو مخالف

فقد وصف النبي ﷺ حالهم مع الناس وحال الناس معهم، فقال: «لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله

(١) صحيح، صحيح أبي داود ٢٤٨٤، عن عمران بن حصين.

(٢) صحيح، مسند أحمد ١٦٢٩٩، عن هشام بن عامر، وصححه الأرنؤوط.

وهم ظاهرون» [مسلم، عن معاوية بن أبي سفيان].. أما لماذا يخذلهم خا ذل ويخالفهم مخالف؟.. فلأنهم يتحملون الأمر الثقيل: ﴿إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ فَأُولَا ثَقِيلًا﴾ [الزمل: ٥].. إنهم يحملون رسالة تغييرية للحياة، وليست رسالة توافقية مع الحياة، ولذلك يكثر مخالفوهم: «ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي» [متفق عليه، عن أم المؤمنين عائشة]. أما من غير وانحرف، فقد خرج بانحرافه عن العدا ب بقدر ما خرج عن الصراط المستقيم. بل إن كثيراً من هؤلاء المنحرفين كانوا يفاخرون بحسن علاقته م بمن يجب عليهم شرعاً أن يعادوهم!!.. فخرجوا بذلك عن خط العدا .. عن خط الاستقامة.. عن خط التغيير.. عن خط النبي ﷺ الذي اختطه لهذه الأمة إلى آخر الزمان.. عن الخط الذي به يحفظ الدين، وبه تحفظ الأمة، وحين يغيب.. توشك شمس هذه الأمة أن تغيب.. بل توشك شمس الحياة الإنسانية كلها أن تغيب.

أما لماذا إذن ذكر رسول الله ﷺ الخا ذل قبل المخالف: «خذلهم أو خالفهم»؟.. فذلك لأن الخا ذل يحدث من النكاية في القلب أشنع مما يحدث المخالف، فالمخالف يعاد يهم، يقول لهم: أنت م مخطئون. فهناك انفصال بينهم منذ البداية. لكن الخا ذل يقول لهم: ما أحسن هذا الكلام.. وما أجمل هذه الحياة.. لكن لكم أنت م.. وليس لي أنا.. هذا عمل عظيم.. لكن قوموا أنت م به.. وادفعوا أنت م ثمنه.. وحدكم.. أنا لن أسير معكم في هذا الطريق.. أنا لن أتحمل شيئاً من تكاليف هذا التغيير.. أنا لا أريد أن أخاطر بشيء من مكتسباتي ومعاشي الدنيوي!

لقد ثبتوا مع كثرة الخا ذلين، الذين كانوا ينتظرون أن يكونوا لهم ناصرين؛ لأنهم في الأصل موافقون، وليسوا مخالفين، لكنهم إذا حان وقت النصرة.. خذلوا.. وتركوا.. وباعوا.. لتدفع الطا ئفة الظاهرة على الحق الثمن وحدها، وتستحق بذلك الشرف والمنزلة.. وحدها، بأن تكون ذلك الامتداد الكريم للنبي ﷺ في هذه الأمة، بل وفي الناس، بحملها راية الإسلام، وحقائق الدين، وروح التغيير للحياة الإنسانية، لتكون على مقتضى إرادة الله - سبحانه وتعالى - وشرعه الذي يحبه لخلقه أجمعين.

فلهذا ثبتوا.. وبهذا تميروا.. و﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]، فالله واسع العطاء.. وهو سبحانه - عليم بمن هم أهل لعطائه.. فأين أنت منهم؟



التربية في الحلقات القرآنية

■ فايز بن سعيد الزهراني

@fayz_zhrani

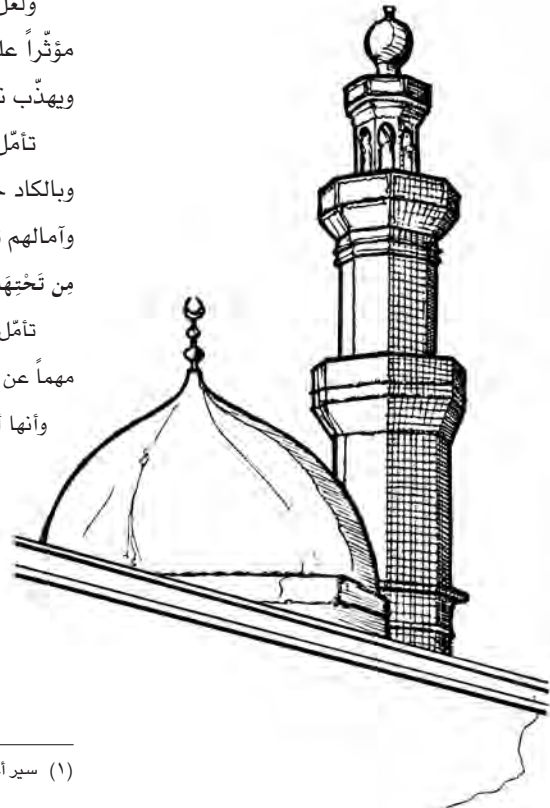
أولاً: أنه منهج رباني ارتضاه الله تعالى لنبيه ﷺ

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلَ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].
فلم يكن النبي ﷺ مقتصرًا في رسالته على تلاوة ما نزل من كتاب الله ليحفظه أصحابه الكرام، بل كان شارحاً لمراده، مبيناً لأحكامه، بوحى من الله يأمره بذلك؛ فهو ﷺ يجمع - كما نصت الآية - بين العناية باللفظ والحفظ (يتلو)، وبين تربية الناس عليه (يزكئهم)، وبين تعليم أحكامه (يعلمهم).

أي عملية تعليمية تُعنى بحفظ الحروف دون تعليم الأحكام وتزكية النفوس: عملية تعليمية ناقصة، ولقد أدرك الصحابة - رضي الله عنهم - ذلك، يقول الإمام المقرئ أبو عبد الرحمن السلمي - وهو ممن عرض القرآن على ابن مسعود رضي الله عنه -: «أخذنا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الأخر حتى يتعلموا ما فيهن، فكنا نتعلم القرآن والعمل به»^(١).

ولعل ذلك هو المعلل لنزول القرآن الكريم مفرقاً حسب الأحداث والمواقف والوقائع، ليكون مؤثراً على قلوب من يتلقونه ويسمعونه ويحفظونه، ويقع منها موقعاً عميقاً، يغير من سلوكهم ويهدب نفوسهم.. تنزل الآية من كتاب الله فيحفظونها، ويعرفون معناها، ويعتقون توجيهاتها. تأمل حال الصحابة حين رجعوا من الحديبية كسيري النفوس؛ قد صدوا عن المسجد الحرام، وبالكاد حلقوا رؤوسهم ونحروا بدنهم.. أعينهم ترمق مكة، وقلوبهم هوت إلى البيت العتيق، وآمالهم تعانق الفتح الكبير.. حينها نزل قول الله الكريم ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥].
تأمل كيف استثمر القرآن الحالة الوجدانية لأصحاب النبي ﷺ ليغرس في أعماق وجدانهم مفهوماً مهماً عن حقيقة الفوز عند الله، وأن دخول الجنة وتكفير السيئات هما أعظم المراتب وأحسن الجوائز، وأنها أكبر من الانتصار على الكافرين، وأنها تكون بالإيمان وطاعة الرسول ﷺ.

لقد رجع أصحاب النبي ﷺ من هذا الموقف ومن هذه الآيات بمفاهيم تربوا عليها وازدادوا في هذا الدين رسوخاً، الأمر الذي دعا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى أن يعمل أعمالاً صالحة يرجو بها تكفير مراجعته للنبي ﷺ في الحديبية.
إن منهج النبي ﷺ في تعليم القرآن الكريم، المنهج الذي يجمع بين التعليم والتزكية والتلاوة؛ لهو المنهج المؤثر، وهو المنهج الذي ارتضاه الله لرسوله ﷺ.



(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٦٩.



ثانياً: يتلونه حق تلاوته

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾

[البقرة: ١٢١].

قال ابن مسعود - رضي الله عنه - «والذي نفسي بيده، إن حق تلاوته أن يحلّ حلاله، ويحرم حرامه، ويقراه كما أنزله الله، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأول منه شيئاً على غير تأويله». وعن مجاهد قال: «يتبعونه حق اتباعه»^(١).

بهذه الآية يتبين أنّ المدح والرفعة والشأن كل الشأن ليس لمن يقرأ القرآن ويحفظه فحسب، بل الشأن كل الشأن لمن اتبع أحكامه وعمل بما فيه، وهذا هو حق التلاوة. وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - أن لفظ التلاوة إذا أُطلق في مثل قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾، تناول العمل بالقرآن كما تقدم عن ابن مسعود وغيره^(٢).

إن تعليم القرآن الكريم تلاوة ولفظاً دون تعليمه أحكاماً وآداباً، ضعف في المهمة التعليمية، ولا يكون تعليم القرآن في الذروة من الفضل والأجر والتأثير إلا إذا اتبع تحفيظ القرآن تعليم العمل به.

عن النّوّاس بن سمعان - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمه سورة البقرة وآل عمران»^(٣).. فإذا كان هذا فضل أهل القرآن العاملين، فكيف بفضل معلمي القرآن الذين يريون التلاميذ على العمل بما فيه! كيف بفضل معلمي القرآن الذين خرّجوا العديد من التلاميذ يتلون كتاب الله حقّ تلاوته! وإننا بحاجة في هذا الزمان إلى حلقات تخرّج طلاباً يتلون القرآن حقّ تلاوته، يحلّون حلاله ويحرمون حرامه، ولا يكون ذلك إلا

بالتربية الإيمانية القرآنية التي يمارسها معلم القرآن الكريم.

(١) تفسير ابن كثير ١/٢٢٦.

(٢) مجموع الفتاوى ٧/١٦٧.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، ١/٥٥٤، رقم ٨٠٥.

ثالثاً: توصيف من يحفظ القرآن الكريم دون أن يفهم معانيه أو يعمل بأحكامه

جاءت الشريعة بدم حافظ القرآن المضيع لأحكامه والمفرط

في العمل به والمنتهك لحدوده.

ففي موضع نبّه القرآن على أن ذلك من صفات اليهود، محذراً من سلوك سبيلهم: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْجَمَّارِ يَحْمِلُ أَثْقَالًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

قال القرطبي: وفي هذا تنبيه من الله تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلّم معانيه ويعلم ما فيه لتلا يلحقه من الدم ما لحق هؤلاء^(٤).

وعن سمرة بن جندب - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ في الرؤيا التي رآها، قال: «أما الذي يثقل رأسه بالحجر، فإنه يأخذ القرآن فيرفضه وينام عن المكتوبة»^(٥)، وفي رواية: «والذي رأيته يشدخ رأسه فرجل علمه الله القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل به في النهار»^(٦).

ونعى الله تعالى الذين لا يتدبرون القرآن فقال: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، ونعى الله تعالى قوماً آخرين فقال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٧٨]، قيل في تفسيرها: «إلا تلاوة»^(٧)! فلم يعلموا ما فيه، ولم يعملوا بما فيه. قال الفضيل: إنما نزل القرآن ليعمل به، فاتخذ الناس تلاوته عملاً^(٨).

العديد من الآيات والأحاديث التي تدم الاكتفاء بقراءة القرآن وحفظه دون فهمه والعمل به.. ليس لقارئ القرآن حظ من الرفعة والأجر دون أن يتبع ما حفظه بفهم وعمل.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٨/٦٢.

(٥) أخرجه البخاري، كتاب التعبير، ٤/٣١٠، رقم ٧٠٤٧.

(٦) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، ١/٤٢٦، رقم ١٢٨٦.

(٧) تفسير ابن كثير ١/١٦٦.

(٨) أخلاق حملة القرآن، الأجرى، ص ٣٧.

قال الحسن البصري - رحمه الله - : إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله.. وما تدبر آياته إلا باتباعه، وما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفاً، وقد والله أسقطه كله، ما يرى القرآن له في خلق ولا عمل، حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نفس! والله ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الورعة.. متى كانت القراءة مثل هذا؟ لا كثر الله في الناس أمثالهم^(١).

ويقول ابن عمر - رضي الله عنه - : كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة ونحوها، ورزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يقرؤون القرآن منهم الصبي والأعمى ولا يرزقون العمل به^(٢). ولذا؛ كان لزاماً على معلم القرآن أن يشفع تعليم حروفه تعليم حدوده، وإلا فسيخرج طلاباً يقرؤون القرآن ولا يعملون به، يلحقهم الذم وينالهم الإثم فيما بعد.

رابعاً: الحلقات القرآنية من أقوى المحاضن في الجاهزية التربوية

يعدُّ المحضن التربوي إحدى الركائز الأساسية في العمل التربوي، حيث الوسط الذي يتفاعل فيه التلميذ مع أقرانه ونظرائه، ويتلقى فيه المفاهيم التربوية، وتعالج فيه أخطاؤه، وتصحح فيه انحرافات.. وهو البيئة التي يتمكن المربي فيها من غرس القيم والمفاهيم، ويتعاهد سقيها ورعايتها، وينقح فيها هذه المفاهيم والقيم مما يشوبها.. وهو المكان الذي يلبي التلميذ كافة احتياجاته الشخصية: الوجدانية والجسدية والعقلية والاجتماعية والثقافية.. بيدع وبيتك، يشارك ويقود.

ولو قممت بمقارنة بين المحاضن التربوية من جهة أثرها في العمل التربوي، لوجدت أن الحلقات القرآنية من أقواها تأثيراً، إن لم تكن هي الأهمى؛ لما في هذه الحلقات من الجاهزية التربوية التي تعين المعلم على أداء دوره التربوي بكفاءة وفاعلية. وتتمثل الجاهزية التربوية في حلقات تعليم القرآن الكريم في عدة جوانب.. كل واحد منها يعدُّ كافياً لإنجاح عمل تربوي، فكيف بها مجتمعة؟! منها: تأثير البيئة.. المسجد.. بيت الله.. مكان مقدس مبارك، حيث ضيافة الرحمن.. عن جبير بن مطعم - رضي الله عنه - أن رجلاً قال: يا رسول الله! أي البلدان

أحب إلى الله؟ وأي البلدان أبغض إلى الله؟ قال: لا أدري حتى أسأل جبريل. فأتاه جبريل، فأخبره أن أحسن البقاع إلى الله المساجد، وأبغض البقاع إلى الله الأسواق^(٣).

وعن سلمان - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (من توضأ وجاء إلى المسجد فهو زائر الله - عز وجل -، وحق على المَؤر أن يُكرم الزائر)^(٤).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (ما توطن رجل المساجد إلا تبشيش الله إليه كما يتبشيش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم عليهم)^(٥).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «... وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم؛ إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»^(٦).

هذه الآثار التي سردتها في فضل المسجد والجلوس فيه، وغيرها كثير؛ تدلُّ في مجموعها على الأثر الجميل على التلميذ في الحلقة، حيث الأمان النفسي، والهناء الداخلي، والسعادة القلبية، والسرور والبهجة.. بركة المكث في المساجد والجلوس بين يدي أهل القرآن، حيث تعاقب الكفوف على حمل دفتي المصحف.

هذه المعاني الهادئة والعميقة التي يجدها التلميذ في بيت الله وهو متطهر يقرأ كلام الله، تجعل منه قلباً مفتوحاً للتوجيه التربوي المصاحب لتلاوة آيات القرآن الكريم.

إن التلميذ حين تملؤه المخاوف، ويكتنفه الاضطراب؛ لا يستطيع استيعاب التوجيهات ولا التطلع لسير نحو الكمال.. لهذا كان المسجد، وهو يحضن الحلقة القرآنية، فيه مصدر طمأنينة وفرصة لأهل التربية ليرتقوا بتلاميذهم إلى الكمال البشري فيعلمونهم مراد الله من كتابه، ويؤدونهم بأدابه.

أصحاب النبي ﷺ، والتابعون، وأئمة العلم والسنة، والفتاحون، والمعلمون... كل هؤلاء تخرجوا في المساجد، وتلقوا فيها القرآن وتربوا عليه.. ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما أصحح أولها.

ومن جوانب الجاهزية التربوية في الحلقات القرآنية: الاختيار.

(٣) صحيح الترغيب والترهيب ١/٢٤٨ رقم ٢٢٥.

(٤) صحيح الترغيب والترهيب ١/٢٤٨ رقم ٢٢٢.

(٥) صحيح الترغيب والترهيب ١/٢٥١ رقم ٢٢٧.

(٦) أخرجه مسلم ٤/٢٠٤٧ رقم ٢٦٩٩ باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.

(١) الزهد لابن المبارك ص ٢٧٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/٣٩.

سادساً: ما يترتب على خلو الجو القرآني من الجانب التربوي

في البناء هناك عناصر تصل به إلى الجودة وعناصر تصل به إلى ما فوق الجودة: الإبداع. ويفقد شيء من عناصر الجودة يصبح البناء مشوهاً فيه ضعف ونتوء. هكذا الجانب التربوي؛ فهو عنصر جودة للحلقة القرآنية، ويفقده تفقد الحلقة جانباً رئيسياً من عناصرها. وعندما تفقد الحلقة أجزاء من بنائها، لا سيما التربوي، فإن عدداً من المفاصل والأمور السلبية ستنتج من جراء ذلك، منها:



• بناء منهجية غير صحيحة لحفظ القرآن، حيث يكتفي التلميذ بحفظ سور القرآن دون التربية على العمل بما فيها. هنا.. ستنشأ أجيال تعتقد أن طريق القرآن هكذا، وأن حفظه أولى من تدبره والعمل به.. وهذا أحد مسببات اختلال التوازن في بناء الفرد المسلم القارئ للقرآن.

• تنشأ صورة ذهنية لدى التلميذ بأن القرآن الكريم لا يمكن العمل به أو تحكيمه في شؤون الحياة، أو على الأقل أن ذلك غير مطلوب من المسلم، حيث تمر الكثير من الآيات التي تأمر وتنهى دون أن يكون لذلك أثر في حياته الخاصة، ودون أن يكون للمعلم تنزيل للآيات على واقع حياته. هذه الصورة

يغلب على تلاميذ الحلقات القرآنية أنهم التحقوا بها رغبة واختياراً دون ضغط أو إكراه، ودون عقوبة أو حرمان. هناك دوافع متعددة تجذب التلميذ إلى الحلقة، يشملها إطار (الاحتياجات النفسية) في الغالب، وبذلك يكون التلميذ قد أعطى زمام قلبه لمعلمه، ليقوده إلى روح القرآن.

خامساً: المنهج المتفرد

المنهج المتوافر في حلقات تعليم القرآن الكريم منهج متفرد.. متفرد في الأهداف.. متفرد في المحتوى.. متفرد في الوسيلة. الأهداف التي يسعى إليها معلمو ومشرفو الحلقات القرآنية أهداف نبيلة وغايات سامية، وأهم أهداف تعليم كتاب الله تعالى: أن يكون الإنسان متوجهاً بقلبه وبجوارحه إلى الله في كل حركاته وسكناته: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٦٢] لا شريك له وبذلك أمزت وأنا أول المسلمين ﴿[الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، وهذا هدف عام وغاية عظمى يمكن الوصول إليها إذا صنع المعلمون والمشرفون أهدافاً واتبعوا السبيل نحوها، ويمكن أن تشمل هذه الأهداف تعظيم الشعائر التعبدية والورع عما يكرهه الله ويسخطه، والأخلاق الحسنة، والآداب العملية... وغيرها من الأهداف التي تحقق معنى العبودية لله. والمحتوى الأساس في الحلقات: كتاب الله، وهو الكتاب المحكم المفصل، لا يأتيه الباطل، معصوم.. لا أقول معصوماً من النقص فحسب، بل هو معصوم من شوائب الكمال والجمال والجلال. والتربية على منهج يستمد أصوله وفروعه من القرآن: منهج معصوم يقي التلميذ من كل عقيدة فاسدة أو فكرة هدامة أو سلوك منحرف ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

إنها فرصة المربين في الحلقات أن يستقوا من هذا المعين لينشئوا الأجيال الصاعدة على فهم كتاب الله تعالى والعمل بأحكامه والتأدب بأدابه، وهم آمنون من زلل المنهج واضطراب الفكر.

والوسيلة المتبعة هي تعليم القرآن تلقيناً وتسميعاً وتوجيهاً.. كل حرف له به حسنة إلى عشر أمثاله إلى سبعمائة ضعف.. وثبت في الدراسات والأبحاث المتعددة أن ملازمي القرآن هم الأوفر تحصيلاً والأكثر ذكاء والأقوى في مهارات التفكير، وهذا سيكون له الأثر الكبير في غرس المفاهيم والقيم والتربية عليهم.

الذهنية تتسع يوماً بعد يوم، وهذا منهج خفي غير مقصود، وهو الأخطر في تشكيل المفاهيم وتكوينها - على المدى البعيد -، حيث يضعف اليقين بما أنزل الله لدى الأجيال الناشئة.

• يتفاجأ المجتمع بين الفينة والأخرى بسلوك وأعمال تصدر من بعض طلاب الحلقات - أحياناً - لا تليق بأهل القرآن وطلابه، وهذا يلقي بظلاله في التفسير من كتاب الله ومن مجالس تعليم كتاب الله. وحين يشب التلاميذ ويكبرون وهم على هذا الحال، فيسيكونون مثلاً سيئاً لحامل القرآن. وأذكر أنني وبعض زملائي ذات مرة وبينما نحن ننتزه على شاطئ البحر الأحمر، رأينا مجموعة من الشباب من المرحلة المتوسطة والثانوية وما فوقها، يطبلون ويميلون رقصاً، فقدمنا إليهم منكرين ومبتهين لهم حرمة ما يفعلون، وكانت المفاجأة أنهم طلاب حلقة قرآنية! ومعهم معلمهم!.. إنها الحلقات حين تخلو من الجانب التربوي. لقد لمست، من خلال تتبعي آثار السلف حول تعليم القرآن الكريم؛ تشديداً وحرصاً على ربط التحفيظ والتسميع بالتربية والتأديب والتعليم.. لقد كانوا أنفذ بصيرة في هذا الشأن، وفي كل شؤونهم.

سابعاً: التباين في المخرجات بين التلاميذ في الحلقات التي تربي والحلقات التي لا تربي

من واقع الخبرة في الإشراف على الحلقات، هناك فرقٌ كبير وواضح بين التلاميذ الذين تلقوا تربية في حلقاتهم، والتلاميذ الذين لم يتلقوا تربية بالقدر الكافي في حلقاتهم، من حيث الأدب، والسمت، والاستقامة على منهج القرآن، والمبادرة إلى الطاعات.. بل ثمة فرق أيضاً بينهم في الإبداع، والحفظ، وحسن الأداء، وغير ذلك.

إنه القرآن الكريم، حين تصنع آياته النفس البشرية، فإنها تصهرها وتركيها، ولا يحتاج إلى شيء إلا إلى معلم ماهر ومؤدب بارع.. هو من يقوم بصهر التبر ليصنع منه سبائك ذهب تبهج الناظرين. وقد شهد المجتمع بهذا التباين، وشهدت المدارس بوجوده، وأصبح شيئاً ظاهراً.

ثامناً: حاجتنا في هذا الزمن إلى التربية أشد من ذي قبل

إذا كان السلف الصالح - رحمهم الله ورضي عنهم - قد حرصوا أشد الحرص على المنهجية المتكاملة في تعليم القرآن،

والتي تجمع بين الحفظ والفهم والعمل، لما لها من أثر، ولما في التفریط فيها من خطورة.. فإننا في هذا الوقت أشد حاجة، بل الحاجة ملحة، حيث كثرت وتنوعت قنوات التواصل مع التلميذ، وكثيرها غير منضبط، واتسعت رقعة التوجيه السلبي، فأصبح لزاماً على كل المحاضن الشبابية أن تقدم دوراً تربوياً وجهاداً قيمياً يحضر في النشء مفاهيم الإسلام ويربيهم عليها. ثم إن هذا النشء أحوج ما يكون إلى أن يتلقى توجيهاً سلفياً على منهاج النبوة، يتحرزون به من الفكر الغالي، ويتحصنون به من الأفكار الهدامة والمذاهب الإباحية.

ضخ هائل، على مدار الساعة، مليء بالشبه والأفكار الدخيلة والثقافات الأجنبية، يراد منه صياغة جيل لا يحمل من الإسلام إلا اسمه، ولا يعرف من القرآن إلا رسمه، يزيح الدين عن شؤون الحياة ويقترب الأثام بحجة (إن الله غفور رحيم).. وعلى معلمي الحلقات - كغيرهم - أن يكونوا سداً منيعاً ضد هذا الوافد، وجبهة مقاومة وممانعة ضد هذا الدخيل.

وإن تأصيل مبدأ الاسترشاد بالقرآن وجعله مصدر هداية في نفوس الناشئة، لمن أهم الواجبات المحتمات على الحلقات القرآنية في هذا الزمان.

تاسعاً: المرحلة العمرية مرحلة تعلم وتلقي

الأغلبية العظمى من التلاميذ الذين التحقوا بالحلقات القرآنية، هم في مرحلة تعلم.. في مرحلة تكوين الشخصية وبنائها.. الطفولة والمراهقة.. هذا باب خير ومفتاح خير، وفرصة ثمينة، حيث التربية على كتاب الله في هذه المرحلة أسهل وأعمق من التربية في غيرها من المراحل العمرية.

وإذا كانت المؤسسات الرسمية في الدول تعتني بتطوير تعليمها لهذه المرحلة، وتصرف لأجل ذلك الكثير من المال، وتتيح لتحقيق أهدافها الكثير من الموارد.. فإن معلمي الحلقات والمشرفين عليها هم أولى بهذا التطوير والتجويد؛ لأن بين أيديهم أعظم منهج.

يجب على معلمي القرآن ومشرفي الحلقات أن يطوروا أساليب ومقررات تربيتهم لتلاميذهم على كتاب الله، وألا يأخذوا المسألة على أنها ثانوية.. بل هي أساس.

وإذا أوجدنا المنهج الرائع، وقدمناه للتلاميذ المتهيين، فإن الأمل كبير بأن تكون مخرجاتنا جواهر آدمية، وجديرة بأن تكون قرآناً يمشي على الأرض.

عاشراً: التربية على القرآن لها دورها الكبير في وحدة المجتمع وانسجامه

بمعناه الشامل.. فتُبني شخصية التلميذ على العمل والمبادرة والمثابرة واستثمار الوقت، ما سيؤثر على مستوى النهوض بالأفراد والأمة.

إن التوجيهات القرآنية إذا تلقاها التلميذ عبر منهج تربوي مقصود، تفتح عقله، وتتمى فيه كل أساليب التفكير الإيجابي وأنماطه، وتكسبه منهجية علمية سليمة، فهو ناقد ومبدع ومحلل.. تمي فيه مهارة الاستدكار والحفظ، فهو حافظ متقن. إن التوجيهات القرآنية إذا تلقاها التلميذ عبر منهج تربوي مقصود، تحثه على الإسهام في بناء الحضارة، وتبني فيه حسّ المسؤولية الحضارية وعمارة الأرض ورفاهية الناس الروحية، فيصبح بانياً للإنسان وحضارته.

ثاني عشر: التربية على هدي القرآن لها أثرها في حماية المجتمع

التربية على هدي القرآن في الحلقات القرآنية لها أثرها في حماية المجتمع من الجنوح والجريمة، وبهذا يتحقق القول: افتح حلقة قرآنية تغلق سجنًا. ولو تتبعنا السيرة الذاتية للجانحين والمجرمين في دور الرعاية الاجتماعية والسجون فسنجد أن المنتهكين بالحلقات القرآنية لا وجود لهم غالباً ضمن قائمتهم^(٢).

وفي دراسة ميدانية حول أثر حلقات القرآن الكريم في تقويم سلوك السجناء، أعدها الباحث: سليمان العقيل ١٤٢٢هـ؛ خرج الباحث بعدة نتائج، منها:

- أن ٨٢٪ من المنتهين للحلقات وجدوا أن الحلقات غيرت مواقفهم من أشياء معيَّنة وأعدت تصحيح مسار حياتهم.
- أن ٩١,٦٪ من المنتهين للحلقات واطبوا على قراءة القرآن واستغلال وقت الفراغ، بل إن ٨٩,٢٪ يرغبون بحفظ القرآن كاملاً^(٣).

والتربية على هدي القرآن في الحلقات القرآنية لها أثرها في حماية المجتمع من العدو الأجنبي، حيث تنص تعاليم القرآن على ضرورة الاجتماع وعدم التفريق، وتوقّر منهجاً سليماً في التعامل مع الأعداء يتفق الجميع عليه، وبالتالي سيكون هذا المجتمع الذي تربي على هدي القرآن وتعاليمه صفاً واحداً لا يستطيع العدو اختراقه، لا فكرياً ولا عسكرياً.

(٢) أثر الحلقات القرآنية في تحقيق الأمن الاجتماعي ص ١٢.

(٣) انظر: علاقة التحاق الطالب بحلقة تحفيظ القرآن الكريم ببعض المتغيرات التربوية،

دراسة ميدانية، ص ٨٢.

التربية على هدي القرآن أعظم مؤثر في وحدة المجتمع، "فالتربية على الأخلاق الإسلامية والآداب القرآنية في بيئات الحلقات القرآنية، تقوي انتماء الفرد لمجتمعه وتحقق له الأمن والأمان والطمأنينة النفسية في الحلقات القرآنية، حيث يتعلّم الأخوة والإيثار والعدل والأمانة وغير ذلك من القيم الإسلامية التي يشعر معها بالأمان، وهذا يجعله يعمم هذا الشعور الإيجابي لدى الناس، فيحب لهم ما يحب لنفسه، ومن ثم يتعاون معهم، ويكون عطوفاً على الآخرين.

إن التربية في الحلقات القرآنية تقوي التواصل بين طلابها والمجتمع؛ لأن تعاليم القرآن تؤكد التواصل بين الناس وتوثيق الروابط بينهم وإشاعة المودة والحب والتعاون وإبعاد عوامل الشقاق والتقاطع والتدابير، وهذا ما يحتاج إليه المجتمع البشري في كل زمان ومكان، وتزداد الحاجة إليه في واقعنا المعاصر الذي سادت فيه قيم الحضارة الغربية وطغيان المادة في حياة الناس، قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرُّوا وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]^(١).

حادي عشر: التربية على القرآن لها دورها الكبير في تنمية الطاقات وعمارة الأرض

حيث التوجيهات الربانية التي حثت على عمارة الأرض واستثمار الطاقات بما ينفع عند الله في الدارين. ولا أدلّ على ذلك من التغيّر الهائل الذي أحدثه القرآن في نفوس تلك التلة المؤمنة التي صحبت النبي ﷺ فتحوّلت من عبّاد للأصنام مختلي التفكير محبطي الهمم، إلى قادة للأمم تصنع الممالك والأمصار، وتشر العدل، وتبعث الحياة في الناس.. ربع قرن من الزمان، هو الوقت الذي استغرفته التربية القرآنية لصناعة حضارة تهتم بالإنسان وتصنعه وترفعه.

إن التوجيهات القرآنية إذا تلقاها التلميذ عبر منهج تربوي مقصود، تبعث الطاقات المتنوعة والتي أوجدها الله في كل إنسان، بما يناسبه، وكل ميسّر لما خُلق له، حيث حثت على العمل الصالح بمعناه العام، وحثت على فعل الخير

(١) أثر الحلقات القرآنية في تحقيق الأمن الاجتماعي ص ١٤.



أسباب الارتقاء وموانع السقوط

قراءة في خلق النبي وصاحبه قبل البعثة

■ أحمد عبد المجيد مكي (*)

أشرت في مقال سابق تحت عنوان «الجاذبية الأخلاقية: قراءة في خلق النبي وصاحبه قبل البعثة»، إلى بعض الفوائد الخلقية المستفادة من حدثين من أحداث السيرة النبوية، أولهما: قول خديجة رضي الله عنها في حادثة بدء الوحي: «كَلَّا، أَبْشِرْ، فَوَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحْمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ (أي: تتفق على الضعيف واليتيم والعيال، والكل أصله: النقل والإعياء)، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف (أي: تكرمهم)، وتعين على نوائب الحق (أي الكوارث والحوادث)».

وثانيهما: وصف رجل من المشركين يقال له ابْنُ الدَّغِنَةِ لأبي بكر حين خرج مهاجراً نحو أرض الحبشة ليلحق بمن سبقه إليها من المسلمين، فلقيه هذا الرجل فقال له: أَيْنَ تَرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجَنِي قَوْمِي. قَالَ ابْنُ الدَّغِنَةِ: إِنَّكَ لَتَخْرُجُ وَلَا يُخْرُجُ، فَإِنَّكَ تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحْمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتَعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، وَأَنَا لَكَ جَارٌ، فَارْجِعْ فَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبِلَادِكَ. فَارْتَحَلَ ابْنُ الدَّغِنَةِ، فَارْجَعَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ، فَطَافَ فِي أَشْرَافِ كَفَّارِ قُرَيْشٍ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ مِثْلَهُ وَلَا يَخْرُجُ، أَتَخْرُجُونَ رَجُلًا يُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَيَصِلُ الرَّحْمَ، وَيَحْمِلُ الْكَلَّ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ، وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، فَأَنْفَذْتُ قُرَيْشُ جَوَارَ ابْنِ الدَّغِنَةِ، وَأَمَّنُوا أَبَا بَكْرٍ... إلخ.

وفي هذا المقال سأقف مع بعض الفوائد التربوية والنفسية المستفادة من الوصفين السابقين في الإشارات التالية:

الوقفه الأول: بإنجاز الممكن نتغلب على المستحيل

إن مشكلة كثير من الناس في مجتمعاتنا ليست مع المستحيل أو الصعب أو البعيد الذي لا تتاله أيديهم، وإنما مع الممكن والسهل والقريب والمستطاع والمتيسر. وبالتدقيق في الخصال المذكورة نجد أن فعلها ليس من المستحيلات، بل هو مما يقع في مقدور الإنسان العادي، ومع ذلك يعجز البعض عنها، مع أن الله عز وجل - بمنه وكرمه - قد أعطانا الرخصة ما دما قد بذلنا ما في وسعنا، فمن قام بما يقدر عليه من الإصلاح لم يكن ملوماً ولا مذموماً في عدم فعله ما لا يقدر عليه؛ أشار إلى ذلك قوله تعالى حكاية عن نبيه شعيب: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، أي: إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ جَهْدِي وَاسْتَطَاعَتِي، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [المؤمنون: ٦٢]، أي: بمقدار ما تسعه طاقتها، ولا يعسر على قدرتها.

وقال النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»، أي: افعلوا ما تقدرتون عليه، وما عجزتم عنه فإنه ساقط عنكم.. لكن لا يعذر الإنسان إلا إذا بذل جهده وانسدت عليه أبواب الحيل.

(*) باحث دكتوراه في مقاصد الشريعة.

الوقفه الثالثة: الاهتمام بالأشياء الجزئية التي نزلها صغيرة والإعلاء من شأنها

(إذا كان الجبل مجموعة من حبات الرمل، فليس هناك شيء صغير).. مقولة يردها الحكماء تُفسر قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧٧، ٧٨]، والذرة في نظر المفسرين القدامى: هي شيء لا وزن له، أو هي البعوضة، أو الهبأة التي ترى في ضوء الشمس، أما في العصر الحديث فهي أصغر حجم في الكون. فَرَعَبَهُمْ فِي الْقَلِيلِ مِنَ الْخَيْرِ أَنْ يَعْمَلُوهُ، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَكْتُرَ، وَحَدَرَهُمُ الْيَسِيرَ مِنَ الشَّرِّ، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَكْتُرَ.

وقد ذكر المفسرون جملة من الآثار تبين عظم هذه الآية، منها: قول ابن مسعود: «هذه أحكم آية في القرآن»، وصدق. وكان النبي ﷺ يسمي هذه الآية «الآية الجامعة الفأدة». وقدم رجل على النبي ﷺ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ... الآيات»، قَالَ الرَّجُلُ: «حَسْبِي، لَا أَبَالِي أَنْ لَا أَسْمَعَ غَيْرَهَا». وقال آخر: «أَقْرَبْتَنِي - يَا رَسُولَ اللَّهِ - سُورَةُ جَامِعَةٍ». فَأَقْرَأَهُ: «إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا»، حَتَّى إِذَا فَرَعَ مِنْهَا قَالَ الرَّجُلُ: «وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَا أَزِيدُ عَلَيْهَا أَبَدًا». ثُمَّ أَذْبَرَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْلَحَ الرَّوَيْجِلُ! أَفْلَحَ الرَّوَيْجِلُ!».

إن التغيرات الصغيرة في عاداتنا وسلوكنا، والتي لا نلقي لها في العادة بالاً؛ هي التي تغير الكثير من ملامح حياتنا الخاصة والعامة، فهي تشكل إضافات اجتماعية مؤثرة، تماماً كما يحدث حين نضع درهماً فوق إخوة له لنبني منها جامعة، أو نزيح حجراً من بين ألف حجر من طريق الناس لنوسع لهم الطريق، وفي ضوء هذا المعنى نفهم بقية النصوص، والتي منها:

- «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئاً وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلْقٍ»، أي: سهل منبسط.
- «تَبَسُّمِكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ».
- «اعْلَمُوا أَنَّ أَحَبَّ الْعَمَلِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهُ وَإِنَّ قَلَّ».

فإذا أردنا أن نمثل لأمر الله تعالى على قدر الوسع والطاقة، فعلينا أن نباشر ما هو ممكن ومتيسر لنا؛ فمشوار الألف ميل يبدأ بخطوة، وأول الغيث قطر ثم ينهمر، والجبال من الحصى، والبحار من القطر، وإذا عملنا ما هو ممكن اليوم صار ما هو مستحيل اليوم ممكناً غداً.

الوقفه الثانية: امتلاك الإرادة القوية

كثيراً ما تختلط علينا القدرة بالإرادة، حيث نظن أو نعتقد أننا لا نستطيع فعل عمل ما، وتكون الحقيقة أننا نستطيع فعلاً القيام به وبمثله معه، لكن لا نريد أن نفعله، والسبب الرئيسي في ذلك هو ضعف الإرادة، والحكماء يقولون: «مَنْ لَهُ إِرَادَةٌ تَكُونُ لَهُ الْقُوَّةُ»، وقد صدقوا؛ فالإرادة هي سرُّ النجاح، ولا يكون جمود الأعمال أو توقُّف نشاطها إلا حين يفقد صاحبها القدرة على التأثر أو الاستجابة نتيجة اللامبالاة أو انعدام الإرادة.

وقد أوضح لنا القرآن الكريم أن الذين تخلفوا عن غزوة تبوك - غزوة العُسرة - كانوا غير صادقين حين ادَّعوا عدم القدرة على الخروج، والحقيقة أنهم كانوا يفقدون النية والرغبة والإرادة؛ بدليل عدم الاستعداد للخروج، وعدم السعي إلى توفير متطلباته، وفي هذا يقول الحق: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ [التوبة: ٤٦]، أي: لَهَيُّوْا لَهُ مَا يَلِزَمُ مِنْ سِلَاحٍ وَزَادٍ وَمَرْكُوبٍ، وَعَمَلُوا مَا يُمْكِنُهُمْ مِنَ الْأَسْبَابِ، لَكِنَّهُمْ كَانُوا عَازِمِينَ عَلَى عَدَمِ الْخُرُوجِ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، وَلَوْ لَمْ يَأْذَنَ لَهُمُ النَّبِيُّ بِالْتَخَلُّفِ لَتَخَلَّفُوا مُخَالَفِينَ قَصْدَهُ مُتَحِدِّينَ أَمْرَهُ.

وهؤلاء أنفسهم هم الذين سعوا إلى التحقير من هممة المسلمين الفقراء الذين تطوعوا بالقليل رغبة منهم في المساهمة - على قدر طاقتهم - في الجهاد والعدَّة له، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قول الحق: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].
ولك أن تقارن بين إرادة هؤلاء وإرادة هذا الرجل من فقراء المسلمين الذي يعمل ليحصل على صاعين أجرة له، جاء بأحدهما لرسول الله ﷺ فقال عنه هؤلاء: «إِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَذْكَرَ بِنَفْسِهِ!»

الوقفه الرابعة: القناعة بأن العمل الخيري درع حصين للمجتمع

إذا كانت المناعة في عالم الطب تعني الحصانة والقوة التي يكتسبها الجسم فتجعله غير قابل لمرض من الأمراض، فإن مناعة المجتمعات لا تختلف كثيراً عن هذا المعنى؛ لأن المنكرات كالجراثيم التي تؤثر في الجسد قطعاً، وإذا لم تمرضه فإنها تضعف مقاومته، ومن ثم التغلب عليه وقهره. وإذا نظرنا في سيرة نبينا وتأملنا أحداثه، وجدنا أن الشغل الشاغل له لم يكن ما يفعله الأعداء خارج مجتمعه، لكن ما يحدث داخل المجتمع ﴿وإن تصبروا وتقفوا لا يضركم كيدهم شيئاً﴾ [آل عمران: ١٢٠]. وقد تأملت قوله تعالى: ﴿فاستيقوا الخيرات﴾، فوجدته قد جاء في القرآن مرتين:

المرّة الأولى: في أثناء الرد على شبهات اليهود والنصارى ومن شابههم من المعترضين على أحكام الله وشرائعه حول تحويل القبلة.

والمرّة الثانية: ورد في أثناء جدال اليهود والنصارى بالباطل حول موقف القرآن من الكتب السابقة، وفي هذا إشارة إلى أن الله يريد أن يصرف المسلمين عن الانشغال بما يبته أهل الكتاب ومن شابههم من دسائس وفتن وتأويلات وأقاويل. ويلاحظ أن الله لم يأمر المسلمين بفعل الخيرات أمراً مجرداً فقط، بل أمرهم بالتسابق إليها، ومعلوم أن الأمر بالاستتباب قدر زائد على مجرد الأمر، فالاستتباب يتضمن المبادرة وفعل المأمور به على أكمل الأحوال، فلا يصير فاعلها سابقاً لغيره إلا بأمرين:

الأمر الأول: المبادرة إليها وانتهاز الفرصة حين يجيء وقتها ويعرض عارضها.

الأمر الثاني: الاجتهاد في أدائها كاملة على الوجه الصحيح.

الوقفه الخامسة: القناعة بأن العمل الخيري يحمي فاعله من السقوط

إذا كانت للعمل الخيري فوائد لا تحصى، فإن من أهم فوائده أنه أمر أساسي في المعالجة النفسية والسلوكية، حيث إنه يساعد على تفهم الشخص لطبيعته وقدراته وحدوده، ويجعله على وعي بالمميزات والخصائص المكوّنة لذاته، كما أنه يساعد على تكامل تلك الذات، وتحقيق التماسق والانسجام الداخلي لمختلف أوجه الشخصية، وإحداث التكامل بينها.

كما يساعد على التخلص من الاكتئاب والملل والإحساس بالفراغ والشعور بالضالة، إذ من خلاله يشعر المرء أنه يتواصل مع القيم الأعمق والأنبيل في كيانه، قيم التضحية والتعاطف والتفوق على الذات والإيثار، والاهتمام بالآخرين، ما يجعله في مأمن بعيداً عن مرض الانطواء على الذات، ذلك المرض الخطير الذي من أوضح أعراضه: عدم الاهتمام بالعالم الخارجي، وضعف القدرة على الاتصال بالآخرين.

إضافة إلى أن في العمل الخيري وسيلة لتقويم الأخلاق واكتساب الجيد منها، والتخلي عن الرديء، فالعلم بفضايا الأخلاق دون عمل لا يكفي، بل لا بد من مباشرتها، وإلا فمآذا يستفيد المريض الذي أخذ وصفة العلاج لكنه لم يصرف الدواء أو صرفه ولم يتناولها، حتى إن كان طبيبه قد نجح في تشخيص الداء وجاءت وصفته بخير دواء؟!

وقد نبهنا الله إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿قد أفلح من زكّاه﴾ [الشمس: ٩]، أي: طهر نفسه من الذنوب، ونقاها من العيوب، ورقاها بطاعة الله، وأعلاها بالعلم النافع والعمل الصالح، ولم يقل ربنا - تبارك وتعالى - : (قد أفلح من تعلم كيفية تركيتها). والفلاح هنا لا يقتصر على الآخرة فقط، بل هو شامل الدنيا، حيث يعيش صاحبه حي القلب، مرهف الحس؛ وشامل الآخرة، حيث النجاة من النار والفوز بالنعيم والرضوان.

ومما يدل على جودة هذا المسلك وأثره في تقويم الأخلاق؛ ما ورد في الحديث من أن رجلاً شكى إلى رسول الله ﷺ فسوّه قلبه، فقال له: «إن أردت أن يلين فامسح رأس اليتيم وأطعم المسكين».

اللهم أعل هممتنا، وهو عزمنا، ووفقتنا لكل خير.. آمين.

نماء

منهج بناء الشخصية الإسلامية
من الرضاعة إلى ما بعد الجامعة

بمشاركة فريق من الباحثين المختصين

للمربين ..
.. للأسرة ..
.. للدعاة



أولادي والتقنية

بناء قيادات
اجتماعية فاعلة

أريد بناء
الخلق الحسن
لدى ابنتي

كيف نبني
داعية مؤثراً؟

ابني المراهق
وعلاقته بالله

كيف أجعل
طفلي منظماً.

إعداد مؤسسة

المُرَبِّي

ALMURABBI

إخراج و تصميم

BN

www.BNet.ws



حقيقة الغناء..

رؤية إيمانية نفسية تربوية

■ د. جمال بادى (*)

jamal956@gmail.com

بينما الغناء يعلّق القلب بالرنين والإيقاع، وجميل النغم، ويحرّض على حب الدنيا وزهرتها ومفاتها ومباهجها، مع التركيز على التعلق بالشهوة الجسدية، والوقوع في أسر العواطف، وما ترسمه الكلمات من صور ذهنية للمحبوب، الذي عادة لا يكون محبوباً على الوجه الشرعي الجائز، بل إن المحبوب يتعدد بتعدد المغنين الذين أصبحت أعدادهم بالآلاف، بل بالآلاف، ويختار كل منقلب ما يحلو ويروق له من هؤلاء المغنين ممن يكون غالباً همهم الدنيا، وليس بقدوة حسنة لا في أخلاقه ولا في أفكاره ولا في سلوكه ولا في مظهره وملبسه؛ فكل ذلك يخالف أمر الله تعالى.

كما أن الغناء يربي على اللهو والهزل، وهو واضح في سلوكيات الذين يتأثرون به، وهو بخلاف التربية الإسلامية التي تعتمد على الجد والمثابرة، والكسح والتنافس في فعل الخيرات والمعروف، وإن كان في ديننا فسحة للمرح والانبساط والمزاح لكن بقدر ووفق ضوابط حتى لا يطغى. كما أن الغناء

أصل الموضوع هو في تعلّق القلب وتوجّهه، فالتوحيد هو صدق اللجوء إلى الله، وتعلّق القلب به سبحانه دون سواه، والأنس به، وإزالة كل العوائق والعوائق الأخرى التي تراحمه.. ويتبع ذلك أن بغية القلب والروح هي في التعلق بالآخرة والرغبة فيها والاستعداد لها وتهيئة النفس للقدوم على رب العالمين.. وهذا يتطلب الجد والتشميم والسير الحثيث والاستعانة بالقدوة والروحة وشيء من الدلجة وتجاوفي الجنوب في الأسفار للتغني بالقرآن، وتدبر آياته ومعانيه، والانتقال مع تصويراته، والحياة مع تعليماته، وطلب هديه، والوقوف عند حدوده، وتعظيم شعائر منزله؛ لأن ذلك من تقوى القلوب.

(*) الاستاذ في الجامعة الإسلامية بماليزيا.

وللموسيقى تأثير عظيم على القلب؛ فلها أثر نفسي وشعوري يجعل القلب يميل ويضطرب ويتراقص مع نغماتها وإيقاعاتها وأوتارها، حتى قالوا في وصفها: "الموسيقى غذاء الروح" فماذا بقي للروح إذن؟ وأي غذاء هو؟ أم أنه السم الزعاف؟ فما حال الروح التي تتغذى على كلام يحرك همتها نحو الدنيء من الأقوال والتصورات، ويضعف شعلة الإيمان فيها، ويجرها نحو الفاني من الزخارف، ويلهبها عما خلقت له من شرف العبودية لله تعالى؟

بناءً على ما تقرّر آنفاً فإن هذا يستلزم من المؤمنين والمؤمنات العناية بقلوبهم وأرواحهم وتعهدها بالرعاية والعناية والتربية للسير بها نحو الطريق المستقيم الذي سلكه الأنبياء والصالحون. فقلوبنا بحاجة إلى الغذاء الصحيح كل وقت وحين من الذكر والتذكر والفكر والتفكير فيما يقربها إلى خالقها والدار الآخرة والتواصي بذلك وعدم التهاون فيه أو السهو عنه، فإن القلوب إذا خلست من القرب من الله والأنس به سبحانه شددتها الجواذب، واحتوشتها العلائق، وتهاوشها قطع الطريق، وحينئذ علاها الران وأوشكت على الضياع والهلاك، ولا عاصم إلا الله، ولا قوة إلا به.

يربي مستمتعته على الجرأة على انتهاك المحارم واستسهالها والتهيئة للانهماك فيها؛ لأنه يأخذ روحه ويلف بها دون مقاومة منه حول الحمى مرات كل يوم فكيف لا يرتع فيها؟

وقد قرّر شيخ الإسلام في "الاعتناء" بأن القلب لا يتسع لنقيضين؛ فإما القرآن وإما مزامير الشيطان. ووصّف سلفنا الغناء بـ "مزامير الشيطان" لعله من باب وصف آلة من أهم وأخطر آلات عدونا إبليس التي يستعملها في حرب عباد الله واستمالة قلوبهم لصرفها عن الحق والتلذذ بغير كلام الرحمن الذي يقود حتماً إلى هجرانه والانصراف عن هديه وحكمه ومواعظه.

إنه "التغيير السلبي باستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير"، فالذي يستمتع إلى الغناء ويبالغ فيه ويتعلق به ويواصل التلذذ به؛ يتغيّر حاله، وقلبه، وفكره، وسلوكه، فمقل ومستكثر. وهنا تأتي مسألة غيرة الله على قلب عبده.

ومن مساوئ الغناء ومآلاته السلبية التعلق بالمغني إلى درجة العشق والهيام، حتى وجدنا من ينتحر عند سماعه بموت مطربه؛ يضاف إلى ذلك التعلق الشهواني إن كان المطرب من غير جنس المستمع، وتزداد الفتنة بمظهره ومفاته وحركاته وآهاته ولباسه ورقصاته ونظراته وبسماته!

الآن..



في بيان غريب

القرآن



بدر
•••••

الرياض - هاتف ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس ٤٥٣٢١٢١

المشاريع ٥٠٤٤٧٨٩٣٢ - ٥٠٢٢١٠٩٢ - ٥٠٣٤٠٩٨١٦ - ٥٠٣٨٩٦٣٦٥ - ٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة ٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة ٥٠٧٢٦٦١٢٠ الجنوبية ٥٠٦٤٦١٠٥٨

الشرقية ٥٠٦٢٩٢٦٨٩ القصيم ٥٠٢٢٢٠٦١٦



رئيس حزب الرشاد اليمني

الدكتور محمد بن موسى العامري لـ البيان:

- المرحلة التي تشهدها اليمن تستدعي أن يكون هناك حضور سلفي في المشهد السياسي.
- ابتكار العمل لخدمة الإسلام من زاوية واحدة مع التزهيد في المجالات الأخرى عيبٌ ذريع.
- السلفية ليست حزياً معيناً وليست حكراً على طائفة بعينها.
- المسلمون جربوا المشاريع القومية واليسارية والعلمانية التي أوصلت الأمة إلى هذا التخلف، وحث دور المشروع الإسلامي.
- العمل السياسي جزء لا يتجزأ من مشروع الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- غالبية الشعب اليمني لن يقبل بالتفريط في ثوابته ومصالحه.



اتحاد الرشاد اليمني

■ أجرى الحوار: أحمد الصباحي

mosleh484@gmail.com

@AlsabahiAhmed



بسبب أعمال المليشيات المسلحة خارج إطار النظام والدستور لجماعة الحوثي وغيرها.

وكذلك بسبب الضعف الشديد في أداء الأجهزة الأمنية وغياب أو شبه غياب لتفعيل دور المؤسسة القضائية. ولم يكن بعيداً عن ذلك الجوانب الاقتصادية التي جعلت من اليمن دولة أقرب ما تكون إلى منظومة الدول الفاشلة.

ويضاف إلى ذلك البطء الشديد في إجراءات وتنفيذ القرارات التي من شأنها ترسيخ مبدأ سيادة النظام والقانون ورفع المطالم ورد الاعتبارات للفئات المتضررة من مخلفات النظام السابق، وبخاصة في بعض المحافظات الجنوبية التي تشهد احتقانات متنامية بسبب هذه السياسة التي يرى كثير من المراقبين أنها مفتعلة؛ لإيجاد تسوية سياسية معينة تخل باستحقاقات المرحلة القادمة.

وفيما يتعلق بسيادة الدولة والحفاظ على استقلالية القرار فيها، هناك موجة

البيان: بداية كيف تصفون المشهد السياسي الحالي في اليمن؟

المشهد السياسي في اليمن يمكن أن ينظر إليه من زاويتين:

الأولى: وهي الجانب الإيجابي، وهو توافق القوى السياسية من خلال الحوار الوطني إلى بعض الصيغ التصالحية التي حالت دون دخول أبناء اليمن في دوامة الصراعات المسلحة والحروب الأهلية، وهذا الاتجاه بحد ذاته إذا نُظر إليه مجرداً يعد في الواقع مقارنة بما يجري في مناطق مشابهة إنجازاً لا بأس به، وهو ما أفرزته المبادرة الخليجية.

الثانية: وهي الجانب السلبي باعتبار ما يجري في الواقع على صعيد العملية السياسية بالغ التعقيد، سواء من حيث الأداء الحكومي لحكومة الوفاق الوطني وما يحيط بها من المناكفات السياسية والصراعات التاريخية بين القوى التقليدية التي قطفت ثمار الثورة الشبابية.. أو من الناحية الأمنية التي تزداد سوءاً وتدهوراً يوماً بعد يوم

استهلال: يعدُّ الدكتور محمد بن موسى العامري من أبرز مشائخ وعلماء اليمن، ومن أوائل من تتلمذ على الشيخ مقبل الوداعي، ورحل إلى أرض الحرمين واستفاد من بعض مشائخها؛ كالشيخ عبدالعزيز بن باز، وابن عثيمين - رحمهما الله -، وغيرهما من المشائخ.. وأسس مركز الدعوة العملي بصنعاء، وهو نائب رئيس هيئة علماء اليمن، وعضو رابطة علماء المسلمين، ومؤخراً أسس مع بعض المشائخ أول حزب سلفي في اليمن باسم «اتحاد الرشاد اليمني». والشيخ العامري شارك في اللجنة الفنية للتحضير للحوار الوطني عن حزب الرشاد، ثم اختير عضواً للحوار الوطني، وبعد ذلك تم اختياره ضمن لجنة التوفيق في المؤتمر نفسه.. «البيان» التقت الدكتور العامري وحوارته عن المشهد السياسي في اليمن، والتجربة السلفية في العمل السلفي، وتداعيات التحول السلفي إلى العمل السياسي، والجدل الدائر عن الشريعة الإسلامية في مؤتمر الحوار، وغيرها من المواضيع في ثنايا هذا الحوار الشامل:

من السخط الشعبي بسبب الوصاية الدولية على سير العملية الانتقالية السياسية في اليمن، وفرض أجندة خارجية تستهدف النسيج الاجتماعي اليمني ومنظومة القيم والأخلاق المتجذرة فيه.

هذا عدا عن سلسلة الغارات الجوية الأمريكية في عدة مناطق يمنية بحجة القيام بمكافحة الإرهاب في اليمن.

البيان: بعد الربيع العربي اعتلق السلفيون العمل السياسي بعد أن كانوا يجرمونه ويحرمونه في السابق، فما الذي تغير؟

العمل السياسي وفق مقاصد الشريعة الإسلامية لم يكن محرماً ولن يكون كذلك عند علماء الإسلام عموماً وعلماء الدعوة السلفية على وجه الخصوص، باعتبار أن الإسلام دين ودولة وعقيدة وشريعة، وما يدور سابقاً ولاحقاً هو الحديث عن جدوى المشاركة السياسية في ظل النظم التي تتبنى مسلك الديمقراطية، وهي مسألة اجتهادية مصلحية تخضع العملية فيها لحسابات الربح والخسارة في فقه الموازنات الشرعية، وغالب علماء الدعوة السلفية وجمهورهم، سواء قبل أو بعد الربيع العربي، يرون أن هذا العمل يعد نوعاً من الحسبة متى ما رجحت مصلحته على مفاسده.

وهناك فئة قليلة جنحت إلى المنع من ذلك من منظور عقدي قد لا يكون له اعتبار في اليمن؛ لأن الدستور اليمني من الناحية النظرية ينص على أن الشريعة الإسلامية مصدر لجميع التشريعات.

وربما كان عزوف بعض السلفيين عن العمل السياسي يعود إلى مسالك بعض السياسيين من الناحية الواقعية التي لا تتعامل في مسيرتها السياسية وفق ضوابط الشريعة الإسلامية، وهو ما نتج عنه إخلال ملحوظ بالجانب القيمي والأخلاقي في تصرفات كثير من الوالدين في دهاليز العمل السياسي.

وهذا بحد ذاته لا يعد بالضرورة لازماً من لوازم العمل السياسي، إلا أنه قد أحدث نفوراً وردود أفعال لدى قطاع واسع من السلفيين.

وربما كان للمشاريع الدعوية والخيرية والتعليمية التي مارسها الدعاة السلفيون في اليمن وتكيّف ظروفهم عليها؛ أثر بالغ في العزوف عن العمل السياسي، وهي جهود مقدرة وتتكامل وتتعاقد من وجهة نظرنا مع المشاركة في العمل السياسي، وبخاصة في هذه المرحلة التي يشهد فيها اليمن تحولات جذرية تستدعي أن يكون هناك حضور في المشهد السياسي وتفعيل دور العمل الاحتسابي في هذا المجال.

البيان: ما التصنيف الأيديولوجي الذي يمكن أن نصف به حزب الرشاد؟

حزب الرشاد اليمني جزء لا يتجزأ من الشعب اليمني، وينطلق في مبادئه من جملة من المبادئ، أهمها: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ مرجعية المجتمع والدولة، وتقوم رسالته على تحكيم شريعة الإسلام وتحقيق نهضة اليمن وإصلاح المجتمع، وهي أمور ضرورية لكل توجه إصلاحية لا سيما في بلد الإيمان والحكمة التي لا يسع أي تيار سياسي أو اجتماعي إلا الالتزام بذلك.

وليس هناك أي تصنيف أيديولوجي يخصنا خارج إطار الجمل الثابتة التي يؤمن بها أبناء الشعب اليمني المنبثقة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما أجمعت عليه الأمة.

البيان: يعاب على السلفيين بُعدهم عن المشاركة في العملية السياسية والتنمية وتركيزهم على الجانب الدعوي، بالنسبة لحزب الرشاد كيف سيتعامل مع هذا الموضوع؟

ليس هناك ما يعاب على أي جماعة رأت أن بإمكانها أن تخدم الإسلام من أي منشط اجتماعي أو تعليمي أو سياسي متى ما كانت ترى نفسها مكتملة ومترابطة مع غيرها، وإنما يأتي العيب من احتكار العمل لخدمة الإسلام من زوايا واحدة فحسب، مع التزهيد والتحقير في المجالات الأخرى، وكون بعض السلفيين قد اختار أن يسد ثغرة من ثغرات العمل الإسلامي المتعددة وفق رؤية تكاملية وشاملة؛ لا يعد في واقع الأمر عيباً، بل نراه منقبة ومزية تدرج في منظومة التخصصات التي نفتقدها اليوم في أعمالنا المختلفة.

ونحن في «الرشاد» نرى ضرورة التكامل بين الأعمال ونسعى مستعنيين بالله إلى ترسيخ ذلك من خلال دوائر وأنشطة الرشاد المتعددة.

البيان: البعض يعتبر أن الأحزاب السلفية في مصر واليمن وغيرهما من الدول، امتداداً للمدرسة السلفية

الوهابية، هل ينطبق هذا الأمر على حزب الرشاد، ولمن ينسب الرشاد نفسه؟

كثيراً ما يحاول خصوم المدرسة السلفية أن يحصروها في زاوية ضيقة ومختزلة، والذي نراه ونؤكد عليه دائماً هو أن السلفية تعني الالتزام بالكتاب والسنة وما أجمع عليه سلف هذه الأمة، ومثل هذا الأمر يعنى به الإسلام بشموليته واستيعابه جميع جوانب الحياة، فالسلفية إذن ليست حزباً معيناً وليسست حكراً على طائفة بعينها، وكون الإمام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - قد أحدث نهضة تجديدية أو غيره من أئمة الإسلام؛ هذا لا يعنى بالضرورة الالتزام بجميع آرائه واجتهاداته، شأنه في ذلك شأن غيره من علماء وأئمة الإسلام الذين يستفاد من علومهم وإنجازاتهم وتجاربهم.

وحزب الرشاد لا ينسب نفسه لشيء سوى الإسلام والسنة، ويعتبر نفسه واحداً من المناشط التي قامت لخدمة الشعب اليمني والحفاظ على مصالحه وثوابته، سالكين في ذلك الطرق المشروعة السلمية، ومتعاونين مع كافة شرائح المجتمع السياسية والاجتماعية لتحقيق الشراكة النافعة التي يحتاج إليها اليوم أبناء الشعب اليمني في ظل هذه الظروف التي تعصف به.

البيان: كيف يجد السلفيون في اليمن أنفسهم وهم يمارسون العمل السياسي؟

هناك دون أدنى شك فارق كبير بين الجانب النظري في العمل السياسي والجانب التطبيقي، وكلاهما ضروريان،

غير أن الدخول في العمل السياسي وممارسة ذلك مع بقية القوى السياسية يمتاز عن الجانب النظري بكونه أقرب ما يكون إلى الواقعية، ومعرفة سير العملية السياسية، وتشابك المصالح، وتقدير المصالح والمفاسد بصورة أنسب وأقرب إلى الحقيقة من مجرد التنظير السياسي الذي كثيراً ما يكون جانحاً إلى النظرة المثالية.

ومن ناحية أخرى، فإن الدخول في العمل السياسي من الناحية العملية يعد بحد ذاته مدرسة في تنمية القدرات والمهارات لدى العاملين في حقل العملية السياسية.

البيان: بعض الناس يتخوفون من وصول الإسلاميين إلى الحكم بحجة أنهم غير قادرين على إدارة المرحلة الراهنة، هل أنت مع هذا التخوف؟

الذين يزرعون مثل هذه الإيحاءات أو التخوفات من وصول الإسلاميين إلى سدة الحكم لا يخرجون عن ثلاث فئات: الفئة الأولى: وهم خصوم الإسلام، سواء كانوا من خارج دائرة الإسلام أو كانوا من المتلبسين بالإسلام والمنتسبين إليه من ضحايا المؤامرات الخارجية.

الفئة الثانية: هم الذي يجهلون حقائق المشروع الإسلامي وما يشتمل عليه من الهدى والرحمة والعدل والحقوق والحريات المشروعة وغير ذلك من معاني الخير.

الفئة الثالثة: وهم المتظاهرون بالإسلام الذين يريدون منه أن يكون مفصلاً على حسب أهوائهم، وهؤلاء

يجاربون المشروع الإسلامي ووصول الإسلاميين إلى سدة الحكم خوفاً من انكشاف حالهم ومن بروز نموذج إسلامي يبين حقيقة ما هم عليه.

وأما القول بأن الإسلاميين غير قادرين على إدارة المرحلة، فإن الزاعمين لهذه المقالة هم أول من ينكرونها، ولو كانوا مقتنعين بذلك لما أقدموا على محاربة وصول الإسلاميين إلى الحكم ولأفسحوا لهم المجال ليظهر فشلهم، لكن لعلمهم ويقينهم بأن الأمر مختلف عن مزاعمهم فإنهم لا يألون جهداً في تقويض دعائم أي توجه إسلامي.

وقد جرب المسلمون مشاريع قومية ويسارية وعلمانية أوصلت الأمة إلى هذا التخلف المزري في جميع مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتقنية وغيرها.

البيان: لكن هل ترى أن السلفيين في اليمن مناسبون لدخول العمل السياسي؟

نعم، السلفيون سيقدمون بمشيئة الله الكثير من خلال مشاركتهم في العمل السياسي، وسيتكاملون مع غيرهم من القريبين منهم؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى سيقدمون - بإذن الله - نموذجاً جديداً للسياسة الشرعية والخطاب الإسلامي الراشد الذي كاد أن يتلاشى في ظل الحملات المسعورة على المشروع الإسلامي وانهازم كثير من الناس أمام هذه الحملات.

وبالجملة، فالعمل السياسي هو جزء لا يتجزأ من مشروع الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المقرر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

البيان: هناك من ينادي بإدماج الحركة السلفية مع الإخوان في إطار واحد أو مكون مشترك باعتباركم جميعاً تياراً إسلامياً، هل أنت مع هذه الفكرة، ولماذا؟

مسألة الدمج بين الحركات أو الأحزاب الإسلامية قد تكون إلى حد كبير مثالية في ظل الاختلافات الحاصلة بين مكونات العمل الإسلامي، وفي ظل الظروف الراهنة، وقد يكون التعدد متى ما حقق المقصود وهو التعاون على البر والتقوى والتنسيق في الأمور المشتركة التي هي محل اتفاق بين الجميع، قد يكون ذلك هو الأقرب إلى الواقعية وإمكانية التطبيق، وهذا بحد ذاته متى ما تحقق سيمهد لما بعده من التقارب أكثر بين العاملين للإسلام، على أن التعدد متى ما كان برامجياً وفي حدود الوسائل أو الاختلاف المقبول سيظل باقياً ما بقي الاجتهاد في الأمة.

البيان: كيف تقرأ مجريات الحوار الوطني الذي يقام حالياً في اليمن؟

مجريات الحوار الوطني يمكن النظر إليها من زوايا مختلفة ومتعددة، فالحوار لا شك جنّب اليمنيين ويلات الدخول في صراعات مسلحة وحروب أهلية، وهذا بلا شك أمر لا يمكن التقليل من شأنه، ومن جهة ثانية أعطى نموذجاً جديداً لتلاقح الأفكار وسماع ما لدى الآخرين وسماعهم من غيرهم.

ولا ريب أن السماع من المخالفين مباشرة غير السماع عنهم؛ لأن ذلك يجعلنا نقف على حقيقة الأمور كما هي،

وكثير منهم عندما التقوا الدعاة في هذا الحوار غيروا نظرتهم، والعكس حاصل، على الأقل في بعض الجوانب التي كان فيها شيء من التضخيم أو سوء النقل أو التلفيق، فكون كل طرف يسمع من الآخر بكل تأكيد سيجعل الأمر مختلفاً عن تلقف الأقاويل بالوسائط المختلفة، على أن الخلاف قائم وله خلفياته بين المتحاورين، لكن المكاشفة المباشرة ستكون مفيدة للطرفين.

ويضاف إلى ذلك مجريات الحوار الوطني مرصودة إعلامياً وبارزة للجميع، وهي فرصة لإيصال الخطاب الشرعي المفيد والحلول الحقيقية لعامة الناس بدلاً من الاكتفاء فقط بالمشاريع القاصرة أو الضارة، فهو إذن منبر جديد من منابر الخطاب الإسلامي العام للمجتمع.

البيان: ما أبرز مخاوفكم من هذا الحوار؟

الحوار بحد ذاته ليس فيه ما يدعو للمخاوف؛ لأن القرآن الكريم والسنة النبوية مليئان بالحوارات مع الموافقين والمخالفين، والتحاو والمجادلة بالتي هي أحسن من أهم السبل لإيصال الحق إلى الخلق، والتخوف الذي كنا قد أشرنا إليه في فترات سابقة مرده إلى أن مخرجات الحوار الوطني ستتحوّل إلى مواد دستورية وعقد اجتماعي بين الحاكم والمحكوم، ومثل هذه المواد يجب أن تكون محل رضا من الشعب اليمني المسلم، ولا يمكن أن تكون كذلك ما لم يكن المتحاورون يمثلون حقيقة عموم الشعب اليمني وفي مقدمتهم علماء الشريعة الإسلامية الذين أقصوا من

المشاركة الفاعلة في الحوار الوطني، هذا مع أن تركيبة الأعضاء في الحوار الوطني لم تقم على أسس ومعايير موضوعية بقدر ما كان للبعد الخارجي تأثيره في أنماط المشاركين في الحوار الوطني بسبب دخول اليمن في أزمة خانقة بعد قيام ثورة الربيع العربي.

البيان: هناك جدل حول الشريعة الإسلامية في الحوار الوطني، ما الجديد في هذه القضية؟ وهل تم حسم الخلاف الدائر حول المادة الأولى من الدستور التي تنص على أن الشريعة هي المصدر الوحيد للتشريع؟

مسألة الجدل حول الشريعة الإسلامية في الحوار الوطني وكونها مصدراً لجميع التشريعات، ليس لها ما يبررها في الواقع؛ لأن معاناة الشعب اليمني وتعدد مشاكله كافية عن افتعال إضافات جديدة من الصراعات والوضع لا يحتمل مزيداً من المعاناة، والذين يفتعلون خصومات حول الهوية الإسلامية لا يخرجون عن صنفين من الناس:

الصنف الأول: وهم الذين لا يقدرون المسؤولية حق قدرها ولا يدركون معاناة الشعب اليمني وما فيه من اختلالات وإعاقات تستدعي الاصطفاف الشعبي لمعالجة المشكلات الحقيقية.

الصنف الثاني: وهم الذين يراهنون على خلق وإيجاد الصراعات المفتعلة لتسويق مشاريعهم التي لا تنمو إلا في أجواء الفتن والصراعات، فلذلك يحاولون زرع بذور الفتنة وإشغال

الناس عن البناء والتنمية بمثل هذه الافتعالات.

ومن جهة ثانية يريد بعض الراضين لأن تكون الشريعة الإسلامية مصدراً لجميع التشريعات، أن يسوقوا أنفسهم لدى الدوائر الخارجية لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية، والأخطر من ذلك كله أن يوجد من يسعى لسلب وصف الهوية الإسلامية عن الدولة لعزلها عن مجتمعها اليمني بقصد التحريض عليها وتآليب الناس عليها لاحقاً بغية ترويض الناس فيما بعد لمشاريع وأجندة خارجية ذات طابع عنصري وساللي أو مذهبي ومناطقى.

وبالجملة، فإن هذه المسألة لم تحسم بعد ولا يزال الحوار جارياً فيها، وأملني أن يغلب أهل اليمن ما عرفوا به من الحكمة، وينأوا بأنفسهم عن الدخول في متاهة الجدل حول المحكمات والمسلمات الشرعية، ويفوتوا الفرصة على المتربصين الذين لا يريدون لليمن أمناً ولا استقراراً.

البيان: ما الإجراءات التي يمكن أن يتخذها العلماء والسلفيون فيما إذا انصرف مسار الحوار الوطني إلى ما تحذرون منه؟

علماء اليمن لا شك أنهم يحظون باحترام كبير في أوساط المجتمع في عموم مناطق اليمن، ولا شك أن التجاهل أو التجافي عن محكمات الشريعة إذا ما تم، أو الإخلال بمصالح الوطن الكبرى؛ سيدفع العلماء لأن يقوموا بواجب النصح والبيان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومثل هذا سيكون له تأثير

كبير وخطير على مخرجات الحوار الوطني التي ستفقد شرعيتها ولن تكون محل رضا غالبية الشعب اليمني الذي لن يقبل التصريف في ثوابته ومصالحه، والمنطق السليم يقول إن إيجاد القناعة الشعبية والرضا عن المخرجات هو المحك الحقيقي لبناء الدول على أسس سليمة.

البيان: ما موقف حزب الرشاد من فتنة الحوثيين في صنعاء؟

موقفنا من قضية صنعاء في حزب الرشاد واضح تقدمنا به في فريق صنعاء في الحوار الوطني، حاصله أن ما قامت به جماعة الحوثيين من أعمال في محافظة صنعاء وما حولها من الدعوات العنصرية وحمل السلاح على المجتمع والدولة؛ أمر مرفوض شرعاً ونظاماً، وأن على الدولة أن تبسط نفوذها في جميع مناطق اليمن حتى تحول دون قيام المشاريع الطائفية الممولة من إيران وغيرها.

وأوضحنا مراراً وتكراراً أن أعمال جماعة الحوثيين وقيامها بصلاحيات السلطة المحلية في صنعاء، قد أدى إلى أن تفقد الدولة سيادتها، وستكون له انعكاساته السيئة على الأمن والاستقرار في المنطقة.

البيان: تعليق أخير على ما جرى في مصر، وهل سيؤثر على الإسلاميين في اليمن؟

بكل تأكيد ما جرى في مصر من الانقلاب العسكري ومصادرة إرادة

الشعب المصري وإعادة إنتاج النظام القمعي؛ سيكون له تأثيره على المنطقة عموماً واليمن بشكل خاص؛ نظراً لما تحظى به مصر من مكانة سياسية وثقافية وجغرافية في المنطقة، لكن ما يجري في مصر لا يلزم بالضرورة أن يستسخ تماماً في بلد آخر، ومن ذلك اليمن؛ لاختلاف الظروف والمناخات السياسية، وللخصوصيات المجتمعية اليمنية، فالعداء الصارخ للتوجهات العلمانية في مصر للمشروع الإسلامي قد لا يكون بالضرورة يحظى بنفس الحجم في اليمن، وتركيبه الجيش المصري أيضاً تختلف عن تركيبه الجيش اليمني، هذا إضافة إلى خصوصية اليمن من الناحية القبلية ودورها الكبير في مجريات العملية السياسية، وهي قوة لا يستهان بها في النسيج الاجتماعي اليمني المحافظ، وقبل ذلك كله يرى كثير من المحللين أن ما جرى في مصر من تأمر دولي على حملة المشروع الإسلامي له دوافعه الاستعمارية وحساباته الدقيقة في الموقع الإقليمي المصري المحيط والمجاور لدولة اليهود وتأثير ذلك المباشر على أمنها واستقرارها في حال نجاح التجربة الإسلامية التي تسعى خصومها لإجهاضها.

وبالجملة، فإن أخذ الدروس والعبر مما جرى في مصر أمر بالغ الأهمية، وهو دور منوط بكل مواطن صالح، وفي مقدمة ذلك أهل الحل والعقد من العلماء والدعاة والقيادات السياسية الواعية وشيوخ القبائل وبقية شرائح المجتمع.



الاستدلال الأعمى

■ د. فهد بن صالح العجلان

Fsalehajlan@gmail.com

alajlan_f

من قواعد الاستدلال المنهجي السليم: أن يكون النظر فيه شاملاً لجميع النصوص والقواعد الشرعية، فلا ينظر في بعض النصوص ويهمل بعضها، فهذه هي البذرة التي نبتت منها ظاهرة الافتراق في الدين فأنتجت الفرق والجماعات البدعية في الفكر الإسلامي، فأشكالية جميع هذه الفرق القديمة من شيعة وخوارج ومعتزلة وغيرها، أنها تأخذ ببعض الشريعة، وتستدل ببعض النصوص.

وبعض النفوس - نظراً لتعظيمها النصوص الشرعية - تتقبل أي استدلال فتجعله مقبولاً بغض النظر عن سلامته، وهذا ما جعل بعض الصحابة يحذرون من خطر الجدل بالقرآن: (فإنه من اللسن الألد من أعظم الفتن لأن القرآن مهيب جداً، فإن جادل به منافق على باطل أحاله حقاً، وصار مظنة لاتباع على تأويل ذلك المجادل)^(١).

(١) الموافقات للشاطبي ٢٨٣/٣.

سأتجاوز كثيراً من المقدمات لأصل إلى هذه النتيجة المهمة:

لا يكفي أن تستدل بأي نص شرعي ليكون قولك موافقاً للشريعة، فالعبرة ليس بوجود أي استدلال بالشريعة، بل يجب أن يكون هذا الاستدلال صحيحاً ومستقيماً وفق الأصول المنهجية الموضوعية للاستدلال.

سأضرب لهذا الخلل في الاستدلال بمثاليين
يشرحان طريقة من طرائق هذا الاختلال:

المثال الأول

في سياق حرص كثير من المعاصرين على
التعايش الإنساني بين الأديان وتقديم صورة
متسامحة عن الإسلام، يصححون سلوك أي
طريق لعبادة الله ولو لم يكن طريق الإسلام ما دام أن الشخص
موحد لله ولا يشرك به شيئاً، أو يكون غير مكذب للرسول
ﷺ، وقد يتجاوز بعضهم حتى عن هذا الشرط، ويستدلون
بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَافُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ
مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

فالشاهد من هذه الآية - بحسب فقههم - أن الله تعالى
قد حكم بفلاح ونجاة من آمن به ولو كان يهودياً أو نصرانياً،
فهو دليل - في نظرهم - في غاية الصراحة والقطعية على
أن اليهود والنصارى المعاصرين إن كانوا مؤمنين بالله فهم
مستحقون للنجاة يوم القيامة.

من يقرأ هذه الآية فقط ولا يعرف أي شيء من القرآن
ولا أي شيء من سنة رسول الله ﷺ ولا شيئاً عن سيرته ولا
إجماعات المسلمين؛ فإنه سيقول فعلاً هذه الآية تحتل هذا
المعنى، إلا أنه حين يقبل هذا المعنى فإنه سيهدم عشرات الأدلة
الشرعية الأخرى، وسيهدم الإسلام كله؛ فالقضية ليست أن
تستدل بأي دليل، بل يجب أن تعرف طبيعة استدلالك كيف
سيكون؟

فالعلماء يفسرون الآية بأنها تحتل معنيين:

الأول: أن تكون في اليهود والنصارى الذين أدرکوا بعثة
النبي ﷺ فأمنوا به.

الثاني: أو هي فيمن كان قبل بعثة النبي ﷺ ممن آمن
بالأنبياء من قبله. وحين يضيف أحد احتمالاً ثالثاً وهو أن
يكون شاملاً لكل اليهود والنصارى حتى في زماننا، فهو يهدم
الإسلام كله بهذا الاستدلال من حيث لا يشعر!

فالله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾
[آل عمران: ٨٥]، كما أن من لا يؤمن بالرسول ليس مؤمناً في
لفظ الشارع كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي
صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢]، ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ
تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ١٠]، بل إن الله قد نفى الإيمان عن

لم يحكم رسوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ
بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]، فكيف يجعل الكافر برسوله والمكذب
مؤمناً في لفظ الشارع؟! فلفظ الإيمان لا يتحقق في اليهودي
والنصراني الذي لا يتبع الإسلام، وتسميتهم مؤمنين في
مقابل الملحدين أو الوثنيين هو اصطلاح عرفي خاص ببعض
المعاصرين فلا تُقرأ نصوص الشريعة بناءً عليه.

كما أن الله في القرآن جعل الناس صنفين: إما مسلم أو
كافر: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢]، ﴿إِنْ
تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرَوْكُمْ كَمَا يَرَوْنَ كَافِرِينَ﴾
[آل عمران: ١٠٠]، ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ
فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وليس هناك في الشريعة مرتبة إيمان
ليست بإسلام ولا كفر؟ فمن لم يؤمن بالرسول فهو كافر
﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقُّ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠].

كما أن في القرآن آيات كثيرة في الأمر بالإيمان بالرسول
وطاعته واتباعه، والأمر بالإسلام والاستمسك به حتى الوفاة،
وأنه دين الأنبياء جميعاً، وفيه كفر من لم يؤمن بالقرآن أو كذب
بالرسول، وجاء فيه عموم رسالته للعالمين، وجزاء المعرضين
والمجادلين في آياته، وأن طاعته سبب لدخول الجنة، وأن
جزاء معصيته النار، والنهي عن الاستغفار والدعاء لمن كفر
بالرسول، وأن التكذيب بالرسول تكذيب بالشرائع من قبله،
وفيه آيات في كفر اليهود والنصارى، وغير هذا كثير من
الدلائل التي ستهدم بسبب قبول هذا الاحتمال الثالث!

وعلى طريقة هذا الاستدلال فيمكن أن يقرأ بعض الناس
قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزَلُّنَا الذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩]، فيقول: هذه
الآية تحتل تعدد الآلهة! ويمكن أن تستخرج من أشباهها من
الأمثلة ما لا يحصر.

هذا مثال، يستدل بآية قرآنية على معنى يتفق المسلمون
جميعاً على غلطه، بل كفره، فهو يستدل بالقرآن وقد أعمى
بصره عن النصوص الأخرى وكأنه لا يعرف شيئاً آخر!

المثال الثاني

وفي سياق المصالحة مع مفاهيم الحرية
الليبرالية الغربية يقرر كثير من المعاصرين أن
الإسلام قد كفل حرية الاعتقاد والرأي مطلقاً
إلا بشرط عدم الاعتداء والإضرار المادي، وأما ما دام في
محيط الفكر والرأي والقناعة فالشريعة تكفل له هذا الحق
ولو تجاوز قطعيات الشريعة أو اختار المجاهرة بالخروج من

الإسلام ورفض أحكامه، ويستدلون لهذا الحكم بقول الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

يقولون: هذه آية محكمة صريحة قطعية الدلالة بأن الشريعة لا تكره الناس على المجاهرة بما يروونه ديناً وفكراً لهم، وربما تحمس بعضهم، فقال أحدهم: إن في القرآن عشرات الآيات القطعية المحكمة على هذه الحرية. وزاد آخر: إن هذه الآيات محكمة لا يمكن أن يشملها نسخ ولا تخصيص لأنها من الأصول الكلية.

هذا الحكم القطعي الذي فيه عشرات الآيات - لاحظ عشرات الآيات - كان غائباً عن فقهاء الإسلام ولم يكتشفه أحد من العلماء خلال قرون طويلة، فكان الفقهاء يقررون حد الردة كما هو قول جماهير الأمة وحكي إجماعاً، وحتى ما حكي من خلاف فهو في عدم القتل مع ضرورة العقوبة والحبس والاستتابة ولم يقل أحد منهم بتاتا بحرية الردة، فعجباً كيف غابت عشرات الآيات القرآنية عن أعصار وأمصار المسلمين طيلة هذه القرون؟

طبعاً لم يرغب عنهم هذا الشيء، وهم أفقه وأعمق في دلائل الكتاب من فوضى المعاصرين، وما يميز الفقهاء المتقدمين أنهم يستحضرون النصوص جميعاً فلا يستدلون بنص بما يهدم النصوص الأخرى، فلا أحد منهم بتاتا أوجد معارضة بين قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وقول النبي ﷺ (من بدل دينه فاقتلوه)، بل كل تفسيراتهم للآية تعود إلى الكافر وليس إلى المسلم المرتد، لماذا؟ لأن جعل عموم الآية يشمل حتى المسلم يؤدي إلى هدم كليات شرعية كثيرة، فإذا قلت لا وجود لأي إكراه في الإسلام فمعناه أنه لا وجود لحدود ولا عقوبات شرعية، ولا وجود لواجبات ولا محرمات، وأن النظام الإسلامي يكفل للمنافقين شتم الرسول والتناول عليه وإعلان محادة الإسلام، فعلى هذا تخرج جيوش الإسلام لتفتح الأمصار حتى تعطي الحرية لأهل الأمصار في الطعن في الإسلام والإساءة إليه والدعوة إلى هدمه!

وكل هذا باطل بدهامة، ولا يمكن أن يقع في نفس فقيه، ولهذا لم يستطع العدد الكبير من المعاصرين الذين يقررون مثل هذا الاستدلال أن يأتوا برأي فقيه واحد فقط في أي عصر من العصور يقرر مثل كلامهم هذا، أو يستدل بالآية على مثل ما استدلوا عليه، بما يعني أن هذا الرأي، وتلك الطريقة في الاستدلال، لا علاقة له بالمنظومة الفقهية.

هذان مثالان، ولعل ثم أمثلة أخرى كثيرة قد سقطت على ذهن القارئ بعد مروره على هذين المثالين، لأنها ظاهرة شائعة في الحالة الثقافية المعاصرة: تستدل بالقرآن بما ينقض أحكامه، وتتبرع بتخريج الأفكار والاتجاهات الغربية بما يجعلها لا تخالف الشريعة!

يأتي الخلل عند هذا الاتجاه في كونه يبحث في القرآن والسنة فيستخرج منها الاحتمال الذي يراه يفهم من دلالة الآية أو الحديث، من دون استحضار للأحكام الشرعية جميعاً بما يجعله يخرج فهماً من آية تنقض أحكاماً كثيرة!

لا تقع مثل هذه الاستدلالات عند أحد من فقهاء الإسلام المتقدمين؛ لأنهم يدركون أحكام الشريعة جميعاً، فلا يمكن لأحدهم أن يستدل بحكم ينقض أحكام الشرع الأخرى، فهو يعرف بناء الشريعة المحكم، فينظر إليها كمنظومة متكاملة، كما أن المجتهد في أحكام الشريعة كان عالماً بالفقه والحديث والقرآن والتفسير ولغة العرب فما كان يستخرج الأحكام بناءً على الاحتمال العقلي المحض!

القصور في فهم الشريعة، وضعف الاطلاع الشرعي الذي يجعل الشخص غير مستحضر لمقاصدها وفروعها وتفصيلات أحكامها؛ هو الذي يجعل الشخص يتهاون في قبول كثير من الأحكام ويتأول غيرها، فكثير ممن يخوض في هذه الأحكام من المتخصصين في العلوم المختلفة، حين تقارن معرفته التخصصية ومعرفته بفقه الشريعة يتبدى لك السبب، فإن كثيراً منهم لا يتجاوز طريقة أن يعرض الفكرة الغربية ثم يقرر أن الشريعة سبقت الغربيين في هذا، أو أن هذا مما تقرره الشريعة، أو في أحسن الأحوال أن الشريعة تقبل هذا إلا باستثناء مسألة أو مسألتين، فبدلاً من أن يستحضروا تفصيلات الشريعة وأصولها ويقدمونها كمنظومة متكاملة، أصبحت وكأنها هامش على المتن الأوروبي!

هذه الاحتمالات لم ترد على أذهان فقهاء الإسلام؛ لأن استحضارهم للنصوص الشرعية يعصمهم من استحضار أي احتمال ينقض أصولها، فهم لا يفهمون النصوص بناءً على التفكير العقلي المحض الذي يستحضر كل الممكنات العقلية، كما أنهم متجردون في فهم النصوص ولا يعيشون تحت ضغط منظومة مفاهيمية معاصرة يريدون التكيف معها فتتزين لهم الاحتمالات الليبرالية من بين النصوص الشرعية!

[المسلمون .. والعالم]



■ الضربة العسكرية
المرتقبة على سورية
محمد قطب

■ الغرب والموقف من الثورة السورية
مازن أبو بكر عبد الله باحميد

■ الأزمة المصرية..
سيناريوهات المستقبل
طلعت رميح



الأزمة المصرية.. سيناريوهات المستقبل



■ طلعت رميح^(*)

@talaatromaih

تخيّم على المشهد المصري بكل مكوناته وقواه حالة من الارتباك في تحديد المواقف والمواقع. الرأي العام بات حائراً بحق بين رغبته وطلبه للاستقرار - الذي طال انتظاره - وما يعيشه وتعيشه البلاد من تقلبات متعاقبة على صعيد السلطة السياسية والأوضاع الأمنية والاقتصادية. وإذ تصور الجمهور العام أن ما شهدته مصر من عنف وقسوة وانفلات خلال مواجهات ثورة يناير قد ولى وفتح الطريق لتطور وتقدم واستقرار واحترام للديمقراطية وحقوق الإنسان؛ فقد وجد نفسه مجدداً أمام أحداث صادمة وأشد قسوة ومرارة وعنفاً ودموية على صعيد الضحايا والانفلات وتعطل دورة الاقتصاد وفقدان بوصلة المستقبل والتشويش عليهما. لقد تحول الرأي العام إلى الخوف مما يأتي به المستقبل، وهو الذي كان مستبشراً عقب إطاحة مبارك.

والرئيس والدستور وكل البناء السياسي الجديد الذي هو محور ما أنجز سياسياً وشعبياً خلال عامين ونصف من الثورة؛ أصبحت من الماضي وسط وضعية صراع جماهيري ودماء تدفع من أجل العودة. والاقتصاد الذي كان محوراً لآمال وتوقعات زادت عن الحد في مطالبها الاجتماعية؛ صار يشهد تراجعاً وحالة اضطراب متفاقمة دون أفق منظور للتحسّن، وهو أمر لم يربك الجمهور العام فقط، بل الساسة أيضاً؛ إذ هم لم يمتلكوا خطاً فعلياً لتحقيق تغيير اقتصادي، بل هم لم يدركوا حجم التحدي الاقتصادي ومرتباته الاجتماعية ما بعد الثورة. وزاد من ضبابية المشهد وعوامل الإرباك والقلق أن الصراع السياسي باتت تتصاعد خطواته بثبات نحو الأسوأ، إذ تنتشر مقولات وتخوفات عن احتمالات انزلاق البلاد نحو حرب أهلية.

والأسوأ أن القوى السياسية ليست في وضع مختلف عن الرأي العام لأوجه متعددة وأسباب مختلفة؛ فهناك أن القوى الرئيسية التي تفاهمت خلال ثورة يناير باتت في وضع الاشتباك الدموي الحاد، فالحركة الإسلامية والمؤسسة العسكرية - وهما عماد التماسك الوطني والمجتمعي والسياسي - قد انفتح الطريق للصراع المفتوح بينهما، بل صارت الحركة الإسلامية في وضعية المطاردة الساخنة على نحو لم يكن يدور بعقل أي مواطن مصري من هؤلاء الذين ذهبوا إلى صناديق الاقتراع عدة مرات ليمنحوا الأغلبية لهم في التشريع والرئاسة والدستور بنفس القدر الذي لم يتوقعه أحد من القادة السياسيين الإسلاميين خاصة..

(*) كاتب وباحث سياسي.

ويمكن تلخيص استراتيجية القوى المتضررة من ثورة يناير في أربع مراحل؛ بدأت بالمواجهة والحسم عبر قوات الشرطة، ومن بعد عبر الجماعات المسلحة غير المنظمة (البلطجية في موقعة الجمل)، فشلت، فتطورت الخطة إلى حالة "التماهي" مع الثورة وحركة الشارع برفع شعاراتها وإخراج مبارك من قمة هرم السلطة - دون فقد أي من أوراق قوتها الذاتية -، مع المحافظة على أجهزة الدولة وعناصرها، وهو ما نجحت فيه وتعمقت حتى صارت مع الوقت طرفاً مهيمناً على مشهد المرحلة الانتقالية.. وخلال المرحلة الثالثة تحوّلت تلك القوى المتضررة من الثورة إلى قوة ثورية، بل أكثر ثورية من الثوار - صناعة آباء مزيفين للثورة -، وصارت طرفاً سياسياً فاعلاً في داخلهم، بما مكّنها من اختراق قوى الثورة من داخلها وتمزيق تحالفات القوى السياسية التي صنعت الثورة ووحدتها، وهو ما جرى متزامناً مع إبطاء وتعويق تحقيق أي منجزات للثورة على الأرض.. وهكذا انتقلت إلى المرحلة الختامية التي تمثلت في صناعة وضع سياسي وجماهيري تحدث عن نفسه في ٣٠ يونيو الماضي.

قامت الخطة، وهذا النمط من إدارة الأزمة، على القيام بخطوات تراجع تكتيكية وشكلية، واغتنام الوقت في تفكيك جبهة القوى السياسية، وإنهاء حالة احتشاد الجمهور العام حول الثورة وقواها وإشعاره بالإحباط والضغط عليه معيشياً وأمنياً لجعله في موقف تمنى لو أنه لم تقم الثورة، وهو ما تصاعد على نحو حاد قبل يوم ٣٠ يونيو مباشرة. وفي مقابلها لم تكن هناك خطة استراتيجية حقيقية، كما لم تبادر قوى الثورة إلى اتخاذ خطوات أو اعتماد تكتيكات لإفشال تطور خطة خصمها، فظهرت في وضع المستسلم استراتيجياً. لقد سُرق الجمهور العام منها بينما هي تتعارك مع بعضها البعض على ما لا يعني الجمهور مباشرة. لم تدرك قوى الثورة ضرورات تشكيل نمط من الجبهات والاتفاقيات انطلاقاً من وجود خصم مشترك لها هو في الواقع أقوى من أي طرف منها منفرداً. وحين وصلت القوة الرئيسية للحكم عبر صناديق الانتخابات أفلتت يدها من العلاقة الأساسية الحاسمة مع الجمهور العام الذي لم يعد ثائراً معها حتى يكمل أهداف الثورة، إذ أجلسته في مقاعد الانتظار بتصور أن وصولها إلى هرم السلطة التنفيذية سيكون كفيلاً بإنجاز كل الأهداف. لم تجر عملية تطويرية متزامنة بين العمل من أعلى ومن خلال دور الجمهور في الشارع، بل جرت إدارة الدولة والنظام السياسي، وكانت البلاد قد استقرت عند هذا

هذا الارتباك الذي يخيم على المشهد السياسي والشعبي ليس إلا عنواناً لعدم وصول تلك الحالة المشتبكة إلى وضعية حاسمة من الأقلية والأغلبية داخل المجتمع، ولعدم حدوث تغيير حاسم في توازنات القوى يحقق فرصة حسم الصراع لمصلحة أحد الطرفين الرئيسيين المتصارعين، وهو ما يفتح الباب لصراع متطاوّل يسعى فيه كل طرف لاستخدام عوامل قوته على اختلاف طبيعتها لتحقيق انقلاب في موازين القوى وحسم النزاع.

والمعنى أن طرفي الصراع أو النزاع الجاري في مصر قد تحدّداً على نحو يصعب فيه الوصول إلى وضعية الحلول الوسط، وأن الصراع الجاري هدفه تغيير توازنات الصراع عبر اكتساب القوى والأطراف الأخرى لصف أي من الطرفين الرئيسيين، وهو ما يعني بطبيعة الحال سعي كل طرف لتحقيق هذا الهدف وفقاً لطبيعة عوامل القوة والقدرة التي يمتلكها أو التي يستمدّها من طبيعته الخاصة.

كيف وصلنا إلى هنا؟

منذ بداية ثورة يناير ٢٠١١ وتحذيرات الخبراء الاستراتيجيين متصاعدة حول هشاشة ما جرى من تغيير في السلطة السياسية والتنفيذية والمجتمع وعلى صعيد الاقتصاد والإعلام في مواجهة من تصوّر أن حسم معارك الثورات ينتهي حين الوصول إلى السلطة، وأن التغيير يمكن أن يجرى من أعلى، وأن هذا التغيير من أعلى هو تغيير آمن يدفع نحو الاستقرار... إلخ.

وقد شهدت مصر منذ قرار تخلي مبارك عن الحكم، حالة حقيقية من خطط إدارة الأزمات من قبل القوى التي جاءت ثورة يناير على حساب مصالحها، دون أن تتعامل قوى الثورة وتعبيراتها بنفس الفهم الخططي؛ إذ سيطر على حركتها منهج ارتجالي اتكالي لا يفهم أصحابه لا طبيعة عوامل قوتهم هم ولا عوامل ضعف الآخر، ولا الطبيعة الصفرية للصراع الجاري منذ الثورة، ولا الطبيعة المعقدة للصراع الجاري في مصر داخلياً وإقليمياً ودولياً، بل لم يُظهر هؤلاء إدراكاً بحجم ما سينتج عن وصولهم إلى السلطة من تغيير حاد في مصر والإقليم والعالم.. وذلك هو ما مكّن الطرف الآخر صاحب الخطة المحددة من إنفاذ خطته التي فتحت الطريق إلى الصراع الجاري حالياً بعد أن انقلبت وتغيّرت عوامل القوة والضعف لدى الطرفين المتصارعين.

المنعطف. لم تجر الاستعانة بالحركة الجماهيرية كأداة ضغط فاعلة لإحداث التغيير داخل أجهزة الدولة إمعاناً في التقدير بقوة القرار الرئاسي والتنفيذي.

انتهى الأمر لانقلاب الموازين عبر تشكيل مساحة واسعة من القوى المضادة، ممثلة في جبهة الإنقاذ التي ضمت القوى الليبرالية والقومية واليسارية وقوة أجهزة الدولة، خاصة الجيش والشرطة، التي انضم إليها قطاع من الجمهور العام الذي كان قد صوّت ضد مرسى في انتخابات الرئاسة (بمن فيهم الأقباط)، وآخر لا انتماء له تحت ضغط المشكلات المعيشية الحادة التي صُنعت بعضها صنفاً. انقلبت الموازين وجرت أحداث ٣٠ يونيو ومن بعدها بيان ٣ يوليو، لتدخل البلاد دوامة جديدة تخيم عليها الضبابية وصعوبة تحديد الجمهور غير المسيس للمواقف.

الوضع الراهن.. الدورة العكسية مجدداً!

تمسك سلطة يونيو بمواقفها ومواقفها، وتسارع الخطى لإحداث التغيير الشامل لكل ما جرى في الدولة والمجتمع بعد ثورة يناير، كما تسعى لإقامة نظام سياسي جديد الجانب الأبرز فيه هو تلك الحالة الاستثنائية للحركة الإسلامية من العمل السياسي ومن الوجود المنظم. وعلى الجانب الآخر، تجري عملية مضادة متعددة الاتجاهات، إذ تحولت الحركة الإسلامية من الحكم إلى المعارضة - ولكل لغتها وأدواتها وطريقة الحضور والدور فيها -، كما تحاول تلك الحركة إعادة تشكيل تحالفاتها مع القوى السياسية الأخرى لتشكيل جبهة واسعة لمواجهة ما يجري من سلطة يونيو. والأهم أن الحركة عادت للإمسك بأيدي الفعل الشعبي واعتماد أسلوب الضغط الشعبي المتصاعد. ويلاحظ المتابع الساعي لتقدير الموقف أن سلطة يونيو، رغم سطوة فعلها وقوته وسرعته واعتمادها الحسم الأمني والعسكري المباشر، بدأت تشهد تفككاً لعناصر مكوناتها وتحالفاتها التي سبق أن مكنتها من تشكيل مظلة أطاحت بحكم الدكتور مرسي؛ فقد تغير موقف حزب مصر القوية برئاسة د. عبد المنعم أبو الفتوح الذي تحول إلى القول بأن ما جرى في مصر هو انقلاب عسكري، كما لم يعد حزب النور في موقع المشارك، بل في موقع المتحرك بحسب كل موقف أو موقعة. أما الدكتور البرادعي، وهو الثالث والأخير في قائمة الوجود السياسي للسياسيين يوم إعلان بيان ٣ يوليو؛ فهو لم يغادر السلطة فقط - مستقيلاً من منصب نائب الرئيس المؤقت للشؤون الخارجية -، بل غادر البلاد، وأصبح ملاحقاً قضائياً بتهمة خيانة الأمانة. وهكذا

الحال لبعض من الرأي العام الذي تزلزل خلال أحداث فض اعتصامي رابعة والنهضة، وأصبح يجد نفسه أمام حالة من تكرار ذات الوعود والأهداف التي لم تتحقق منذ ثورة يناير، فضلاً عن تخوفات متنامية لدى الفئات الوسطى في المجتمع المخاطر التي تحيط بأوضاع المجتمع من جراء الصراعات الحادة التي يراها البعض أحد مؤشرات وقوع نمط من الحرب الأهلية فعلياً.

وفي المقابل يجد المتابع تطور قدرة الحركة الإسلامية على ترميم ما لحق بسمعته ومكانتها من خسائر خلال وجودها في الحكم وبسبب الدعاية الجوبلزية التي تواجهها في أجهزة الإعلام من بعد، وأنها صارت تحشد قطاعات متوسعة من الرأي العام والقوى السياسية حول موقفها الراهن.

لقد تشكل التحالف الوطني لدعم الشرعية، فلم يعد الإخوان المسلمون وحدهم من يدفع لعودة الشرعية، وفي ذلك أصبحت القوى الإسلامية محتشدة ومجتمعة مع غيرها من شخصيات ورموز وقوى وطنية وديمقراطية. كما نجحت القوى الإسلامية في حشد وجذب وتعبئة فئات مجتمعية جديدة لصالح زخم حراكها، وهي أبدت تنبهاً إلى ضرورة الاستفادة من أخطاء الطرف الآخر في الصراع؛ إذ هو اعتمد لغة الحسم وقوة الفعل - بما في ذلك إطلاق الرصاص على المتظاهرين - لفرض الحقائق سريعاً على الأرض، دون أن يسمح لأي تيار أو حزب أو جماعة في المجتمع بالاختلاف أو التعبير عن الرفض الجزئي أو الكلي لما تقرره تلك السلطة.

وتُظهر تطورات الأحداث الجارية في مصر حدوث قفزة في وعي الإسلاميين يمكن لمتابعها أن يقول إن ذلك هو أحد أهم إنجازات تجربة المرحلة منذ ٢٥ يناير ٢٠١١ حتى أحداث ٣٠ يونيو.

الأمر البارز في دلالات تطور وعي الحركة الإسلامية يتمثل في عدم الانجرار إلى دوامة العنف المضاد رغم كل هذا الضغط الجاري عليها لدفعها لولوج هذا الطريق.. هذا الأمر بالغ الأهمية؛ إذ لم تشهد مصر من قبل سقوط هذا العدد من الضحايا في تظاهرات من قبل، بما كان يتوقع معه حدوث حالة صدمة تدفع إلى ممارسة العنف المضاد. هذا الوعي وعدم الوقوع في منطلق رد الفعل هو مؤشر مهم للغاية. ويلاحظ المتابع أيضاً أن الحركة الإسلامية ظهرت متمرسية على حالة التظاهرات الواسعة في الشوارع، رغم أن ممارستها لهذا النمط من الحراك السياسي لم تجر لفترة زمنية طويلة مقارنة بالتيارات السياسية اليسارية والناصرية. وفي ذلك بدا لافتاً ومدهدشاً سرعة اكتساب

والحراك الشعبي غير مواقفه ومواقفه من مرحلة لأخرى خلال فترة قصيرة زمنية بما يربك تحركاته.

ويبدو العامل الحاسم في تقديرات وحسابات طرفي الصراع هو عامل الوقت، إذ يعتبر الطرفان أن عنصر الوقت هو أساس حسم الصراع؛ فطرف سلطة ٣٠ يونيو يسابق الزمن لإنهاء عملية التغيير بأي تضحيات وباستخدام أدوات الدولة الصلبة تحت غطاء من القصف الإعلامي العنيف.. بينما يراهن الطرف الإسلامي على إطالة الوقت لما يتبجح به من حركة تثوير وحشد الجمهور العام وحسم مواقف الأطراف المترددة أو المتذبذبة وإعادة ترتيب عوامل القوة والضعف.

وفي حدود التصورات العامة يمكن القول بأن الأزمة الداخلية المصرية تسير نحو أحد من أربعة سيناريوهات عامة. السيناريو الأول: أن تتمكّن سلطة يونيو من تثبيت أركان حكمها عبر كسر وتطويع إرادة قطاعات مهمة من الحركة الإسلامية عبر مختلف الأساليب الجارية الآن. وفي ذلك تعود القوى الإسلامية إلى مربع أقل مما كانت عليه قبل أحداث يناير، بالنظر لتساعد الدلائل والمؤشرات على حدوث تغيير في عقيدة حكم الدولة والتوجه نحو حالة من الأتاتورية.

السيناريو الثاني: أن تتمكّن القوى الإسلامية من تحريك الشارع وحشد قوى سياسية متعددة وجمهور واسع والوصول بالبلاد إلى وضعية ازدواج سلطة - معتمدة على وجود الرئيس والدستور ومجلس الشورى -، وتطوير تلك الحالة لإحداث التغيير، من خلال شل قدرة الحكم الراهن على تحقيق إنجازات على الأرض - بنفس الطريقة التي حدثت مع د. مرسي -، بما يفتح أفقاً للتغيير في داخل جهاز الدولة، أو لإحداث تغيير أشد ثورية مما جرى خلال ثورة يناير ذاتها.

السيناريو الثالث: أن لا تتمكّن السلطة من تحقيق الاستقرار ودون أن تتمكن الحركة الإسلامية من فرض التغيير، وهو ما يُدخل البلاد في مواجهة متواصلة ومفتوحة بلا سقف مع الحركة الإسلامية، وهو ما يدفع البلاد نحو حالة من الشلل التام وربما الانزلاق نحو حالة عنف متوسعة، لتدخل مصر إلى سيناريو سورية أو الجزائر، وعند البعض سيناريو الصومال وارد أيضاً (وهو في رأينا غير وارد).

السيناريو الرابع: أن تتحوّل سيناء إلى نقطة ارتكاز للمواجهة الواسعة مع الكيان الصهيوني، بما يربك المعادلات ويعيد تشكيل إحداثيات العلاقات السياسية والاجتماعية على أساس وطني، وإن بعد فترة من الوقت.

الخبرة من أحداث يناير كما ظهر الأمر في اعتصامي رابعة والنهضة - والأول بالذات -؛ إذ جرت عملية معقدة من الحفاظ على المعنويات إلى الإعداد لما هو قادم بعد فض الاعتصام إلى الإدارة السياسية المجتمعية داخل مجتمع الاعتصام... إلخ. هذا النمط من القدرة على تعايش هذا الكم من البشر وصموده في مواجهة كل تلك الدعايات الإعلامية والحرب النفسية؛ مثل طفرة في وعي الأحزاب الإسلامية التي تمكّنت من أداء كل ذلك وهي في وضع التحالف والترابط - إذ شكلت التحالف الوطني لدعم الشرعية -، وهي التي عانت طوال تاريخها من الخلاف والتشردم والتفكك.

ومن ملامح هذا الوعي: تغيير تكتيكات التظاهر والاحتجاج الضاغط، فتلك الحالة المعتمنة في رابعة والنهضة لم يجهضها فك الاعتصام ولم يصيبها بحالة انهيار لدورها وجهودها الاحتجاجية، إذ هي نجحت في التحول السريع والمباشر إلى تظاهرات متوسعة منتشرة في مواقع وميادين وشوارع شتى. ومرة ثانية، إذ وجدت تصاعداً في أعداد الضحايا في ذلك اليوم التالي لفض الاعتصام؛ طوّرت خطتها وقامت بالذهاب إلى المدن والمراكز لا إلى عواصم المحافظات، وإلى المناطق والأحياء الطرفية في المدن الكبيرة لتوسع رقعة المظاهرات ولتتفادى حالات الصدام والمواجهة أيضاً.

يمكن القول بأن الحركة الإسلامية سجلت وعياً خطيباً كان ينقصها كثيراً من قبل، وإنها أظهرت حرصاً مدققاً ومشدداً على أرواح أعضائها ومناصريهم، رغم تلك الحالة الاستشهادية التي عملت قياداتها على تسيدها والتركيز عليها ما بعد تحوّلها من سدة الحكم إلى قمة المعارضة.

غير أن جانباً من الوعي يبدو أنه لا يزال بحاجة للإجلاء فيما يتعلق بنظريات التغيير ودور الجماهير وكيفية التعامل مع أجهزة الدولة خلال مراحل الانتقال، وكلها قضايا تحتاج إلى حوار في ضوء تجربة حكم الدكتور مرسي لعام كامل.

سيناريوهات متوقعة

تبدو صعوبة الوصول بالتحليل إلى تصور سيناريوهات واضحة لتطور النزاع الجاري في مصر، ذات أبعاد متعددة؛ فهناك أن الصراع يجري بين القوتين الرئيسيتين في المجتمع، ولا تستطيع أي منهما حسم الصراع لمصلحتها، إذ إن إمكانية الحسم تتحقق فقط لمن يتمكّن من حشد وتعبئة الرأي العام والحراك الشعبي والقوى السياسية الواقعة في مسافة الصراع بين القوتين. والصعوبة بادية أيضاً من أن القوى السياسية



■ مازن أبو بكر عبد الله باحميد
mazenbahomaid@gmail.com

إلى أن السياسة الغربية تؤيد تأييداً بكل وضوح الإطاحة بنظام بشار الأسد.. لكن يبدو أن هناك مشاكل في التفاصيل هي التي أبقّت الغرب متردداً في تقديم دعم عسكري حقيقي للثورة السورية طوال عامين من عمرها. لعل عدم الوضوح في الموقف الغربي يأتي من الحساسية البالغة لمنطقة الشرق الأوسط وكثرة التناقضات السياسية والاجتماعية والأمنية في هذه المنطقة. إن مصالح الغرب في سورية تدفع بالسياسة الغربية إلى السعي لإقامة نظام علماني مسالم ويكون بعيداً عن المحور الإيراني.. وهذه معادلة من الصعب تحقيقها إزاء واقع الثورة السورية على الأرض؛ فسقوط بشار الأسد سيخرج سورية من المحور الإيراني، لكن سقوط سورية في يد المعارضة المسلحة لا يضمن للغرب إقامة نظام علماني مسالم، فالجماعات الجهادية الإسلامية حاضرة بقوة في المشهد العسكري، وهي جماعات معلوم بكل وضوح من خلال أدبياتها أنها لن تكف عن القتال،

وصلت رياح الربيع العربي إلى سورية فاندفع الشعب السوري في ثورة سلمية عارمة ضد الاستبداد القائم في البلاد، لكن هذا الاستبداد القائم أجبر الشعب على عسكرة الثورة.. ومنذ عامين والأرض السورية تشهد معارك ضارية بين الشعب والنظام.. ومنذ انطلاق الثورة السورية والموقف الغربي المعلن هو التأييد لثورة الشعب السوري ضد نظام الأسد المستبد.. لكن يعكس الموقف الغربي المؤيد للثورة الليبية الذي وصل إلى حد التدخل العسكري لإسقاط نظام القذافي؛ فقد جاء الموقف الغربي من ثورة الشعب السوري باهتاً ويثير كثيراً من علامات الاستفهام.. فبعد عامين من عمر الثورة ما زال الغرب يبحث إمكانية تزويد المعارضة السورية بالسلاح من عدمها، الأمر الذي يثير كثيراً من الشكوك والتساؤلات إزاء هذا التأييد الغربي المعلن.. لكن مع كل ذلك فإنه لا يمكننا أن ننكر أن هناك دعماً سياسياً غربياً واضحاً وملموساً للثورة السورية، وهو ما يشير

ومن خلال تجربة النظام مع الغرب في استخدامه لهذا السلاح خلال السننتين الماضيتين، فقد كان على ثقة مفرطة بأن الغرب لا ولن يهتم بأي ضرر قد يلحق الشعب السوري والمعارضة السورية من جراء استخدام هذا النوع من الأسلحة، فبادر بكل جرأة وثقة إلى استخدام الكيماوي بكثافة على مقربة من دمشق في ٢١ أغسطس الماضي كما هو معلوم فيما يعرف بمذبحة الغوطة الشرقية.. فقد أقدم النظام على هذا العمل الإجرامي في ظل وجود فريق المراقبين الدوليين في دمشق، وهو ما يعكس الثقة العالية للنظام بعدم صدور أي إدانات له إزاء استخدام الكيماوي ما دام أن استخدامه بعيد عن حلفاء الغرب في المنطقة من خلال تجاربه السابقة.

لكن الموقف الغربي بدا مختلفاً هذه المرة ومفاجئاً.. فقد قرر الرئيس الأمريكي باراك أوباما معاقبة النظام السوري على استخدامه الكيماوي ضد شعبه بضربة عسكرية قال إنها لن تؤثر على ميزان القوى بين النظام والمعارضة على الأرض. وشدد على أن الضربة قد تكون قريبة، ومن ثم تم العمل على حشد القوة العسكرية الأمريكية في شرق المتوسط استعداداً للضربة، كما جرى إبلاغ المعارضة السورية بأن الضربة وشيكة وستكون خلال أيام، في حين أعلن قادة البنتاغون جاهزية الخطط للضربة العسكرية التي أسهب المسؤولون الأمريكيون في وصفها وفي كونها ضربة تستهدف ترسانة الأسلحة الكيماوية السورية بهدف إحداث شلل في قدرات النظام على استخدام هذا السلاح مستقبلاً، وأن الضربة ستكون محدودة ومدروسة بحيث لن تؤثر على موقف النظام العسكري، في تلميح واضح لإظهار حرص الغرب على ألا تسقط سورية في يد المعارضة المسلحة في هذه المرحلة.. وكان كل ذلك بمثابة إحياء واقعية تدلل على جدية الضربة العسكرية الأمريكية.

كانت الجدية التي ظهر بها الموقف الغربي ملفتة للنظر وتستدعي الاهتمام والتعجب؛ إذ تأتي هذه التحركات بعد عامين من عزوف الغرب عن تقديم العون العسكري اللازم للمعارضة السورية خوفاً من سقوط مدوٍ للنظام في دمشق.. لأن الولايات المتحدة تدرك جيداً أن سقوطاً مديوياً للنظام في سورية سيضع حليفها إسرائيل وجهاً لوجه أمام الجماعات الجهادية الإسلامية المقاتلة في سورية.. فكان من المستغرب جدية الغرب في توجيه ضربة للنظام في هذا الظرف. لكن مع كل ذلك كان الغرب يدعم

وسيكون هدفها الثاني بعد سقوط دمشق القدس الشريف، وهذا ما يجعل الغرب متردداً في دعم الثورة عسكرياً. وقد أوضح الرئيس أوباما ذلك عندما تحدث حول تردد أمريكا في تزويد المعارضة السورية بالسلاح فقال: «القضية تكمن في كيف لنا أن ندعم معارضة قوية وقادرة على عزل المتطرفين». ولذا نرى أن الولايات المتحدة سمحت بوصول بعض الأسلحة إلى المعارضة عن طريق حلفائها بالقدر الذي يبقي هذه المعارضة على قيد الحياة بهدف استنزاف هذه المعارضة الإسلامية واستنزاف نظام الأسد وحلفائه.

إن نظام الأسد سيكون الخيار الأفضل للغرب إذا ما قورن بالجماعات الجهادية الإسلامية، فطوال أكثر من ربع قرن عرفت الجبهة السورية الإسرائيلية في الجولان هدوءاً لا مثيل له بين بلد وبلد آخر يحتل أجزاء من أرضه.. لكن الغرب يتلمس أن تكون الثورة السورية فرصة لوصول نظام علماني مسالم إلى السلطة قادر على عزل من يسميهم المتطرفين، ويكون أداة لانتزاع سورية من المحور الإيراني، وهذا ما يعمل عليه الغرب دائماً.

من أهم العوامل التي تلقى اهتماماً غريباً كبيراً في المشهد السوري، هو ترسانة الأسلحة الكيماوية السورية.. فقد استحوذ هذا السلاح الاستراتيجي على اهتمام غربي كبير منذ اندلاع الثورة.. فالغرب يعلن صراحة خوفه من وقوع هذا السلاح بيد من يسميهم المتطرفين من الجماعات الإسلامية المقاتلة في سورية، فالسلاح الكيماوي هو السلاح القادر على تحقيق فعل استراتيجي عسكري يتجاوز الحدود السورية، وهو الفعل الذي سيجد الغرب نفسه مرغماً على الانحناء ولو قليلاً لتفادي أخطاره.. فمتى ما قرر طرف ما استخدام هذا السلاح ضد إسرائيل، فسيكون ذلك مشكلة حقيقية كبيرة تعجز منظومات الأسلحة الغربية المتطورة عن تقادي أضرارها السياسية والنفسية حتى قبل الاستخدام الفعلي لهذا السلاح.. وفي هذا تهديد حقيقي يستدعي الانتباه؛ ولذا كان التركيز الغربي منصباً منذ بدايات الثورة على هذا السلاح؛ فمنذ بواكير الثورة السورية أعلن الرئيس الأمريكي أن استخدام هذا السلاح هو خط أحمر.. والحق الذي لا جدال فيه أن ما يقصده الرئيس الأمريكي هو استخدام السلاح الكيماوي ضد حلفاء أمريكا، وفي مقدمتهم إسرائيل.. ولذا فقد استخدم النظام السلاح الكيماوي مراراً وتكراراً ضد المعارضة والشعب السوري ولم يرَ الغرب في ذلك تجاوزاً لأي خط أحمر.

مصطنعاً لإعطاء مزيد من الوقت وتوجيه دفعة الأحداث نحو الهدف المرسوم للسياسة الغربية.

وبناء على ما سبق ذكره فإنه من الواضح أن الغرب لا ينوي إسقاط النظام في هذه المرحلة، لا عن طريق ضربة عسكرية ولا عن طريق دعم المعارضة المسلحة بما تحتاج إليه من سلاح.. وإنه من المؤكد جداً ومن خلال استقراء الواقع أن الحسابات الغربية تقتضي أنه في حال إقدام الغرب على تنفيذ ضربة عسكرية للنظام قد تؤدي إلى إسقاطه، فإنه من الضروري أن تتسع أهداف هذه الضربة لتشمل ضرب كثير من الجماعات الإسلامية الجهادية المقاتلة في سورية، والتي يرى الغرب فيها خطراً كبيراً على مصالحه الحيوية في المنطقة وأمنه القومي.

لا ألوم الغرب على مواقفه هذه، فالمصالح الغربية تحتم عليه هذه المواقف، والغرب يسعى وراء مصالحه دائماً؛ لكن اللوم كل اللوم على الحكومات العربية التي تتصادم مصالحها مع إيران.. ففي حين تدعم إيران من غير تردد أو خجل ومن دون أي حدود نظام الأسد بكل ما يحتاج إليه، نرى دول الخليج التي يقع التهديد الإيراني الأكبر عليها، وهي الدول القادرة على الدعم المالي؛ نراها تحجم وتتردد كثيراً في مدّ المعارضة السورية بما تحتاج إليه من سلاح للإجهاد على نظام الأسد الذي يعتبر امتداداً للمشروع الإيراني في المنطقة.

المعارضة السورية لا تحتاج إلى ١٢ ملياراً لتحقيق النصر على بشار - بإذن الله - بل تحتاج إلى أقل من ذلك بكثير، فمع تردد الجميع في دعم هذه المعارضة بالسلاح إلا ما كان دعماً محدوداً، مع كل ذلك استطاعت هذه المعارضة أن تحقق نتائج مذهلة في مواجهاتها مع هذا النظام الذي يتلقى أحدث ما تنتجه المصانع الروسية والإيرانية من أسلحة.. فكيف إذا دُعمت هذه المعارضة بالسلاح اللازم؟

وأما ما يتعلق بالسياسة الغربية، فإنه من المرجح أن يستمر الغرب في سياسته القائمة في سورية، وهي العمل على استنزاف المعارضة والنظام لإجبارهما على التوافق على حل سياسي يضمن وجود نظام علماني مسالم تشارك فيه الطائفة النصيرية بعيداً عن المحور الإيراني.. ويجب أن نفهم جيداً أنه من بالغ الغباء والجهل التعويل على الموقف الغربي في تمكين الإسلاميين من الوصول إلى الحكم في سورية.

المؤسف في كل ما يجري هو ما يتعرض له الشعب السوري من الويلات، فنسأل الله أن يعجل بفرجه على إخواننا في الشام وفي كل بلاد الإسلام.

تحركاته بخطوات قوية فيها من الواقعية السياسية والعسكرية لإعطاء انطباع عن جدية التحركات بهدف إحداث ضغط حقيقي على النظام في سورية فيما يتعلق بالأسلحة الكيماوية.. ثم تتابعت التطورات الملفتة للنظر في الموقف الغربي، حيث أبدت بعض من الدول الغربية ترددها في الضربة، وأعلنت أخرى عدم مشاركتها فيها لعدم تسلمها طلباً للمشاركة.. وكان أكبر التطورات التي استدعت انتباه المراقبين ظهور الرئيس الأمريكي في موقف المتردد حين ربط تنفيذ الضربة بموافقة الكونغرس، مسقطاً بذلك حقاً دستورياً يخوله تنفيذ هذا الإجراء العسكري من دون الرجوع إلى الكونغرس.. ثم في تطور ملفت آخر أشار وزير الخارجية الأمريكي جون كيري إلى أن نظام الأسد يستطيع تجنب الضربة العسكرية بالكامل إذا هو تخلى عما لديه من أسلحة كيماوية، وذلك بتسليمها للأسرة الدولية.. واتضح لاحقاً أن هذا التصريح وإن بدا هامشياً في أول الأمر، إلا أنه يختزل في شيايه كامل الموقف الغربي من القضية برمتها.. ففي هذه الأثناء كانت السياسة الأمريكية تعمل من خلف الكواليس على توجيه الدبلوماسية الروسية للضغط على دمشق لقبول تسليم أسلحتها الكيماوية مقابل تجنب الضربة.. وهذا ما صرح به وزير الخارجية الروسي لافروف لاحقاً.. وتتسارع الأحداث، فبعد يوم من تصريح الوزير الأمريكي تم الإعلان في موسكو عن قبول دمشق وضع أسلحتها الكيماوية تحت المراقبة الدولية وكأنها خطوة أولى في طريق التخلص من هذه الأسلحة. ولقيت هذه الخطوة تأييداً كبيراً في الغرب الذي شرع في إعداد تصورات في كيفية تنفيذ هذه الخطوة بما يضمن فعلياً تحييد أثر الأسلحة الكيماوية السورية من الواقع العسكري في منطقة الشرق الأوسط كلل.

قراءة سريعة لهذه الأحداث تدل على أن الغرب كان يحاول انتهاز مجزرة الغوطة للضغط على النظام كي يجبره على التخلص من ترسانته الكيماوية، وهي الخطر الأكبر على الغرب وحلفائه في المنطقة، حيث تعد هذه الأسلحة ثقلًا استراتيجياً قوياً في المشهد السوري، فقد كانت العامل الأساسي في تعديل ميزان القوى بين سورية وإسرائيل.. وزوال هذه الترسانة من الأسلحة الكيماوية السورية سيعطي التفوق العسكري الإسرائيلي بُعداً جديداً مستقبلاً في منطقة الشرق الأوسط.. فضلاً عن أن زوال الأسلحة الكيماوية وخروجها من المشهد السوري سيجعل هذا المشهد أقل خطورة، وسيتيح للغرب مرونة أكبر في التعامل مع الأزمة السورية بكافة الخيارات. وتدلل الأحداث على أن التردد الذي ظهر به قادة الغرب ليس حقيقياً، بل كان تردداً

جوال السيان

للاشتراك
ارسل رسالة فارغة

٨٨٠٠٤



٦٣٦٣٩٣



٧٠٤٠٤٧



رسائلنا تحكي أهدافنا



الضربة العسكرية المرتقبة على سورية

محمد قطب

@kotobmohamad

على مخازن الأسلحة الكيميائية، نشر بطاريات الصواريخ على الحدود التركية والفلسطينية مع سورية، تحركات حثيثة لقوات بشار ونقلها أعداداً من السجناء إلى مراكز عسكرية قابلة لأن تشملها الضربة ونقلها المعدات العسكرية إلى المناطق السكنية والمدارس، وجود ٥ سفن حربية و٢ غواصات متطورة أمريكية في البحر المتوسط وبعض السفن وغواصة فرنسية كذلك، ثم لحاق سفينتين روسيتين بكل هذه التجهيزات... وغير ذلك. وحيث إن التجهيزات العسكرية للضربة تناقش علناً وتفاصيل يفترض أن تبقى طي الكتمان، وهو أمر مريب، فقد لحق بتلك السفن سفينة برمائية أمريكية قادرة على نقل مئات من جنود البحرية إلى الداخل.

ويأتي هذا الحراك بعد قرابة عامين ونصف من المذابح التي ترتكب بحق الشعب السوري من قبل عصابات الأسد النصيرية وأعاونهم من صفويي إيران ولبنان والعراق التكفيريين وبمساعدة أطراف إقليمية ودولية مختلفة. والسؤال الذي يطرح نفسه هو ذاك المتعلق بتوقيت الضربة، لماذا الآن؟ وما الذي تغير؟ وكل هذا

كل الأنظار تتجه اليوم إلى الضربة العسكرية المرتقبة على سورية، التي تقودها الولايات المتحدة وفرنسا، بعد الانسحاب البريطاني منها. ولا شك أن سير الحملة تباطأ كثيراً بعد رفض مجلس العموم البريطاني لها وقرار الرئيس باراك أوباما انتظار التصويت عليها في الكونجرس قبل التنفيذ، والذي قد يرفض الضربة ويضع أوباما في موقف حرج للغاية. ومع قرار أوباما المفاجئ هذا، صرّحت بعض المصادر المطلعة أن السبب الرئيس لهذا التحول يعود إلى قناعته الشخصية بأن بوتين قادر على إجبار بشار الأسد على التنحي في ظل التصعيد العسكري الحالي، إضافة إلى القيام بمزيد من التشاور والحشد في قمة مجموعة العشرين G٢٠. ومع كل ذلك، فإن الدلائل ما زالت تشير إلى أن الضربة قادمة، من ذلك: تصريح أوباما ووزير خارجيته كيري أن الرئيس له صلاحية السير قدماً بالهجوم حتى من دون إذن الكونجرس، استعدادات الجيران تركيا والأردن والصهاينة لهجوم كيميائي محتمل وذلك من خلال توزيع الأقنعة ووجود مئات الخبراء هناك، تأهب قوات خاصة في الأردن للسيطرة

٤ أن أي هجوم لا يكون قاضياً عليه سيُقوِّيه أكثر لأنه سيستغل الإعلام لتصوير الضربة على أنها ضربة إمبريالية صليبية، كما فعل القذافي وأنصاره في ثورة ٢٠١١، وأيضاً سيصور الانسحاب الأمريكي على أنه نصرٌ له.

٥ أن التدخل لا يمكن أن يكون جزئياً، وحالما تدخل أمريكا عسكرياً فلن يكون بمقدورها الانسحاب بتلك السهولة.

ولئن أردنا تحليل أهداف الضربة، فلقد أراحنا الإدارة الأمريكية من عناء ذلك وبيَّنت علناً أن إسقاط بشار ليس هو المقصود. وعندها يبقى احتمالان آخران: إضعافه أو إنقاذه. لو سلّمنا أن الضربة العسكرية ستضعفه من خلال استهداف بعض مواقع تركز دفاعاته الجوية ومنصات الصواريخ ومراكز القيادة والسيطرة، وربما كذلك بعض مواقع الأسلحة الكيماوية، وإن كان مستبعداً؛ لنا أن نتساءل: أي إضعاف هذا الذي لن يستغرق إلا أياماً معدودة وحملة الناتو على ليبيا استغرقت ٧ أشهر؟ وبحسب قيادات عسكرية أمريكية فإن الدفاعات الجوية السورية أقوى بخمسة أضعاف من تلك التي كانت في ليبيا، وإن كان ثمة فروق بين حالة التدخل في ليبيا والتدخل الحالي في سورية.

أما إنقاذ بشار الأسد، فذلك لا يعني إنقاذه من ورطته وإبقائه، فذلك ضرب من المستحيل، وأمريكا وحلفاؤها يدركون ذلك. إذن إنقاذه سيكون من خلال إيقاف المد العسكري الجهادي الذي سيحكم الخناق عليه عاجلاً أو آجلاً، ثم إقناعه بالتنازل عن السلطة والجلوس مع المعارضة بهدف إحراز تسوية سياسية تنهي الأزمة وتستتقي أجزاءً كبيرةً من نظامه الفاسد. وهذا الحل السياسي هو ما أشارت إليه مجلة فورين أفيرز، التي رأت أن الحل الأمثل هو الضربة السريعة التي تدفع النظام إلى طاولة المفاوضات. لكن ما لم تذكره هو موقف الثورة الراض للفاوض مع الأسد وقَتَلته بأي حال من الأحوال.

ومع قوة خطاب أوباما ووزير خارجيته من قبله والإصرار على تنفيذ هذه الضربة، إلا أن الرجلين لم يُخفيا كذلك حقيقة الحل الذي يروونه وهو الحل السياسي من خلال المفاوضات. ولعل هذا من الدروس القاسية التي تعلمتها الولايات المتحدة من كارثتي أفغانستان والعراق، وهي أن العمل العسكري غير المصحوب بمشروع سياسي بديل يورث الفوضى ونتائج عكسية ولا يصنع استقراراً.

وإذا صدقت الأخبار عن حدوث اتصالات سرية بين وكالة الاستخبارات المركزية CIA وضباط في جيش الأسد لحثهم على الانشقاق والقيام بانقلاب عسكري؛ فذلك يشير إلى أن

بسبب الضربة الكيماوية؟ والجواب الأول نعم، إن الأمر متعلق بالكيماوي من عدة جهات، كلها غير مرتبطة بالناحية الإنسانية. السبب الرئيس هو الخط الأحمر الذي تمنى أوباما أنه لم يحذر به، لأنه بمجرد ما أطلق ذلك التهديد وتجاوزته بشار الأسد فليس لدى أوباما خيار إلا الوفاء بتحذيره. وهذا ليس من باب صدق القول، وإنما من باب ما يسمى الحفاظ على قوة «الردع» في الدراسات الاستراتيجية؛ فعدم الوفاء بعهد كهذا يجسّر الأعداء ويظهر الولايات المتحدة في مظهر الضعف والتردد في القرار. ويتأكد هذا في ظل سعي النظام الأسدي ومؤيديه لبرهنة قدرتهم على زعزعة الاستقرار في المنطقة، وهو ما يُفهم من الحدتَيْن اللذين تلياً الكيماوي، وهما: إطلاق صواريخ غراد من جنوب لبنان على شمال فلسطين المحتلة في اليوم التالي، وتفجير طرابلس في اليوم الذي بعده. الأمر الآخر بالنسبة للتوقيت هو أن استعمال الأسلحة الكيماوية يخلق الصهاينة، خاصة في بلدٍ مجاورٍ لهم، فهم لا يودّون رؤية استعمال تلك الأسلحة على تلك المقربة من حدودهم، وإن استعملت ضد من يعتبرونهم أعداءً، فهم يخافون من وجود تلك الأسلحة في منطقة يسود فيها الفوضى، خشية أن تقع تلك الأسلحة في يد أعدائهم أو يد من قد يهاجمهم يأساً أو ترويحاً لكذبة المقاومة والممانعة. بالنسبة لطبيعة الضربة ومداهما، فقد صرحت الإدارة الأمريكية أنها ضربة سريعة وقصيرة المدى، وهذا ما تشير إليه الدلائل؛ فالهدف المعلن ليس إسقاط النظام وأمريكا لا تريد التورط في سورية على المدى البعيد. هذا وقد كرر أوباما رفضه إرسال جنود على الأرض. إذن يبقى السؤال المهم عن جدوى هكذا ضربة. وبعد النظر في مختلف تحليلات المراكز الكبرى للدراسات السياسية والاستراتيجية والمجلات المعنية بذلك، مثل: بروكنجز وستراتفور وفورين بوليسي وفورين أفيرز وغيرها؛ من الواضح أن هناك شبه إجماع على عدم جدوى الضربة السريعة والقصيرة التي تتوي واشنطن توجيهاها، وذلك لأسباب، منها:

١ أن هكذا ضربة ربما تضعف النظام قليلاً لكنها لن تحدث تغييراً في توازن القوى على الأرض. أقول: وهذا مقصود لذاته.

٢ يبدو أن القيادة العسكرية لم تدرج أيّاً من الأهداف الخطيرة التي سلمتها لها رئاسة هيئة الأركان السورية الحرة.

٣ أن الضربة الخفيفة لبعض قدرات النظام العسكرية ربما تستفز إيران وروسيا فيعضوه بمال وسلح يفوق تأثير الضربة عليه.

إذن يمكن تلخيص أهداف الضربة العسكرية في

النقاط التالية:

- ١ الحفاظ على ماء الوجه بعد جعل استخدام الأسلحة الكيماوية خطأ أحمر.
- ٢ منع المقاتلين من تحقيق النصر على النظام الأسدي.
- ٣ التسريع في تسوية سياسية تحت أعين الدول المشاركة بالضربة وحسب شروطهم.
- ٤ السيطرة على الأسلحة الكيماوية حفاظاً على أمن الصهاينة.
- ٥ استهداف المقاتلين الإسلاميين الذين تصنفهم القوى الدولية بـ «الإرهابيين».

ومن المفهوم أن أنصار الثورة السورية في الداخل والخارج على مختلف مشاربهم، مجاهدين ونشطاء وعلماء وسياسيين؛ منقسمون في تأييد هذه الضربة من عدمه. وهذا الانقسام طبيعي في فتن تجعل الحليم حيران وخيارات أحلاها مر. لكن لا ينبغي الوقوف عند ذلك؛ لأن معارضة الضربة غالباً لن تجدي شيئاً في ظرفنا هذا، فواشنطن لا تلقي بالألماعضة أحد إذا استيقنت أن مصلحتها تكمن في فعلها هذا. وهذا ما حدا بها الآن لتجاوز الأمم المتحدة والمجتمع الدولي لتجهز «ائتلاف الراغبين» الذي سيشاركها في الهجوم. وهذا ما فعلته في العراق في ٢٠٠٣، ولم تنته حينها المظاهرات العالمية المعبّرة عن الرفض العالمي لتلك الحرب الظالمة. إذن، بغض النظر عن رأينا في الضربة وتأييدنا لها من عدمه، الأفضل هو العمل على استغلال الضربة لتحقيق أكبر قدر من المكاسب التي تصب في مصلحة ثورتنا، وذلك سيكون من خلال استعداد المجاهدين التام للانقضاض على مختلف مراكز القوة للنظام مستغلين معنويات الجنود المنهارة والهلع المسيطر عليهم من قرب موعد الضربة. وإذا صدقت الأخبار عن هروب بعض عائلات آل مخلوف وشاليش وغيرهما من أعتى مناصري النظام إلى لبنان، إضافة إلى ما ثبت من انشقاقات في صفوف الضباط منذ الإعلان عن الضربة؛ فذلك دليل على فاعلية الحرب الإعلامية التي نستطيع شنّها عليهم من خلال قنوات الإعلام ووسائل الاتصال الاجتماعي. والمطلوب اليوم العمل على رصّ الصفوف والتأليف بين الكتائب المجاهدة على أرض الوطن، والاعتصام بحبل الله جميعاً. والمطلوب كذلك التسلح بيقين أن النصر من عند الله وأن الكون بيده يقدر فيه ما يشاء، ثم علينا الإدراك أن الحسم العسكري لن يكون إلا بأيدينا نحن، وعلينا التأكيد والتذكير بأسس الثورة وما خرجنا وقدمنا مئات آلاف الشهداء والجرحى من أجله، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

القوى الدولية بشكل عام والإدارة الأمريكية بشكل خاص لديها «سياسي» سوري محتمل للالتفاف على ثورتنا وتبريقها من مضمونها، وضمن مصالح الدول التي أتت به. لكن حيث إن الشعب السوري أثبت وعيه ويُعد نظره السياسي عبر العامين المنصرمين بالنسبة للمحاولات الدولية لشراء المعارضة وتحييدها عن أهداف الثورة؛ فإن الالتفاف على ثورته لن يكون أمراً سهلاً. ولئن كانت نية إضعاف بشار موجودة فعلاً، فذلك لا ينطبق فقط عليه، وإنما كذلك على المجاهدين، خاصة من تعتبرهم أمريكا «إرهابيين». وقد بذلوا جهوداً مضيئة للتعرف عليهم لاستهدافهم بطائرات دون طيار. بل في أحد اجتماعات المخابرات الأمريكية في الأردن فاجؤوا أحد القادة العسكريين المعارضين بطلبهم التصدي لـ «جبهة النصر» حتى قبل مقاتلة الأسد؛ وحيث إن استخدام طائرات دون طيار لضرب «جبهة النصر» وغيرهم ممن تستهدفهم أمريكا سيكون ضرباً من الحماقة والسخافة التكتيكية؛ فالمرجح أنهم سيستعينون ببعض العملاء لذلك أثناء الضربة، وبـ «السياسي» القادم و«الصحات» التي سينشئها لضرب المقاتلين ببعض على المستوى البعيد.

ولا شك عند متابعٍ منصفٍ أن إطاحة المجاهدين بعصابة الأسد كابوس مقلق للغرب، سواءً كانوا من الجيش الحر أو ممن يسميهم الغرب «الجهاديين»؛ فكلهم مُدرجون تحت مظلة «الإسلاميين السنة» الذين قد يصلون إلى الحكم في سورية، وبالتالي يقلبون الموازين. ولئن كان الكلام على هذا الأمر محرماً في الإعلام الغربي في بدايات الثورة، إلا أنه الآن يملأ صحفهم وتحليلاتهم دون خجل أو مواربة. وممن تكلم عن حاجة الغرب للتدخل في سورية وفي غاية الوضوح رئيس الوزراء البريطاني الأسبق توني بلير، الذي علّل التدخل بالقضاء على «التشدد» ومنع سورية من أن تصبح ملاذاً للمتشددين أخطر بكثير من أفغانستان في التسعينيات!

لقد أدرك الشعب السوري منذ بدايات الثورة أن الغرب ليس له مصلحة في انتصار الثورة ووقف المجازر سريعاً، وإنما يريد إطالة أمد الصراع؛ إضعافاً للجهتين، وحفاظاً على مصالحه وأمن الصهاينة. وأدرك حينها الحراك الثوري أن الغرب سيتدخل فعلاً لكن في الوقت الذي يراه مناسباً ويحقق تلك المصالح. ومنذ ذلك الحين والشعب السوري على يقين بألا ناصر له إلا الله، ثم تضحيات المخلصين من المجاهدين والداعمين والسياسيين والناشطين.

سلسلة

رحلة بلوغ

د. إيهاب عويص

متوفرة في مكتبة التدمرية
فرع الرياض - بريدة

ملحمة روائية جمع فيها المؤلف عناصر
التشويق والإثارة والحقيقة العلمية



التوزيع والنشر

الرياض: - هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨

تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس:

٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات:

٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ - ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢

٠٥٠٦٤٦١٠٦٥ - ٠٥٠٣٨٩٦٦٦٥

مكة وجدة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠

المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩

منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦



دار رواية للنشر

لندن

104 Queensway

London W2 2RR

UK

E-Mail: info@rewayah.net

www.rewayah.net





عمرو عبد البديع(*)
amro@albayan.co.uk

مرصد الأخبار

الجيش الفلبيني «يحاصر المجاهدين» في مدينة زامبوانغا

حاصر جنود فلبينيون عدداً من المجاهدين المسلحين كانوا قد اجتاحوا مدينة زامبوانغا جنوبي البلاد، ما أجبر الآلاف على الفرار من المدينة. وقال الجيش إن نحو ٥٠ مسلحاً سقطوا قتلى، فيما اعتقلت السلطات ما يربو على ٤٠ آخرين؛ خلال حصار دام أسبوعاً دفع المدينة إلى حالة من الشلل التام.

(بي بي سي: ٢٠١٣/٩/١٥)

نائب رئيس الوزراء البريطاني يدافع عن حق ارتداء النقاب في المدارس

وجه نيك كليغ، نائب رئيس الوزراء البريطاني، انتقادات حادة للتصريحات التي أطلقها وزير الداخلية البريطانية، جيريمي براون، بشأن إجراء نقاش وطني حول تدخل الحكومة لحظر ارتداء النقاب في المدارس والأماكن العامة.

وقال كليغ في تصريح له: «أرى أنه لا يجب أن ينتهي بنا المطاف مثل دول أخرى أصدرت قوانين برلمانية حول ما يمكن أن يرتديه الناس. وبريطانيا دولة تتمتع بالحريات، حيث يتمتع الجميع بحرية ارتداء ما يرونه مناسباً».

وأضاف كليغ: «قد يكون من غير الملائم بالنسبة للطلاب ارتداء النقاب في الفصول المدرسية، لكن هذا لا يعني أنه يتعين على الحكومة التدخل وفرض قيود على ما يمكن أن يرتديه الناس».

(مفكرة الإسلام: ٢٠١٣/٩/١٧)

وضع حجر الأساس لبناء أول مسجد للمسلمين في سلوفينيا

وضعت رئيسة حكومة سلوفينيا حجر الأساس لأول مسجد في سلوفينيا، وذلك في العاصمة ليوبليانا، بعد ٤٤ عاماً على تقديم أول طلب لبناء مسجد.

وقالت المسؤولة السلوفينية خلال الاحتفال بوضع حجر الأساس: «إنه انتصار رمزي على كل أشكال التعصب الديني»، مضيفاً أن أوروبا ما كانت لتكون بهذا الغنى الثقافي من دون الإسلام. وينتهي البناء في خريف ٢٠١٦. ويضم المسجد أيضاً مركزاً ثقافياً ومكتبة وقاعات دراسية. وتبلغ كلفته ١٢ مليون يورو ستدفع دولة قطر ٧٠٪ منها.

وتبلغ مساحة العقار الذي سيبنى عليه المسجد نحو ١١ ألف متر مربع، وسيبلغ ارتفاع بنائه ١٢ متراً، في حين أن ارتفاع المئذنة سيكون ٤٠ متراً.

(الإسلاميون: ٢٠١٣/٩/١٤)

مقتل ٤ أطفال في سيناء على يد الجيش المصري

قام الجيش المصري في سيناء بقتل ٤ أطفال وسيدتين خلال عملياته في قرية «اللفيات» جنوب الشيخ زويد بشمال سيناء.

(محيط: ٢٠١٣/٩/١٤)

(*) نرحب بمقترحاتكم البناءة في باب مرصد الأحداث على بريد الكاتب.



تفريعات

عبد العزيز الطريفي @abdulaziztarefe

إذا ربط بين الحاكم والعالم حبلٌ من المال ارتخت حبال الحق والعدل.

أحمد الصويان @Asowayan

رصاصه طائشة أطلقت في غير مسارها شحنت الأفغان بالحروب، ثم كان الفشل وذهاب الريح! فهل يدرك أهل الشام أن أول الخسار أن يتوجه سلاحهم إلى إخوانهم!؟

ياسر الزعاترة @YZaatreh

هذا الإذلال الذي يتعرض له فلسطينيو قطاع غزة (على معبر رفح) من قبل أمن السيسي وجيشه؛ عازٌ عليه، وعلى من يقفون في صفه من الداخل والخارج.

إبراهيم السكران @iosakran

لا نريد (الديمقراطية الغربية) ولا (الاستبداد الكسروي)، لسنا أرقاء.. لسنا عبيداً.. لنا حق الاختيار.. نفوسنا مشحونة وجدانياً بنموذج (الخلافة الراشدة).

د. محمد يسري إبراهيم @DrMohamadYousri

تقديم أهل سيناء كقرايين ولاءً لليهود لن يغني عنهم في الدنيا ولا في الآخرة شيئاً. وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت. وسيعلمن نبأه ولو بعد حين.

محمد المختار الشنقيطي @mshinqiti

لا يوجد أسوأ من السلطة المدنية الضعيفة سوى السلطة العسكرية القوية؛ لأنها تبع الناس وهم الاستقرار المؤقت مقابل التنازل عن الحرية الدائمة.

محمد عبدالله الوهبي @mohammadalwh

يفتخر أسامة كمال، وزير البترول المصري الأسبق، بتوقف محطة كهرباء غزة، ويعتبر ذلك إنجازاً للجيش المصري!.. هنيئاً للصهانية هذه الخدمة!

أكد «عمر الشنيطي» - الخبير الاقتصادي - أن «العجز المتوقع في موازنة العام المالي للحكومة المصرية ٢٠١٣/٢٠١٤ نحو ١٩٥ مليار جنيه، إضافة إلى الحاجة لسداد نحو ١١٥ مليار جنيه كديون مستحقة، ما يجعل الحكومة بحاجة لاقتراض نحو ٣١٠ مليارات جنيه خلال العام المالي الحالي». و«التقديرات تشير إلى أن عجز الموازنة الحقيقي قد يصل إلى نحو ٢٥٠ مليار جنيه، ما يعني حاجة الحكومة لاقتراض نحو ٣٥٠ مليار جنيه في العام المالي الحالي، ولو اعتبرنا أن المرحلة الانتقالية ستطول لسنة ونصف حتى نهاية ٢٠١٤، فإن الحكومة ستحتاج لاقتراض نحو ٥٠٠ مليار جنيه داخلياً وخارجياً لسد العجز وسداد الديون المستحقة».

(بوابة الحرية والعدالة: ٢٠١٣/٩/١٤)

خلص تقرير الثروة العالمية الذي يصدره سنوياً بنك UBS السويسري، إلى أن دول الخليج وإسرائيل شهدت أكبر تزايد لرجال الأعمال فائقي الثراء عام ٢٠١٢. وأوضح أن ثروة أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة في دول السعودية والإمارات والكويت وقطر وإسرائيل تزايدت بمقدار ٢٥ في المائة.

وقدر التقرير بنحو ٢٨٥ مليار دولار ثروات أغنياء السعودية التي باتت الآن تضم ما لا يقل عن ١٣٦٠ من أصحاب الثروات الفائقة، أي بزيادة ١٧ في المائة مقارنة بالعام السابق.

لكن السعودية تحتل المركز الأول من حيث عدد فائقي الثروة على مستوى منطقة الشرق الأوسط، التي باتت تضم ٥٢٠٠ مليونير بلغ مجموع ثرواتهم ٨٨٠ مليار دولار.

(سي إن إن: ٢٠١٣/٩/١٦)

تراجعت نسبة الأمية في الأراضي الفلسطينية من ٩, ١٣٪ عام ١٩٩٧ إلى ١٪ عام ٢٠١٢.

(المركز الفلسطيني للإحصاء: ٢٠١٣/٩/١٣)

اليهود والتوتر بين غزة ومصر

■ د. عدنان أبو عامر(*)

adnanaa74@hotmail.com

@adnanabuamer1



لا تكاد «إسرائيل» تصدق ما تراه بأمر العين من حراك للجيش المصري على الحدود الجنوبية لقطاع غزة بعد أن تواترت الأنباء عن أن ما تقوم به الآليات العسكرية المصرية ليس فقط هدم الأنفاق وإغلاق طرق التهريب، كما صرح عدد من المسؤولين المصريين، وهو ما يقع برءاً وسلاماً على صنّاع القرار في تل أبيب.

منطقة مكشوفة

كما تواصلت هاتفياً مع بعض سكان المنطقة الحدودية المصرية مع غزة، وأكدوا أنهم تلقوا من الجيش بلاغات بضرورة إخلاء منازلهم، ودمر ١٣ منزلاً في حي «الصرصورية» بعد اكتشاف فوهات أنفاق بداخلها، وشرعت جرافات عسكرية بإزالة الأشجار الكثيفة المنتشرة على الحدود في رفح.

ورغم أن المنطقة العازلة سيتم إقامتها داخل حدود مصر، لكن أحد كبار العاملين بمجال الأنفاق في غزة قال إنها ستشكل كابوساً لقطاع التهريب، سواء الأسلحة أو البضائع؛ لأن الحدود المصرية - الفلسطينية بعد إقامة المنطقة العازلة ستشبه الحدود المصرية الإسرائيلية قرب مدينة إيلات، والحدود الفلسطينية الإسرائيلية شرق غزة.

وأضاف: ستكون منطقة جرداء مكشوفة للجيش المصري دون عناء أو استعانة بأقمار صناعية وأجهزة متطورة، بل

بل إن حجم قلق الفلسطينيين، وعلى رأسهم حركة حماس، ازداد بصورة متسارعة في الأيام الأخيرة بعد ورود أنباء عن نوايا مصرية بإقامة منطقة أمنية عازلة على الحدود المشتركة، ورغم شح المعلومات حول هذا الموضوع، لكن ما توافر من معطيات يشير إلى أن الجيش المصري سيقوم بمنطقة عازلة على طول الحدود مع غزة بعرض ٥٠٠ متر، لمنع التهريب والسيطرة على الأنفاق.

وقد قام كاتب هذه السطور بجولة ميدانية على الحدود المصرية - الفلسطينية، وشاهد إزالة الجيش المصري كل ما يتواجد في المنطقة القريبة على الحدود مع غزة بمسافة ٢٥٠-٣٠٠ متر، كي تتحرك قواته على الحدود براحة أكبر، ويمكن بسهولة مراقبة التحركات العسكرية، وسماع دوي الانفجارات التي يقوم بها لتفجير المنازل التي يشتبه بوجود أنفاق أسفل منها.

(*) كاتب فلسطيني.

ولئن كان رد الفعل الرسمي الصادر عن حماس «ناعماً دبلوماسياً»، فإن مصدراً مطلعاً في الحركة قال إن المنطقة العازلة تفتح صفحة جديدة من التوتر مع السلطات المصرية، سواء لما تشكله من أضرار اقتصادية معيشية على سكان القطاع، أو ما سيسفر عنها من تضيق الخناق على القوى المسلحة للتزود بالعتاد المطلوب الذي كان يمر عبر الأنفاق.

وأضاف: المفارقة التي نعيشها اليوم أن حماس تحدثت مع مصر إبان حقبة الرئيس المعزول محمد مرسي عن إقامة منطقة تجارية حرة على الحدود المشتركة، وتمت مناقشتها بينهما، وتحديدتها على الأرض من الناحية التقصيلية، من أجل التبادل التجاري بين غزة ومصر، وإنهاء تجارة الأنفاق التي تدخل على مصر سنوياً قرابة مليار دولار، كما تقول المصادر الاقتصادية.

أما على الصعيد الميداني، فقد نظم الجهاز العسكري لحماس، كتائب القسام، عرضاً عسكرياً للعشرات من مسلحيه في مدينة رفح على الحدود مع مصر، أثناء ركوبهم سيارات دفع رباعي، بتاريخ ٢٢/٨/٢٠١٢، وقد أثار ذلك ردود فعل متباينة تصعيدهم للعلاقة مع الحركة، واتهامها بأحداث مسلحة داخل سيناء، وأدت الحركة على نفيها دائماً.

فيما أعلنت جماعة السلفية الجهادية و«جيش الإسلام» في غزة، إقامة «خيمة دعوية» كبرى بمدينة رفح الحدودية مع مصر، رغم أن علاقتها بحماس ليست على ما يرام في الآونة الأخيرة، فيما أعلنت «كتائب المقاومة الإسلامية»، وهي تشكيل عسكري جديد ظهر لأول مرة في نوفمبر ٢٠١٢ وله توجهات سلفية؛ أنها ستضرب تل أبيب إذا قام الجيش المصري باقتحام غزة، وأي قذيفة مدفعية تطلق على غزة من الحدود المصرية ستقوم بردها على إسرائيل.

ومع ذلك، فإن الأجواء السائدة في حماس لا تذهب باتجاه تصعيد الموقف مع مصر، سواء سياسياً أو عسكرياً، بل إن هناك آراء تدفع نحو التهدئة معها، وعدم إفساح المجال لأي سلوك ميداني قد يزيد من حدة الموقف صعوبة على غزة.

أخيراً.. فإن الحديث السائد في قطاع غزة اليوم بعد قرار مصر إقامة المنطقة العازلة على حدود غزة، وصل إلى حد التكهن بإمكانية نشوب مواجهة مسلحة بين الجانبين، للدرجة التي دفعت وكالة «الرأي» الرسمية التابعة لحكومة حماس، إلى عنونة أحد تقاريرها بالقول: هل يهاجم الجيش المصري قطاع غزة؟

يكفي نشر عدة أبراج عسكرية على طول المنطقة كما تفعل إسرائيل، بما يعني القضاء على إمكانية تزويد غزة باحتياجاتها الأساسية.

وقد علمت من مصادر مطلعة داخل سيناء بخروج مسيرات حاشدة للمصريين من سكان المنطقة الحدودية بمحيط دوار «سلامة» بمنطقة الصرصورية ومحيط ميدان الجندي المجهول القريبين من الحدود في اليومين الأخيرين، وقاموا بإشعال عدد كبير من إطارات السيارات تعبيراً عن رفضهم للقرار.

وتحدث الصحفيون عن أن الجيش المصري أرسل تعزيزات عسكرية من آليات ومدركات لمحيط المناطق الحدودية التي تشهد تظاهرات، وحلقت مروحيات عسكرية شرق معبر رفح. بل إن الخبير العسكري المصري اللواء طلعت مسلم توقع أن تشهد سيناء الفترة القادمة عمليات مسلحة من قبل بعض أهاليها ممن يستخدمون الأنفاق في تجارتهم، بعد تدمير قوات الجيش منازلهم.

على صعيد رد فعل حماس، فإن قنوات تواصلها مع مصر شبيهة منقطعة في جميع الاتجاهات، وقد علمت بقرار المنطقة العازلة من وكالات الأنباء، ما جعل الخبر يقع عليها كالصاعقة المدوية، ليشكل مفاجأة غير سارة، وحاولت بدقة متناهية صياغة رد فعل أولي حذر.

واقترع رد فعل حماس الرسمي على القرار المصري، على الناطق باسم حكومتها في غزة، إيهاب الغصين، الذي قال إن المناطق العازلة لا تكون بين الإخوة وحدود الدول الشقيقة؛ لأن غزة هي خط الدفاع الأول عن مصر، متمنياً ألا تكرر هذه الخطوة الحصار على غزة، وتفاقم معاناة أهلها.

واعتبر مشير المصري، عضو المجلس التشريعي عن حماس، المنطقة العازلة استكمالاً للجدار الفولاذي الذي أقامه الرئيس المخلوع «مبارك»، وامتداداً لجدار الفصل العنصري في الضفة الغربية الذي أقامه رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق «أريئيل شارون»!

تهدئة الميدان

فيما نفى د. يوسف رزقة، المستشار السياسي لرئيس حكومة حماس في غزة إسماعيل هنية، وجود أي حالة عداء بين غزة ومصر تبرر إقامة المنطقة العازلة، نافياً وجود أي أسباب أمنية وعسكرية لإنشائها، معتبراً أن إسرائيل هي الطرف الوحيد السعيد من هذا القرار.



أصعب من ضربة سيف

■ بسام الطعان

bassamtaan@yahoo.com

وتتحسّر، وتصبر، صبرت وانتظرت وشاخ انتظارها، أحياناً كانت الأيام تمر بلمح البصر، وأحياناً تبدو مثل الدهور المجحفة، وكانت كلما تشد وطأة الوحدة عليها تجلس مع العتمة، تصادق الدموع، وتساءل عن سر عدم مجيئه إليها، فتهزمها الأجوبة ويرهقها التفسير وتفسير التفسير.

اقتربت من بيتها الطيني، فتملكتها دهشة لا تزول، لأنها لم تجد السيارة، أمام الباب، دخلت بخطوات سريعة، بحثت عنه في أرجاء البيت، نادته بصوت أوله حنين وآخره حنين، لكنها لم تجد له أثراً، "أين ذهب يا ترى؟" تساءلت في داخلها واستعدت لتنظيف وترتيب البيت الذي تحجرت أشياؤه ولم تتبدل مواقعها منذ سنوات.

بدأت عملها بسرعة ونشاط كما لو أن سرعتها هذه ستسرع في مجيئه، حملت لحافه الذي طال حنينه إلى الماء والصابون: "إيه.. يا نور عيني.. لحافك ما زال كما هو، غبت كثيراً وما أنت تعود

فكل شيء يهون من أجل عينيه. سبع سنوات مرت لم ترّ خلالها عباساً سوى مرة واحدة، كان ذلك منذ أربع سنوات عندما جاء ليخبرها بأنه قد تخرّج من كلية الحقوق، وأنه سيعيش في العاصمة، حينئذ رجته بحرارة أن يظل إلى جانبها أو ترافقه، لكنه رفض بشدة وتذرع بحجج واهية.

منذ ذلك اليوم وهي تحيا على أمل أن يعود، لكنه غاب دون رسالة أو سؤال يتيم حتى رسمت سنين الانتظار الخرائط على وجهها الخمسيني. كانت تراقب الطريق المؤدية إلى المدينة كلما غسلت لقاء أجر زهيد بسط ووصوف أهل القرية في النهر المسافر دائماً، كم حسدت هذا النهر، وكم تمت أن تسافر مثله؛ لأن ألف شوق يشدها إلى الغائب، رجت القلب مرة أن ينسأه وما استطاع.

أبدأ لم تتعب من ترقب عودته، وكلما جاء أحد من المدينة تسأله بلهفة عن الغائب دون سبب، فتتأسف

سنوات طويلة وأيامها تفسدها الكتابة بإطلالتها البشعة.. سنوات وهي تنام على الحنين وتصحو عليه، لكنها لم تتقن التعب في يوم من الأيام، وحين جاءها الخبر الذي انتظرتة طويلاً وهي تغسل البساط الصوفي في النهر، أطلقت شهقة وكادت تقع في الماء، غير أنها تشبّثت بصخرة كبيرة وسألت:

- بالله عليك يا ولدي، ما تقوله صحيح؟.. أين هو؟

- نعم يا خالة، رأيته بأعين عيني، كان في سيارة حكومية ومعه شرطي.

ولأن لا شيء يشبه الفرح الذي تلبسها، لا في حدود ولا في المطلق، دمعت عينها أكثر من المعتاد، ظلت واقفة للحظات، أرسلت دموعها رسائل شوق لوجهه، ثم أسلمت قدميها للريح ومن خلفها تتساقط قطرات الماء من ثوبها، سارت بقوة الحب واندفاع الشوق، واتجهت إلى بيتها تسبقها لهفتها، في الطريق تذكرت أنها لم تخرج البساط من النهر، لكنها لم تهتم بذلك،

لتزيّن هذا البيت بوجهك من جديد". نظفت فراشه والشوق والفرح يتحاوران في مخيلتها، مضت إلى البئر، أحضرت الماء، رشت به أرض الدار، ثم دخلت إلى غرفتها، توجهت نحو صندوق ملابسها، الصندوق الذي ظل مقللاً منذ غيبته، فتحت بصعوبة، نفضت عنه التراب، أخرجت فستانها القديم الجديد، لكنها تركته جانباً وتوجهت إلى المطبخ بعد أن ذبحت الدجاجة الوحيدة التي تملكها، أعدت الطعام، ثم ارتدت فستانها وجلست بانتظاره.

يا.. كم مرة حملت أثقال الهموم؟ كم مرة نطقت باسمه في أزقة القرية وحواريها؟ كم مرة بكت وسقطت دموعها في النهر، وبع صوتها من الحنين، ونسيت بعض الصوف في الماء، وجرحت أصبعها وهي تقطف الحشائش في البرية، أو تعد الطعام؟

كانت تضمه بخيالها إلى صدرها، تعاتبه حيناً، وحيناً تقبله بحنان عجيب، لم تعرف كم من الوقت مر عندما استفاقت من تخيلاتهما على صوت جارتهما وهي تطل برأسها من فوق الحائط:

- ألم يأت ولدك بعد يا (نوفة)؟
- لا، ولا أعرف أين ذهب. قالتها بحسرة واضحة.
- يقول زوجي إن عباساً موجود في المخفر.

- مخفر!! ماذا يفعل ولدي في المخفر؟
- لا تخافسي، زوجي يقول إنه قد أصبح رجلاً مهماً في العاصمة، لكن لماذا لم يأت إليك حتى الآن؟
لمعت عينها بالفرح وشردت للحظات:

- ألم تقولي إنه أصبح رجلاً مهماً؟
فلا بد أن لديه أعمالاً يقضيها مع رئيس

المخفر.. على كل حال لا بد أنه سيأتي بعد قليل.

وراحت ترسم لوجهه الذي طالما سهرت الليالي وطيفه يتراءى لها، صوراً عديدة؛ صورته مرة مديراً، ومرة ضابطاً، ومرة قاضياً، ومرة وزيراً.

انسدل الليل على جسد النهار، ونشر عتمة تشبه عتمة زلزلة، فاشتد قلقها، فكرت بالذهاب إلى المخفر، لكنها سرعان ما غيرت رأيها: "لا يجوز أن أذهب وراءه، صحيح أنني في شوق كبير إليه، لكن ذهابي قد يسبب له الإحراج".

لم تستطع الانتظار أكثر من ذلك، فاتجهت نحو بيت جارتهما وقالت لابنها:
- اذهب إلى المخفر وقل لولدي إن أمك بانتظارك.

- رأيته؟.. قلت له إن أمك تريدك؟ سألته بلهفة عندما عاد وهو يلهث.
- نعم، قال: "عندي شغل" ولا أستطيع الحضور الآن.

شعرت بأن عشرة سيوف انغرزت دفعة واحدة في صدرها، لكنها حاولت أن تكون كشجر السنديان الذي يبكي الفؤوس قبل أن يسقط، جلست في مكانها، جادت عينها بدمعة واحدة فتاهت بين خطوط ووديان وجهها إلى أن وصلت إلى شفرتها العليا، فحركت لسانها وهي تتذوق طعم الملح الذي أصبح مألوفاً لديها.

دون أن تنطق بحرف عادت إلى بيتها، وفي الطريق شعرت بأنها لن تراه أبداً، لكنها طردت هذا الشعور بعدما لعنت الشيطان، جلست على بساط رث بقلب منكسر، فمن دونه لا راحة ولا فرح لها، ولا دفء يستطيع أن يعيش في فراشها، ولا خبز أو ماء يحيا على مائدتها، وضعت كفها على خدها وانتظرت، وبغثة رفعت رأسها نحو السماء، تمتمت في همس، وأطلقت نداءاتها الجريحة.

شيئاً فشيئاً همدت الأصوات في القرية، ولم يعد يسمع سوى نباح الكلاب من بعيد، أسندت رأسها على المذبة، لكنها لم تغمض عينها، وإنما راحت تنتظر نحو الباب وتنتصت، تعبت عينها من التحديق، هاجمها الوسن جماعات وفرادى، غير أنها لم تسمح له بالتغلب عليها، نهضت والحزن يخيم فوق سفوح صمتها، تطلعت نحو الخارج، فشاهدت حمام ذاكرتها يطير إليه: "ها هو الفجر قد أقبل ولم يأت.. سأذهب إليه الآن". فتحت الباب، أغلقته، أسندت رأسها عليه: "لأي سبب أذهب إليه؟.. يبدو أنه نسي أن له أمماً أرضعته حليباً وليس ماءً عكراً". عادت إلى مكانها وسافرت إلى الماضي البعيد، رأت فيه زوجها الذي رحل ولم يترك لها غير ابن تعدّبت كثيراً من أجله، كانت تتخب بصمت مريّر عندما سمعت جارتهما وهي تتاديا كعادتها من فوق الحائط، فنهضت دفعة واحدة، قالت واللهفة لا تزال بادية على وجهها:

- هل جاء ولدي؟
- لا. قالتها وهي تهز رأسها، ثم أضافت بشيء من الغضب:

- ابنك غادر القرية يا (نوفة)!
تجمّدت في مكانها وهي لا تعرف أي حزن غاص في صدرها، شعرت بجراحها تتوزع في كامل جسدها، وبضباب كثيف يغطي سماء أمانها، لكنها استطاعت أن تقول بصوت خائف مرتجف خجول:

- متى ذهب؟
- قبل قليل.. اصعدي على السطح فسترين سيارته تغادر القرية.

لم تصدق ما سمعت، الملمت بعضها وصعدت السلم بكل ما فيها من بقايا قوة، ثم راحت تنتظر إلى جهة الطريق دون كلام، دون حركة، دون صوت.



سقوط

الليبرالية!



■ محمد وفيق زين العابدين*

w-afik@hotmail.com

لست هنا بصدد بيان مفهوم الليبرالية أو تحديد أطرها الأيديولوجية بقدر ما سأعنى بتقييم واقعها الفعلي في مصر فيما بعد ثورة يناير ثم فيما بعد الانقلاب العسكري؛ لأن الأمر لا يستحق الإيغال في هذه الجدالات اللغوية العقيمة إذا كان الواقع قد فرض نفسه على نحو معين يستحق التأمل والدراسة والنقد والكشف عن الأوهام المؤسسة لهذا الواقع.

فقد انطلق الليبراليون في مصر بعد انتصار ثورة يناير من مبادئ وتصورات تقوم على عدة مضامين، أهمها: حماية حريات المواطنين بجميع أشكالها العقديّة والاجتماعية والجنسية، كفاءة العدل الاجتماعي القائم على توزيع الثروة توزيعاً عادلاً، تمكين الكفاءات العلمية والعملية من المناصب، واحترام القانون وأحكام القضاء.

انطلقوا يوصلون لهذه المبادئ والتصورات في مناظراتهم ومحاضراتهم ومقالاتهم في الصحافة والإعلام على نطاق واسع لم يكن يُسمح لهم بالتمدد فيه ولا في شبر منه على مدار تاريخ الدولة المصرية، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك حين اعتبروا ناقدتهم ومخالفتهم أعداء التحرر ودعاة الاستبداد، مناهضي العدل ودعاة الظلم والجور ومنتهكي القانون.

حقاً استطاع الليبراليون تسويق رؤيتهم وخداع جموع الشعب المصري بالمثل العليا التي ما برحوا يروجون لها ويزينونها للناس ويدافعون عنها، زاعمين أن الليبرالية هي الأفق النظري والفلسفي الذي طالما نزعّت البشرية نحوه والذي لا يوجد بديل عنه في أي نظام ديمقراطي، وقد حدث هذا بمساعدة عاملين:

الأول: الآلة الإعلامية التي ساعدتهم على الترويج لأفكارهم وتعظيم رموزهم مع النيل من مخالفهم والتشجيع عليهم بالشائعات وتعظيم الأخطاء.

الثاني: النظام الحاكم نفسه الذي كان مارس الليبرالية معهم، فحررهم من كل قيد، وأطلق لهم عنان الحركة والمعارضة بكل الوسائل مهما كانت خستها ودناءتها ومهما انطوت استهزاء وسخرية ومخالفة للقانون، بل سعى جاهداً للتعاون معهم وهم الذين دأبوا على التخريب والتأليب.

حتى وقع ما خططوا له مع أصحاب المصالح من الفاسدين والمنحرفين أتباع النظام القديم "الفلول"، فحدث الانقلاب العسكري ووقع المحذور، وقتل المصريون مصريين آخرين بأبشع الوسائل وأدوات القتل بلا أدنى رحمة، وتلوث الأيدي بالدماء الكثيرة حتى أصبح من العسير حصر أعداد الضحايا وأعداد الأسر التي فقدت إما أباً لها أو أمّاً أو ابناً أو ابنةً.

ورغم ما لحق بالإسلاميين من خسائر في الأرواح والأموال والحقوق والحريات ومكتسبات ثورة يناير، إلا أن خسائر الليبرالية كانت أعظم وأفدح؛ فقد سقطت الليبرالية كليةً، وكان سقوطها سقوطاً مخزياً، فقد انكشفت مبادئها المضطربة، وانكشفت تصوراتها الخاطئة، وأيديولوجيتها المعيبة المشوهة.. عشرات

وأصبح وجودهم الفعلي محض وجود نفعي استغلالي يقربهم كثيراً جداً من الفاسدين والمنحرفين "الفلول".

أكثر منظمات المجتمع المدني ومنظمات حقوق الإنسان المزعومة التي كانت تقوم أنشطتها على أساس ليبرالي فيما تزعم: تبين أنها لا تعمل لصالح الشعب والمجتمع المدني، بل تعمل لحساب أجناس داخلية وخارجية بعينها، وليس لها أي علاقة بحريات المواطنين وبحقوق الإنسان إلا فيما يخدم مصالحها فحسب.

فشل النظام الليبرالي أو العلماني بصفة عامة في إقامة الديمقراطية، بل في مواجهة كل التحديات الحضارية التي واجهتها منذ ثورة يناير، وقد تأكد للجميع أن الديمقراطية - عند الليبراليين - ما هي إلا محض وسيلة يستخدمونها لخداع الشعوب للسيطرة على الحكم ومقالييد الأمور، حتى إذا جاءت بخسارتهم انقلبوا عليها وتمردوا؛ لأن الليبرالية السياسية في الحقيقة نظام ديكتاتوري إقصائي متعنّت غير قابل على التعايش مع الإسلاميين ولو كان الدين مطلباً شعبياً للجماهير، فإبعاد الدين والإسلاميين عن الحكم شرط أساسي لقبول الديمقراطية، بل الأمر أسوأ من ذلك، إذ لا يمكن القبول بالمعارضة الإسلامية ومشاركتها في العملية السياسية إلا بقبول الأخيرة "روشتة" الليبرالية السياسية ورضوخها لها تماماً، أي أن تكون مجرد معارضة شكلية لاستكمال الشكل الديمقراطي المزعوم.

وفي التاريخ شواهد كثيرة على ما ذكرت، فلم تكن مصر الدولة الوحيدة التي عانت الاضطهاد الديكتاتوري العلماني، بل سبقتها تركيا والجزائر، والحركة الإسلامية في تونس قديماً.

وعلى النقيض من ذلك فقد أكدت الحركة الإسلامية في خطها العريض أن لديها رؤية شاملة وقدرة فعلية على احتواء الآخر وقبول معارضة سياسية حقيقية.

هذه بعض مظاهر سقوط الليبرالية والعلمانية المصرية، وهي في ذات الوقت أهم فوائد الإسلاميين من الانقلاب العسكري، وهي غيضة من فيض وقليل من كثير، وإذا صدق ظني فإن الجنوح العلماني الديكتاتوري الدموي الذي اجتاحت مصر سيكون ذا تأثير كبير على هزيمة العلمانية العالمية في الجولة الثانية من معركتها مع الإسلام، بعدما نالت المادية منها ما نالت في الجولة الأولى من المعركة، حتى قال بعض الباحثين الغربيين بحتمية سقوطها.

الأخطاء وعشرات الانحرافات الخطيرة في شتى ممارساتها ومساحات عملها ونشاطها فيما بعد الانقلاب العسكري، لا في الحياة السياسية فحسب، بل تجاه الإنسان ومعالجة وجوده، وتجاه مصيره وصياغة هذا المصير بما ينسجم وإنسانيته وأدميته.

يمكننا أن نبرز أهم مظاهر سقوط الليبرالية في مصر في النقاط التالية:

- تبين للعالم والشعوب المحايدة الفرق بين حكم الإسلاميين الذين يجتهدون في رعاية الحريات وصيانتها ويحترمون الآراء المخالفة ويسعون جاهدين لاحتوائها، والحكم الليبرالي المزعوم الذي ينتهك الحقوق ويهدر الحريات ويقمع الآراء المخالفة بالقتل والاعتقال وتلفيق الاتهامات، بل لا يجد أي غضاضة أو حرج في تبرير ممارسته القمعية غير الأدمية.

- تبين أن الليبراليين لا يجدون أي غضاضة أو حرج في التعاون مع أصحاب المصالح من الفاسدين والمنحرفين وظيفياً "الفلول" والاستعانة بهم في الحكم على جميع المستويات الوظيفية، بما لا يمكن معه بحال من الأحوال تحقيق العدل الاجتماعي المزعوم، إذ لا سبيل للعدل الاجتماعي القائم على توزيع الثروة توزيعاً عادلاً إلا بمكافحة الفساد والحد منه وتقليل فرص انتشاره.

وقد بدت أعظم مظاهر الزيجة بين الليبرالية وأصحاب المصالح في المجال الإعلامي الذي يسيطر عليه من الناحية المادية أصحاب المصالح من أتباع النظام القديم "الفلول"، بينما يُديره ويسيطر عليه من الناحية الفكرية بعض الإعلاميين الليبراليين الذين لم يجدوا أي غضاضة في استخدام الكذب والشائعات وشتى الوسائل الخسيسة والذميمة لترويج فكرهم والنيل من مخالفهم وتحويل الإنجازات إلى انتكاسات وتعظيم أخطائهم بل وتبرير قتلهم وانتهاك حقوقهم.

وقد تبين بما لا يدع مجالاً للشك أنه لا يوجد أبداً ما يسمى الإعلام المحايد، بل هو موجه دائماً وأبداً كسلاح للتأثير على الناس، وهو السلاح الأهم في المعركة الفكرية بين الإسلام والليبرالية.

انكشفت الازدواجية الخطيرة للزعامة الليبرالية، حيث تبين أن الذين يبلغون أعلى المناصب منهم غارقون - في الوقت ذاته - لأبعد حد في أدنى وأحط المستويات اللاأخلاقية واللاإنسانية، ومن ثم فقد انقطعت الصلات العملية بين وجودهم الفعلي والتغيير الذي لطالما دعوا إليه،



التلاعب بالعقول (*)

دور الإعلام في الثورة المضادة



■ سمير حمدي (**)

shamidi09@gmail.com

في الأفراد والجماعات وتزيّف وعيهم وسلوكهم.. لقد تحولت الصورة إلى سلطة حقيقية من يملكها يصبح السيد الحقيقي، أو كما يقول ريجيس دوبراي «فإن سيد الصورة هو سيد البلاد».. ومثلما كان للصورة التي روّجها الإعلام البديل (الإنترنت) دور مركزي في خلخلة منظومات استبدادية والإطاحة بها أحياناً، فقد لعبت أدوات الاتصال الجماهيري دوراً مركزياً في خدمة القوى الاجتماعية والمالية المهيمنة من أجل إعادة السيطرة على العقول واستعادة السيطرة على البلد في لحظة مواتية، وهو أمر يمكن أن نلاحظه من خلال الدور الذي لعبته أجهزة الإعلام في التهيئة للانقلاب المصري، أو في إثارة الاضطراب في تونس، وقبلها كان لها دور مماثل في التحريض على الانتفاضات والثورات.

تاريخياً ومنذ ظهور التلفزيون أدرك أصحاب السلطان والنفوذ أهميته ودوره بوصفه وسيطاً قادراً على الإقناع والإيهام والخداع، وتكمن قوته في أنه يسبب الرأي ويقولبه

لا أحد ينكر الدور الذي لعبه الإعلام في التقلبات السياسية التي شهدتها المنطقة العربية وما زالت، وربما كانت منظومات التواصل الجماهيري (تلفزيون، وإنترنت) الأكثر تأثيراً في صناعة الرأي العام وتغيير المزاج الجماهيري وقولبته على النحو الذي يسعى إليه مستخدمو هذه الأجهزة، أو بصورة أدق المسيطرون عليها ومالكوها.. لقد أصبحت الشاشة أداة مركزية تتجاوز كونها وسيلة اتصال أو تواصل أو تختزل في مجرد قنوات تقدم برامج للتسلية والتثقيف لتصبح أدوات للضبط والتحكم السياسي والاجتماعي تؤثر

(*) «التلاعب بالعقول» عنوان كتاب صدر عن طريق سلسلة عالم المعرفة عدد ٢٤٢ التي تصدر من الكويت، وهو ترجمة لكتاب (Mind Managers) من تأليف هيربرت شيلر، ونشر عام ١٩٧٢م. يتكلم الكتاب عن التضييل الإعلامي والوعي الملب وصناعة المعرفة في الولايات المتحدة الأمريكية وكيف يتم التحكم في الرأي العام. يعتقد شيلر أن صناعة التلاعب بالعقول تتم عن طريق خمس أساطير جرى ترويجها بعناية وذكاء، حتى باتت تلك الأساطير تشكل الإطار التضييلي الذي يوهم عقولنا بادعاء الحقيقة، وتمثل هذه الأساطير التي تسيطر على الساحة الإعلامية بوصفها حقائق في (الفردية والاختيار الشخصي، الحياد، الطبيعة الإنسانية الثابتة، غياب الصراع الاجتماعي، والتعددية الإعلامية) (مجلة البيلاب).

(**) باحث في الفكر السياسي - تونس.

إلى مصدر لنفوذ بعض الدول وسطوتها (مثل الجزيرة التي حوّلت قطر إلى فاعل مؤثر في المشهد الإقليمي والدولي، أو ما تعبته قناة العربية في الترويج لرؤى أنظمة شمولية تتناسق موافقها مع الرؤية الأمريكية إلى حد التطابق).

لقد تفتن أصحاب المصالح ممن تضرر من الثورات العربية الحاصلة، إلى أهمية الصورة وسلطة الشاشات، فالأزمة المعاصرة هي زمن حكم الصورة أو سلطة الشاشة، ومن هنا كانت الحملات المنظمة للتهيئة للإطاحة بالأوضاع الناشئة إثر التحولات السياسية الجزئية في بعض الدول العربية؛ تعتمد القنوات التلفزيونية أداة لتزييف الوعي وقولبة العقول، فهناك نسبة مهمة من الأفراد ممن

لا يقرؤون الصحف أولئك الذين وهبوا أنفسهم جسداً وروحاً للتلفزيون كمصدر وحيد للمعلومات؛ كانوا هم الهدف المركزي لعملية إعادة تشكيل الوعي، وكما يقول بيار بورديو «إن التلفزيون يمارس نوعاً من العنف الرمزي، وهو عنف يمارس بتواطؤ ضمني من قبل هؤلاء الذين يخضعون له وأولئك الذين يمارسونه بالقدر الذي يكون فيه أولئك كما هؤلاء غير واعين بممارسة هذا العنف أو الخضوع له».

ويمكن في هذا المجال إيراد جملة من النماذج للتلاعب الإعلامي الذي تعرض له المتلقي في دول الثورات العربية، وتخصيصاً مصر وتونس، (بوصفهما النموذج الأولي للتحولات الطارئة):

• سعت القنوات التلفزيونية في إطار حربها على الأوضاع الجديدة (حكم مرسي في مصر والترويكا في تونس)؛ إلى دفع الأمور نحو إضفاء طابع الدراما بمعنى مزدوج، حيث تضع في المشهد واقعة أو حدثاً ثم تقوم بالمبالغة في أهميتها وفي صفاتها الدرامية (حادثة حمادة المسحول كما تناولها الإعلام المصري من أجل شيطنة نظام حكم مرسي، حيث تحول الشخص موضوع الحدث إلى صورة إعلامية متكررة تحمل مواصفات الحدث الدرامي الذي يستفز وجدان المتلقي ويثير خيالاته في العودة إلى زمن الاستبداد، وهو ذات ما عمدت إليه قناة التونسية مثلاً في حديثها عن الظاهرة السلفية والترويج لخرافات إعلامية من قبيل إمارة سجنان

حسب صياغة خاصة، وهو ما جعل الأنظمة الشمولية تحرص على السيطرة على هذه الأجهزة، غير أن الثورة التقنية الحديثة جعلت من إمكانية السيطرة على الدفق الإعلامي المتواصل أمراً مستحيلاً، وهو الأمر الذي دفع القوى المنتفذة إلى وضع استراتيجيات جديدة للسيطرة والتلاعب بالعقول وإبقائها تحت حالة من التلقي السلبي والخضوع للتوجيه بحسب مصالح وإرادة أصحاب النفوذ والسيطرة.

دور الإعلام في الثورة والثورة المضادة

يؤكد ريجيس دوبراى أننا نعيش عصر الشاشة، حيث أصبحت الصورة متداولة، فضلاً عن اكتسابها سمة جديدة هي الحركة باختراع التلفزيون والحاسوب والأقمار الصناعية، وأصبح تأثيرها أعمق وأشد؛ فهي تفرض إيماناً مطلقاً بحقيقة خطابها، فقد تحولت الصورة إلى كيان مرجعي قائم الذات يستمد قيمته من ذاته ولا يحيل إلى شيء آخر، فلا أحد ينكر مثلاً الدور الذي لعبته صور ضحايا الاستبداد في التحريض على الثورة ضد

الأنظمة (صورة البوعزيزي وهو يحترق بنار الاحتجاج على المظلمة، أو صورة خالد سعيد الذي تحمّل آثار التعذيب المعبر عن طغيان السلطة ووحشيتها).. وأثناء الثورة كان للفيديو دوره المركزي في نشر الصور والفيديوهات التي تنقل معاناة جماهير الناس وتتابع تحركاتهم في الشارع، إضافة إلى الدور المركزي الذي لعبته قناة مثل الجزيرة في تغطية التحركات الشعبية والصدمات الدموية في الشوارع أثناء الثورات، وهو ما أفضى في النهاية إلى سقوط بعض الحكام بشكل أو بآخر. إن الصورة خلافاً للكلمة لا تتطلب مجهوداً كبيراً في التلقي، فالصورة جذابة وساحرة ورسالتها متضمنة فيها، وهو ما حولها إلى أداة تعبئة وتحفيز؛ إما على الموت (فيديوهات القاعدة التي تروج لبطولات منتسبيها)، وهي المحرض الأكبر أيضاً على الثورة (دور وسائل التواصل الجماهيري في الثورات العربية المجتزة)؛ أو على الاستهلاك والمتعة (الإشهار) أو الأداة الكبرى للتخدير في كل بقاع العالم، بل تحولت بعض الشاشات



(مدينة تونسية)، حيث تم تصوير الأمر على أنه يشكل لحظة فارقة في دخول البلاد التونسية زمن الفوضى والإرهاب).

• استخدام السخرية من النظام الناشئ، ورغم أن البرامج الساخرة ليست أمراً جديداً في الدول الديمقراطية العريقة، غير أنها في دول مثل تونس ومصر مثلت لحظة للإطاحة بهيبة الحاكم الجديد، خاصة ونحن أمام مجتمع ما زال قسم كبير منه يؤمن بهيبة صاحب السلطة. ويمكن في هذا الإطار ذكر برنامج باسم يوسف الذي تقنّن في السخرية من الرئيس إلى حد الابتذال والإطاحة بمنظومة القيم التي جعلت المتلقي العادي لا يرى في الحاكم الجديد سوى دمية لا يمكنها إدارة البلد، (والغريب هو توقف البرنامج بعد الانقلاب)، وهو أمر له شبيهه في تونس من خلال فقرة كوميدية عُرفت باسم «اللوجيك السياسي»، والتي جعلت هدفها استنصار الحكام الجدد وتحويلهم إلى مادة للتندر والسخرية خارج ضوابط السياسة، بمعنى أن تكون السخرية تتعلق بذات الشخص وهيئته قبل السخرية من نمط ممارسته الحكم.

• الندوات الزائفة، وهي برامج حوارية تضم ضيوفاً دائمين، والواقع أن مثل هذه البرامج التي تضم المدعويين الدائمين، هي عالم مغلق على الذين يعرف بعضهم بعضاً، عالم يعمل وفق منطق «الدعم الذاتي» المستمر، حيث تبدو هذه الندوات في ظاهرها ندوات حقيقية، لكنها حقيقية بطريقة زائفة، ومن أبرز نماذجها في تونس: برنامج «ناس نسمة نيوز»، أو البرامج التي يقدمها عمرو أديب أو خيرى رمضان أو وائل الإبراشي في مصر، حيث يتحدث مقدمو البرامج بخفة دون مراعاة لخطورة ما يقدمونه ولا عن المسؤوليات التي يتحملونها نتيجة ما يقدمونه للآلاف من المشاهدين دون فهم، (أحد المقدمين تحدث عن دور الإخوان المسلمين في سقوط الأندلس على سبيل الذكر، أو الحديث عن آلاف الجثث تحت ميدان رابعة اغتالهم المعتصمون)، ومثل هذه الكلمات تخلق الأشياء وتخلق التصورات والتخيلات الخادعة، وتحدث الخوف، وتؤدي إلى الهلع والرهبنة. وهذه القدرة على الاستدعاء لمعان خطيرة لها تأثيرات ونتائج تعبوية، (بالطبع استعداداً للحظة إثارة الناس ضد الحكم القائم، وهو ما سيتجلى فيما بعد الانقلاب عندما تم فض الاعتصام بدموية غاية في الوحشية).

• الدور الذي يلعبه مقدم البرنامج وهو دور يصدّم مشاهد التلفزيون دوماً، حيث يقوم المقدم بتدخلات حاسمة يفرض من خلالها الموضوع ويفرض الإشكالية، وهي في غالب الوقت

إشكالية بلا معنى، وهو من يفرض قواعد اللعبة، وهي قواعد ذات أشكال متغيرة، فهي ليست القواعد نفسها عندما يكون المتحدث من الطرف الآخر الذي يريد المقدم تقزيمه، ومثالها في برنامج التاسعة مساءً بقناة التونسية تم استدعاء أحد الأشخاص حاملاً كفته مهدداً وزير الداخلية (المنتمي لحركة النهضة) على المباشر، إضافة إلى طريقة التأثير الضمني (الحديث بلا كلمات) الذي يتم أثناء الحوار عن طريق النظرات، الصمت، الإشارات، الإيماءات، وحركات العيون، وصولاً إلى نبرات الصوت، (جافة مع الخصوم ولينة مع الطرف الذي يريد المقدم الانتصار له).. ويذكر الجميع طريقة الحوار غير اللائقة التي حاور بها مذيعة التلفزيون المصري الرئيس محمد مرسي في حينه، أو حالة الخضوع والتذلل التي أبدتها مقدم برنامج التاسعة مساءً وهو يتحدث مع الباجي قائد السبسي، وهو يقول «حاضر سي الباجي»، والتي تحولت فيما بعد إلى نكتة على صفحات التواصل الاجتماعي.

• يقدم بعض المذيعين أنفسهم بوصفهم متحدثين باسم الجمهور لمخاطبة الطرف الآخر بنوع من الاستخفاف وصولاً إلى الوقاحة، (إلى الحد الذي وصل فيه عمرو أديب إلى توجيه الخطاب للرئيس مرسي بالقول «يا كافر»، أو تلك المبالغة في الإيحاءات غير الأخلاقية التي قام بها بعض مقدمي البرامج في القنوات المصرية تعليقاً على حديث الرئيس مرسي عن الأصابع التي تتلاعب بالأمن القومي المصري).

إن كل هذه الملامح العامة للخطاب الإعلامي في تونس ومصر تكشف أن الهدف منها لم يكن بريئاً ولا محايداً، وإنما كان تحريضياً يستهدف التلاعب بقول المشاهدين وصولاً إلى تعبئتهم للتمرد والخروج للإطاحة بأسس النظام الديمقراطي الناشئ. وما ينبغي ملاحظته أخيراً أن النقد الموجه للأطراف الإعلامية المناوئة للتحويل الديمقراطي الحاصل في تونس ومصر؛ لا يعني براءة الطرف الآخر أو غياب وسائله الإعلامية عن لعبة التعبئة والتأثير، لكن التركيز على الطرف الأول ناجم عن كونه يقدم خطاباً سعى من خلاله إلى تقويض التجربة الديمقراطية الناشئة، وانتهى بانقلاب دموي في مصر وبالتحريض على الفوضى في تونس وبصمت مطلق على جرائم حاصلة كان قد قدم لها الإعلام تبريراً، مواصلاً تلاعبه بالعقول، مستغلاً سيطرته على الشاشات، وكما يقول ريجيس دوبراي «إن عصر الشاشة حين يغدو مسيطراً أينما كنا ستكون فضيلته الفساد ومنطقه الامتثالية وأفقه عدمية مكتملة».



سفينة المسلمين في العيد

■ علي بن أحمد المطاع

ترورع الناس فيه عواصف الشرك
والريح تعصف بالبهتان والإفك
إعصارٌ يقلع ما يلقاه في الفلك
لما دعا لئله: اليوم لا تحك
ولا أدكار صلاح الدين أو زكي
ظلماً على ظلم النسيان والتك
ولا على نفسه بل سيق بالشك
ما دام ذو فاقة في رحبها يشكي
صدر اليتيم أنين دائم الفرك
وحرقة الأم أمست قلبها يبكي
وسيد القوم بات وديعة (الشبك)
فالقرء في الدار والأساد في (السيرك)
ما العيد إن لم تقضض بنية الشرك
عجزت عن نظم قول جيد السبك
ولسى فخر بناء العرش والملك
أسى لما لقي من عيشة الضنك
يعلي سبيل الهدى بفرنده المنكي

العيد ما العيد والإسلام في فلك
وموجة البغي تعلو فوق قاربنا
قد أظلمت في سمانا الغيم واعترض الـ
كم عابد ذاك رلله قيل له
قف، لا كلام ولا تصوير حادثة
وكتب في السجن مرمياً إلى زمن
وما جنى ذلك الداعي على أحد
تجري السفينة والأعياد كاسفة
ما دام في كبد العاني الجراح وفي
وطفلة دمعهما يجري على وجن
العيد، ما العيد؟ والأمال مطرقة
لم يُكترت فيه أن يُلقى به هزواً
ما العيد إن كان ديني وسط غربته
عيّت لساني وخارت دون محبرتي
وعبرتي ذرفت حزنأ على زمن
وابيض أسود عيني والفضاد بكى
فليت لي عمراً أو سعداً أو بطلاً





نشأة الشيعة عند المستشرقين

مما لاشك فيه أنه عند البحث عن الجذور التاريخية لأصل الشيعة ونشأتهم، فهي كغيرها من الفرق التي خرجت على منهج أهل السنة والجماعة؛ خضعت لتأثيرات أجنبية مختلفة: مجوسية، ويهودية، ومسيحية، وحنووية.

وبناء على ما تقدم من الضروري بمكان الاطلاع على أفكار المستشرقين فيما يخص النظريات التي قيلت حول أصل ونشأة التشيع؛ لأن كتاب الشيعة يعتقدون أن غالبية آراء المستشرقين عن الشيعة جاءت وفق رؤية أهل السنة؛ دون الالتفات إلى مناهجهم وأساليبهم في دراسة الفرق والحركات المهرطقة (أصحاب البدع) استناداً إلى مصادر الملل والنحل لأهل السنة والشيعة على حد سواء، فضلاً عن التطور التاريخي في العقائد الشيعية وانتقالها الأفكار الوثنية الإغريقية والمجوسية، وهذا ما جعله يحمل بين ثناياه الكثير من الأفكار الشرقية القديمة التي حلت محل بعض الأفكار الإسلامية، على حد تعبير المستشرق السويسري آدم ميتز.

د. فرست مرعي

farsatmarie@yahoo.com

أولاً: القائلون بالأصل الفارسي

حاول عدد من المستشرقين الأوروبيين: جوبيينو الفرنسي، وإدوارد البريطاني، والفرنسي دار مستر، والإيطالي جويدي، والهولنديون دوزي وأوجست ملر وفون كريمر؛ ربط التشيع بأصل فارسي، فيذهب جوبيينو ومعه براون إلى "أن العقيدة المتعلقة بالحق الإلهي التي أودعت في الأسرة الساسانية، كانت ذا أثر عظيم في تاريخ الفرس والتشيع، فلقد جاءت فكرة انتخاب الخليفة متماشية مع ديمقراطية العرب، غير أنها لا يمكن أن تظهر في نظر الفرس إلا بمظهر ثوري غير مطابق لطبيعة الأشياء"، ويبرر هذه النقطة المستشرق الدانماركي كريستنن المتوفى سنة ١٩٤٥م في كتابه القيم (إيران في عهد الساسانيين)، بقوله: "إن الديمقراطية التي أدخلها الإسلام في إيران هي السبب في تدهور النظام الإيراني القديم (نظام الطبقات)، فقد أدت إلى القضاء تدريجياً ونهائياً على طبقات الأشراف"، بعدها يعلق كريستنن بأن طبقات الأشراف الإيرانيين كانت أساس الحضارة في العهد الساساني وضيّعت الصفات التي كانت تميزهم عن غيرهم.

يقول الدبلوماسي الفرنسي جوزيف آرثر جوبيينو الذي خدم كدبلوماسي فرنسي في إيران منتصف القرن التاسع عشر: "إن الملالي الفرس حاولوا من خلال التشيع الاحتفاظ بصور القديسين في الديانات الفارسية القديمة؛ حتى لا يفقدوا امتيازاتهم، لأنهم الورثة الشرعيون للكهنة الزرادشتيين، وأن كافة المنظومة الشيعية ليست سوى تليفاً جيد التنظيم لاستعادة نفوذهم، وشكلاً من أشكال الاعتراض المبطن على الغزو العربي لأراضيهم".

أما المستشرق الهولندي دوزي المتوفى سنة ١٨٨٣م، فهو يذكر بهذا الصدد: "كانت الشيعة في حقيقتها فرقة فارسية، وفيها يظهر أجلى ما يظهر ذلك الفارق بين الجنس العربي الذي يحب الحرية، وبين الجنس الفارسي الذي اعتاد الخضوع كالعبيد. كان مبدأ انتخاب خليفة للنبي أمراً غير معهود ولا مفهوم؛ لأنهم لم يعرفوا غير مبدأ الوراثة في الحكم، لهذا اعتقدوا أنه ما دام محمد لم يترك ولداً يرثه، فإن علياً هو الذي كان يجب أن يخلفه، وأن الخلافة يجب أن تكون وراثية في آل علي.. ومن هنا،

ومن جانب آخر، فإن كتاب الشيعة يثمنون عالياً كتابات بعض المستشرقين ويعدونهم رواداً في مجال التشيع والعرفان، أمثال الفرنسيين لويس ماسينيون وهنري كوربان؛ لأنهم عدوا ولاية علي وأبنائه هي النبوة الباطنية، بعكس النبوة الحقيقية على أنها ظاهرية فقط. في الوقت الذي يهاجمون فيه كتابات جوبيينو وفون كريمر وفريدلاندر وكولدزيهر ومارجليوث وبروكلمان؛ لأنهم شككوا في أهم سند يعتمدون عليه في الترويج لعقيدتهم، وهو الوصية المزعومة يوم (غدير خم)، أي أنهم انتقائيون في اختيار المستشرقين الذين تروق كتاباتهم لما يعزز أركان عقيدتهم في الوصية والإمامة، دون الالتفات إلى كتابات المستشرقين الذين يهاجمون القرآن الكريم والسنة النبوية والتاريخ الإسلامي.

فقد كتب المستشرق النمساوي فون كريمر في عام ١٨٦٨م عن "التعصب المفرط للشيعة وعدم تحملهم لغيرهم من أتباع الطائفة المحمدية"، وبالمثل اعتبر المستشرق المجري اليهودي كولدزيهر المتوفى سنة ١٩٢١م "حرص الشيعة على عدم الاحتكاك بالآخر المختلف ديناً وعقيدة خوفاً من نجاسته بمثابة استمرار للتقاليد الزرادشتية واليهودية".

ويضيف كولدزيهر في كتابه (العقيدة والشريعة في الإسلام) بهذا الصدد: "إن الشيعة كانت على وجه الدقة المنطقة التي نبتت فيها جراثيم السخافات التي حلت وقضت على نظرية الألوهية في الإسلام".

لذلك من الأهمية بمكان التطرق إلى هذه النظريات لمعرفة التطور التاريخي في نشأة التشيع وتبلورها من فكرة إلى حزب سياسي وفرقة ومن ثم طائفة لها رؤيتها الخاصة تدريجياً لما حدث في التاريخ، وفي نظرهم أن التاريخ الخارجي للمسلمين - تاريخ السلطة السياسية (= الخلفاء الراشدون والأمويون والعباسيون والعثمانيون) - مختلف عن التاريخ الداخلي الحقيقي، الذي هو في نظر الشيعة المحافظة على الحقيقة التي كشف عنها الأئمة المتتابعون، وتم نقلها حسب نظرية الإمامة التي تطورت تدريجياً ابتداءً من القرن الثالث الهجري.. ومن هذه النظريات:

فيما يحاول المستشرق الفرنسي هنري ماسيه المتوفى سنة ١٩٦٩م، إمساك العصا من الوسط بقوله: "قد يكون هناك فائدة في التذكير بأن المذهب الشيعي ذو أصل عربي (وليس إيرانياً) من الناحية السياسية... دون أن نتكلم عن التفاصيل التي تجعلنا نقبل بوجود تأثيرات زرادشتية وأفلاطونية حديثة ومانوية، الأمر الذي نسب أحياناً إلى المذهب الشيعي أصلاً إيرانياً، وعباد ذلك... فهناك حيث انتشر في تلك البلاد (= إيران) ولم يكن دون تأثير في تجمع الفرس حول المذهب الشيعي، وهو أن الحسين بن علي (شهيد كربلاء) كان قد تزوج ابنة آخر ملك ساساني فارسي (= يزدكرد الثالث)، وكانت قد أسرت أثناء الفتح، وبهذا الحديث استفاد أعقاب علي من شرعية مزدوجة (من بيت الرسالة ومن أسرة ساسان)".

والظاهر في هذه النظرية أنها اعتمدت على أقوال بعض كتّاب المقالات (الملل والنحل) ممن صوروا حركات الإيرانيين والشيعة الغلاة (= الذين ألّهُوا علياً)، على أنها محاولات احتمت بآل البيت لهدم الإسلام من الداخل، وذلك عن طريق تقويض عقيدته، فيروي المقرئ المتوفى سنة ٨٤٥ هـ أن: "السبب في خروج أكثر الطوائف عن ديانة الإسلام، أن الفرس كانت من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر في أنفسها بحيث إنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأسياذ وكانوا يعدون سائر الناس عبيداً لهم، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم (= الدولة الفارسية الساسانية) على أيدي العرب (= المسلمين)، وكانت العرب عند الفرس أقل الأمم خطراً؛ تعاضهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة وراموا كيد الإسلام بالمحاربة في أوقات شتى، وفي كل ذلك يُظهر الله الحق..."، فرأوا أن كيدهم على الحيلة أنجح، فأظهر قوم منهم الإسلام واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل البيت واستبشاع ظلم علي، ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن طريق الهدى. وهذا الرأي أورده ابن حزم من قبل، فقال: "رأوا أن الكيد للمسلمين على الحيلة أنجح، فأظهر قوم منهم الإسلام، واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة آل بيت رسول الله واستبشاع ظلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وسلكوا بهم مسالك مختلفة حتى أخرجوهم عن الإسلام".

فإن جميع الخلفاء ما عدا علياً كانوا في نظرهم مغتصبين للحكم لا تجب لهم طاعة. وقوى هذا الاعتقاد عندهم كراهيتهم للحكومة وللسيطرة العربية، فكانوا في الوقت نفسه يلقون بأنظارهم النهمة إلى ثروات سادتهم، وهم قد اعتادوا أيضاً أن يروا في ملوكهم أحفاداً منحدرين من أصلاب الآلهة الدنيا، فنقلوا هذا التوقير الوثني إلى علي بن أبي طالب وذريته. فالطاعة المطلقة للإمام الذي من نسل علي، كانت في نظرهم الواجب الأعلى حتى إذا ما رأى المرء هذا الواجب استطاع بعد ذلك بغير الأئمة أن يفسر سائر الواجبات والتكاليف تفسيراً رمزياً وأن يتجاوزها ويتعداها. لقد كان الإمام عندهم هو كل شيء، إنه الله قد صار بشراً، فالخضوع الأعمى المقرون بانتهاك الحرمات ذلك هو الأساس في مذهبهم".

وعلى نحو مشابه يتحدث المستشرق الألماني أوجست ملر المتوفى سنة ١٨٩٢م، ويضيف إلى هذا القول: "بأن الفرس كانوا تحت تأثير الأفكار الهندية قبل الإسلام بعهد طويل ويميلون إلى القول بأن الشاهنشاه (= ملك الملوك) هو تجسيد لروح الله التي تنتقل في أصلاب الملوك من الآباء إلى الأبناء".

ويرى المستشرق الفرنسي دار مستتر: "أن العناصر الفارسية التي اعتنقت الإسلام ظاهرياً أدخلت في الإسلام الفكرة الهندية - الآرية التي تقول بالعائلة الإلهية المختارة، التي تنقل في أصلابها النور الإلهي جيلاً بعد جيل منتهية ب (الساوسخاينانت)، هذه الفكرة أدخلت في الإسلام وتبلورت في آل البيت وشخص علي". أما المستشرق الإيطالي جويدي المتوفى سنة ١٩٣٥م، فيضيف إلى رأي سابقه القول بأن: "انتشار هذه الأفكار الغالية كان نتيجة حملة دعاية إيرانية ثنوية (= مجوسية) منظمة لهدم الإسلام".

وبخصوص المستشرق السويدي نيبيرغ المتوفى سنة ١٩٧٤م، فإنه يقول في مقدمة كتابه (الانتصار): "إن الشيعة كانت محل امتزاج الثنوية بالإسلام خاصة، إذ إن أفكارها من المناسبة لآراء الثنوية ما لا يخفى، مثال ذلك قولها في أئمتها وتجسيمها الذي هو أقرب شيء إلى تجسيم الثنوية، ثم ثبت على كثير من رجالها أنهم جمعوا بين الرفض والزندقة".

ثانياً: القائلون بالأصل اليهودي

ومن أشهر القائلين به المستشرق الألماني فلهوزن المتوفى سنة ١٩١٨م، الذي بنى نظريته على رواية وردت في الطبري، ويرى لها أصحابها سنداً فيما جاء في كتب المقالات، خاصة ما جاء على لسان الشَّعبي المتوفى سنة ١٠٤هـ، وما ذكره الإسفراييني المتوفى سنة ٤١٨هـ، وابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦هـ، والشهرستاني المتوفى سنة ٥٤٨هـ، نقلاً عن الشعبي في قوله: "أحذرك الأهواء المضلة، شرَّها الرافضة، فإنها يهود هذه الأمة؛ يبغضون الإسلام كما يبغض اليهود النصرانية، ولم يدخلوا في الإسلام رغبة ولا رهبة من الله، لكن مقتاً بأهل الإسلام وبغياً عليهم، وقد حرقهم علي بن أبي طالب ونفاهم إلى البلدان... ذلك أن محبة الرافضة محبة اليهود. قالت اليهود: لا يكون الملك إلا في آل داود، وقالت الرافضة: لا يكون الملك إلا في علي بن أبي طالب، وقالت اليهود: لا يكون جهاد في سبيل الله حتى يخرج المسيح المنتظر وينادي منادٍ من السماء، وقالت الرافضة: لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المهدي وينزل سبب من السماء. واليهود يؤخرون صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم، وكذلك الرافضة... إلخ".

وهذا ما دعا المستشرق فريدلاندر إلى سوق العديد من الحجج في دراسته المشهورة بعنوان (عبد الله بن سبأ، مؤسس الشيعة، وأصله اليهودي)، والفكرة قائمة على أن دور عبد الله بن سبأ الرئيسي لم يكن في تأليه علي، بل في إنكار موته قائلاً "إنه لم يموت في الحقيقة، وإنما شبه للناس ذلك، وإنه سيرجع من السحاب". والفكرة أصلها ترجع إلى يهود اليمن وما يقوله الفلاشا في الحبشة من اليهود الذين تصوروا المسيح المنتظر هكذا.

ويؤكد هذا القول (النوبختي الشيعي) المتوفى سنة ٣١٠هـ في كتابه (فرق الشيعة) عن أخبار عبد الله بن سبأ بقوله: "وحكى جماعة من أهل العلم من أصحاب علي عليه السلام أن عبد الله بن سبأ كان يهودياً فأسلم ووالى علياً عليه السلام وكان يقول على يهوديته (يوشع بن نون) وصي موسى على نبينا وآله وعليهما السلام بالغلو فقال في إسلامه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله في علي عليه السلام بمثل ذلك، وهو أول من أشهر القول بفرض إمامة علي عليه السلام وأظهر البراءة من أعدائه وكاشف مخالفه". يقول النوبختي: فمن هنا قال من خالف الشيعة إن أصل الرفض مأخوذ من اليهود.

ويتفق معه ابن حزم فيذكر أن: "هؤلاء (الكيسانية) صاروا في سبيل اليهود القائلين بأن ملكي صادق بن عامر.. والعبد الذي وجهه إبراهيم (عليه السلام) ليخطب ريقاً بنت نبؤل.. وإلياس (عليه السلام) وفتحاص بن العازار بن هارون (عليه السلام) أحياء إلى اليوم"، وهو بهذا يشير إلى العقيدة المشتركة عند الغلاة القائلين بأن "الإمام ما مات ولن يموت ولا بد له أن يظهر ليملاً الأرض عدلاً كما ملئت جوراً".



ثالثاً: نظرية الأصل اليهودي - المسيحي المشترك

والقائلون بهذه النظرية جمع من المستشرقين، من أشهرهم: المجري كولديزهر، والبريطاني فريدلاندر؛ فيرى كولديزهر أن "فكرة الرجعة تسربت إلى الإسلام عن طريق المؤثرات اليهودية - المسيحية، فعند اليهود والنصارى أن النبي إيليا قد رفع إلى السماء وأنه لا بد أن يعود إلى الأرض في آخر الزمان لإقامة دعائم الحق والعدل، ولا شك أن إيليا هو الأتموزج الأول لأئمة الشيعة المختفين الغائبين الذين يحيون لا يراهم أحد والذين سيعودون يوماً كمهديين منقذين للعالم".

أما المستشرق البريطاني فريدلاندر فيرى أن التشيع قد استمد أفكاره الرئيسة من اليهودية من حيث استمد منها فكرة المهديّة، واستمد من المسيحية فكرة الموت الظاهري (الدوسيتزم) التي دخلت إلى الدوائر الإسلامية! (= التشيع والتصوف الغالي) بتأثير الديانة المانوية التي نادى بها النبي الإيراني ماني المقتول سنة ٢٧٦م، الذي مزج بين المجوسية والمسيحية وأعطى هذه الهرطقة (= البدعة) الجديدة شكلاً محدوداً، فالمسيح في هذه العقيدة المانوية ليس له حقيقة واقعة، فحياته كلها ومماته وتعميده وآلامه من أجل التكفير عن خطايا البشر، كل ذلك كان قضية ظاهرية لا حقيقة لها، فالشخص الذي ربط على الصليب - في رأيهم - لم يكن المسيح

نظرت إلى الإمامة باعتبارها قضية دينية، وليست من المصالح العامة التي تقوض إلى الناس، وإن الإمام يجب أن يكون معصوماً عن الخطأ، فالإمامة وراثية روحية.

٢- إن رجال الشيعة الأوائل كانوا من عرب اليمن الجنوبيين، وكانت اليمن أرض سلالات الملوك الذين يتوارثون الحكم، وكانوا يتصفون بصفات روحية تجعلهم رأس السلطتين الروحية والزمنية (مزود). ثم يقول: "ومع أن الإسلام لا يشجع الملكية الوراثية؛ إلا أن كون هؤلاء من عرب الجنوب ممن اعتادوا تقديس الملوك يحملنا على الاعتقاد بتأثرهم بماضيهم التاريخي في هذا الخصوص".

خامساً: النظرية الغنوصية

الغنوص لفظة يونانية تعني المعرفة، والغنوصية هي مذهب العرفان الذي يضم خليطاً من المذاهب الفلسفية: الهرمسية الإسكندرية، والفلسفة الأفلاطونية المحدثة، والفيثاغورية، والرواقية، والقبالة اليهودية، والأفكار الثنوية المجوسية، وطروحات فلاسفة حران، إضافة إلى الميراث الهندوسي - البوذي. ومن أشهر القائلين بهذه النظرية: المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون المتوفى سنة ١٩٦٢م، والمستشرق الفرنسي الآخر هنري كوربان المتوفى سنة ١٩٧٨م؛ وقد توصل الاثنان إلى نفس النتيجة: الأول عن طريق اطلاعه وتمرسه في ظاهرة التصوف والحلول عند الحلاج المقتول سنة ٣٠٩هـ على يد الخلافة العباسية بتهمة القرمطية والتجسس لصالح الدولة العبيدية (الفاطمية)؛ والثاني عن طريق دراسته التصوف الإشراقي عند السهروردي المقتول عام ٥٨٧هـ على يد الأيوبيين بتهمة الزندقة، فضلاً عن التشيع الإيراني، ومكوته من أجل ذلك عدة سنوات في إيران، حيث ترأس معهد الدراسات الإيرانية خلفاً لماسينيون من ١٩٥٤ لغاية ١٩٧٢م، فضلاً عن إقامة علاقات صداقة وزمالة مع عديد من رجال الدين الشيعة والفكر في إيران، حتى يقال إنه تقمص التشيع. وبهذه المناسبة لا بد من الإشارة إلى قول الفيلسوف المصري عبد الرحمن بدوي بحق كوربان عند تناوله كتاب الأخير (تاريخ الفلسفة الإسلامية): "وفي هذا الفصل (= الكتاب) بالغ مبالغ شديدة في إبراز نصيب الفكر الشيعي، وأجحف بالفكر السني إجحافاً غريباً".

بعينه، وإنما كان عميلاً للشيطان الذي أراد أن يوقف نشاط المسيح فربطه المسيح على الصليب عقاباً له على سوء سلوكه، أما المسيح فإنه اختفى وسيعود في المستقبل. وهذا شبيه بما كان يراه الشيعة الغلاة من أن الإمام لم يمت وإنما بدا للناس ذلك، وأنه اختفى وسيعود في الوقت المناسب قبل يوم القيامة؛ لإعادة العدل إلى الأرض بعد أن ملئت جوراً، وإن من مات كان شيطاناً تصور بصورة الإمام.

ويؤكد هذا المفهوم المستشرق هنري ماسيه بقوله: "... بعض عناصر المذهب الديني الشيعي، وخصوصاً قاعدته الثيوقراطية والاعتقاد برجعة الإمام المختبئ (= المهدي المنتظر)؛ يبدو أنها يهودية - مسيحية".

وما له صلة بالموضوع، أو ربما، اطلع المستشرق (فريدلندر) على ما رواه العالم الأشعري عبد القاهر البغدادي المتوفى سنة ٤٢٩هـ في كتابه (الفرق بين الفرق) عن السبئية قوله: فلما قتل علي رضي الله عنه زعم ابن سبأ أن المقتول لم يكن علياً، وإنما كان شيطاناً تصور للناس في صورة علي، وأن علياً صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى بن مريم عليه السلام. قال: كما كذبت اليهود والنصارى في دعواها قتل عيسى، كذلك كذبت النواصب والخوارج في دعواها قتل علي، وإنما رأت اليهود والنصارى شخصاً مصلوباً شَبَّهه بعيسى، كذلك القائلون بقتل علي رأوا قتيلاً يشبه علياً، فظنوا أنه علي، وعلي قد صعد إلى السماء، وأنه سينزل إلى الدنيا وينتقم من أعدائه.

رابعاً: القائلون بالأصل العربي

ومن أشهر الداعين له المستشرق البريطاني (مونتكمري واط)، الذي يرى أن حركة الفتوحات الكبرى سببت نوعاً من القلق الروحي والمادي، ما أدى إلى أن يفكر البعض في (الخلاص) من الوضع الراهن الذي كان الناس يقاسون منه عن طريق توقع زعيم أو قائد سياسي له من القدرات الروحية الفائقة ما يتمكن معها من تخليص البشر مما يعانون منها. ويؤيد نظريته هذه بدليلين، هما:

١- إن الدوائر الشيعية على اختلاف فيما بينها

موسوعة

أحاديث الشائكة النبوية الشريفة

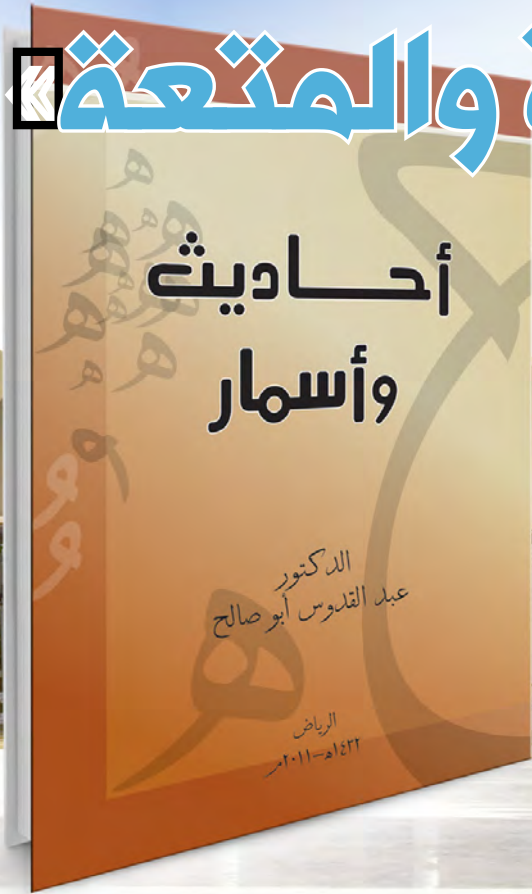




أحاديث وأسمار

كتاب يجمع بين

الفائدة والمتعة



■ شمس الدين درمش

الطنطاوي - رحمه الله - من النوع الثالث المفيد الممتع بتفرّد أسلوبه، وسعة اطلاعه، وتنوّع موضوعاته. وأصنّف كتاب (أحاديث وأسمار) لمؤلفه الدكتور عبد القدوس أبو صالح، من هذا النوع المفيد الممتع؛ فقد جاء خفيف الظل في إيجاز موضوعاته وتنوّعها شكلاً ومضموناً، وعلى الطريقة الجاحظية في الانتقال من موضوع إلى آخر

الكتب المفيدة كثيرة، وتوجد كتب تقصد إمتاع القارئ وتسليته فحسب، مثل: كتاب الأذكياء، وكتاب الحمقى والمغفلين لابن الجوزي.. وتوجد كتب تجمع بين المتعة والفائدة، من أمثال: تيممة الدهر للشعالبي، والعقد الفريد لابن عبد ربه، وأدب الدنيا والدين للماوردي. ومن المعاصرين المعروفين لدينا، تعدّ كتب الشيخ علي

يبعد السأمة عن القارئ، ويتجول به بين القديم والحديث، وبين الفكر والقلب؛ فهو يقدم صوراً بصرية مرة من خلال مشاهدات المؤلف الكثيرة في العالم، ويخاطب العقل من خلال اطلاعاته وقراءاته الواسعة مرة أخرى.. ويتحدث في الشعر تارة، وفي النثر أخرى، ويقدم لنا نماذج من الشخصيات العلمية والأدبية في القديم والحديث، وأخرى نماذج من الشخصيات التي ورد ذكرها في القرآن الكريم.

وقد جاء عنوان الكتاب (أحاديث وأسما) هادفاً إلى الفائدة في لفظه الأول، وإلى الإمتاع في لفظه الثاني.. وهو يقرب في عنوانه من كتاب (أباطيل وأسما) للعلامة الكبير محمود محمد شاكر، وهو الذي يفتخر الدكتور عبد القدوس بالتلمذ عليه.

ضمَّ كتاب أحاديث وأسما بين دفتيه ٢٢١ مقالة، وهو عدد كبير نسبياً جعل صفحات الكتاب تتجاوز ٥٥٠ صفحة. وجاءت المقالات في محورين رئيسيين، هما: التراث، والمعاصرة. وتفرع كل منهما إلى دوائر جمعت موضوعات متماثلة في مضمونها، متنوعة في مفرداتها.

ففي محور التراث تحدث د. عبد القدوس عن التراث نفسه؛ أهميته وضرورة الحفاظ عليه من المخاطر التي تتناوشه، فكتب عن تراثنا الإسلامي في تركيا، ومن كنوز تراثنا المخطوط، وسلبيات نشر التراث. وكتب عن بعض الذين عنوا بالتراث من المعاصرين، مثل: محمود محمد شاكر، وفؤاد سزكين، وكلاهما من الفائزين بجائزة الملك فيصل العالمية، التي تناولها بمقال خاص.

وتشكَّلت المقالات في محور التراث بعد ذلك في دائرتين: الأولى عن القضايا الأدبية والنقدية، والأخرى عن الشخصيات الأدبية والنقدية.. فكتب في الأولى عن مكانة الشعر الحماسي، وشعر الرثاء الذاتي، وشعر الحنين في الأدب العربي، والحنين إلى الأوطان، وشعر الحنين إلى نجد، متدرجاً من العام إلى الخاص. وكتب عن تطور الخطابة وأسلوبها، وبين البداوة والحضارة، وأدب المواعظ، وشعر الدعاء والمناجاة، وأدب الاعتذار في النثر الفني.. وغير ذلك مما يعد قضايا موضوعية.

أما الدائرة الثانية فجمعت الحديث عن شخصيات أدبية ونقدية واجتماعية في تراثنا، منهم: أبو العباس المبرد، وأسما

بن خارجة الفزاري، وعمارة بن حمزة الكاتب، والجاحظ المتهم، والتوحيدي وحرقة الأدب، والعرجي الشاعر المضيع، والحكم بن عبد الأسد وهو شاعر مقل، وشاعر الثمانين عوف بن محلم الخزاعي، وشاعر قريش عبد الله بن قيس الرقيات، والبحثري الناقد، والمتنبي في تعاضمه، وأسامة بن منقذ وكاتب الاعتبار، وغير ذلك من الأسماء التي توزعت على العصور الأدبية.

وتداح من هذه الدائرة دائرة أخرى في العناية بالإبداع الأدبي والتراث، وبخاصة الشعر؛ إذ كتب مقالات عديدة تربط إبداعاً متفرداً بشخصية مميزة، مثل: قصيدة أبي ذؤيب الهذلي، وقصيدة كعب بن سعد الغنوي، وعينية الصمة القشيري، وموعظة الجبل لابن خفاجة الأندلسي، ومقصورة ابن دريد، وقصيدة الغريب لجعفر بن بشار الأسدي، ولامية العرب للشنفرى، ولامية العجم للطغرائي... وغير ذلك من أمهات القصائد التي بعضها لشعراء غير مشهورين، هادفاً لإظهار المغمور من كنوز الشعر التراثي. وتأتي بعض هذه الاختيارات موضوعية مقارنة، مثل: من مرثي الشعراء لأعينهم، ومن شعر السجن، وصور شعرية، والفرس وثلاثة شعراء، والأسد بين شاعرين.

وفي محور المعاصرة نجد عدة دوائر تجتذب الأحاديث في الأسما، أهمها: قضية الأدب الإسلامي تعريفاً وتنظيراً ونقداً، وهي القضية التي فرغ الكاتب د. عبد القدوس أبو صالح نفسه لها، وشغلته حتى عن متابعة كتاباته وإبداعاته الخاصة، ومن ذلك هذا الكتاب الذي رأى النور حديثاً.

وكتب في التنظير والتعريف بالأدب الإسلامي موضوعات عدة، منها: عالمية الأدب الإسلامي، ونحو أدب إسلامي ملتزم، وحدود الأدب الإسلامي، والأدب بين الإلزام والالتزام، وأدب الأطفال الإسلامي، ومسوغات الأدب الإسلامي، وشبهة المصطلح، وبين الأدب العربي والإسلامي. وما زالت هذه الموضوعات تتفاعل بين الداعين إلى الأدب الإسلامي والمعارضين على تفاوت في وجهات نظرهم التي تبدأ بمصطلح (الأدب الإسلامي) وتنتهي بوجود التزام الأدب المسلم بما ألزمه الله به من الكلمة الطيبة!

وتحدث المؤلف عن جانب من آداب الشعوب الإسلامية، مثل: الأدب الكردي، ورواية صقور القوقاز، وعن بعض رموز

الأدب الإسلامي المعاصرين، ومنهم: أبو الحسن الندوي، وعمر بهاء الدين الأميري، ومحمد عاكف، ومحمد إقبال، ومحمد التهامي، وعليه الجعار.. فقد دعا هؤلاء إلى الأدب الإسلامي بحالهم وقالهم، وقدموا نماذج إبداعية نثرية وشعرية تمثل هذا الأدب باللغات العربية والأوردية والتركية، وهم ليسوا إلا نماذج معاصرة رائدة لهذا الأدب تحدث عنهم المؤلف لشهرتهم وذيوع كتاباتهم من قبل أن تتحول دعوة الأدب الإسلامي إلى مرحلة تأسيس رابطة عالمية له.

وفي محور المعاصرة كتب المؤلف عن قضية الأدب غير الملتمزم الذي تم استغلاله للتأثير في وجدان الأجيال الناشئة، فكتب عن لغة النقد الحديث، وعن نكسة الأدب، وفي موضوع ذي صلة كتب عن قصيدة سفر أيوب لبدر شاكر السياب. ويظهر لنا اهتمام المؤلف بالفن الروائي لدى نجيب محفوظ، إذ خصص له أربع مقالات، فكتب مقالتيه حول نجيب محفوظ وجائزة نوبل، ونجيب محفوظ وسطوة الشهرة، ومع ثلاثية نجيب محفوظ، ومرد هذا التأثير والاهتمام لأمرين: الأول: زيادة نجيب محفوظ للرواية العربية فنياً، وحصوله على جائزة عالمية، وللتأثير الواسع لأدبه عربياً. والثاني: كون مضمون هذا الأدب في أغلبه غير ملتمزم، مع ترويجه أحياناً قيماً مخالفة للإسلام. وزاد من هذا الاهتمام تحويل أعماله من أدب مقروء إلى أدب منظور عبر السينما، ما اجتذب الجموع الغفيرة من المشاهدين في النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي.

ونجد المؤلف بعد ذلك يعالج عدداً من القضايا الأدبية والنقدية العامة، وبعضها تربوية وتعليمية رافدة، ومن أمثلة هذه الموضوعات: خواطر جديدة حول محو الأمية، والأخطاء الشائعة، وأممية المثقفين، وكيف نقرأ كتاباً؟، والذوق الأدبي، وحرفة الأدب، وعلاقة الميول بالهنة، ولماذا لا يقرأ العرب؟، والهزة الشعرية، وهجرة العقول المسلمة، وماذا يقرأ أولادنا؟، وفي كل بيت مكتبة، والفن بين التعاون والاستواء.. وغيرها من المقالات التي تخدم الثقافة العامة وتصحح مسارها ومسار الأدب والنقد المبتنيين على هذه الثقافة.

ومن أبرز محاور المعاصرة في مقالات هذا الكتاب، ما كتبه المؤلف في أدب الرحلات، فقد سجل مشاهداته في رحلاته إلى دول ومناطق عديدة، ومن أبرز هذه المقالات: بانوراما على البوسفور، ووداعاً يا كيرالا، ورحلة إلى تاج محل، ومصنع الشاي، وعلى سور برلين، وبحيرة أنترلاكن، ودعوة سياحية، وحنين النواعير، ووداعاً يا جاميلجا، وفي ربوع كيلبوس، وأجواء أندلسية، وعلى ضفاف بحيرة كومو، وأيام في ماليزيا، ورحلة بحرية، وجنان الدنيا الأربع، وغابة السلطان محمد الفاتح، ومرض الطيران البعيد... وغيرها.

ولعل ما كتبه في مقالتيه: كتب المذكرات، وذكريات لا مذكرات؛ يعد إطاراً تنظيرياً لهذا النوع من الأدب الذي قدمه في لوحات جميلة مما اخترنته ذاكرته الأدبية، وباح به قلمه المعبر.. وهي في الحقيقة تمثل نماذج من الأدب الإسلامي الذي يدعو إليه الكاتب، جاءت مرسومة فيما سماه (حدود الأدب الإسلامي)، إذ عندما يقدم كاتب غير ملتمزم مشاهداته من تلك الأماكن فإننا نتوقع أن ينقل صوراً غير التي نقلها د. عبد القدوس أبو صالح، ويتوصل إلى نتائج غير التي توصل إليها.

وفضلاً عما استعرضته؛ تناول المؤلف بعضاً من نماذج الأدب العالمي، مثل: رواية الساعة ٢٥، ورواية الجذور، ومغامرات مارتن توين، ومجلة المختار؛ فوصل بذلك دائرة الحديث عن الأدب والنقد قديمه وحديثه، وعربيه وإسلاميه، ومحليه وعالميه، ليشبه الكتاب بذلك مناظر الطبيعة الجميلة بألوانها التي وصفها في عدد من مقالاته. وقبل الختام أشير إلى بعض مقالاته التربوية التي كتبها بعنوانين مثل: ويليك آمن.. ومن النماذج الإنسانية في القرآن الكريم: مريم البتول، وعباد الرحمن، وصفات المؤمنين، وأخلاقنا وأخلاقهم، وكيف تقرأ القرآن؟.. وغير ذلك من المقالات التي تعبر عن التكامل المنهجي في الرؤية التربوية والتعليمية لدى الدكتور عبد القدوس أبو صالح.

وأقول أخيراً: إذا كان الكاتب قد حثَّ على القراءة، ودعا إلى العناية بها، بإنشاء مكتبة في كل بيت؛ فإن كتاب (أحاديث وأسمار) يستحق أن يكون في مكتبة كل بيت.

أَذْكَارٌ

أَهْلُ السَّنَةِ وَالْجَمَلَةِ

من القرآن الكريم وصحيح السنة والنبوية

قال شيخ الإسلام: (فالأدعية والأذكار النبوية هي أفضل ما يتحراه المتحري من الذكر والدعاء، وسالكها على سبيل أمان وسلامة، والفوائد والنتائج التي تحصل لا يعبر عنها لسان، ولا يحيط بها إنسان).



في هذا الكتاب..

الثناء • الصلاة على الحبيب • الاستغفار • السؤالات • الاستعدادات
تفريغ الكرب والهم • الرقية الشرعية • أذكار الصباح والمساء

للتوزيع الخيري والمبيعات في المملكة العربية السعودية - اليمن - السودان
دار رسالة البيان للنشر والتوزيع - هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ - تحويلة ٥٠٢/٥٠٠ - جوال: ٥٠٦٤٦١٠٦٥
المنطقة الغربية: ٥٠٦٤٦١٠٥٧ - المنطقة الجنوبية: ٥٠٦٤٦١٠٥٨ - القصيم: ٥٠٢٢٢٠٦١٦
الشرقية: ٥٠٦٢٩٢٦٨٩ - مكة: ٥٠٧٢٦٦١٢٠



من بركة الحرمين



■ د . أحمد بن عبد المحسن العسّاف

@ahmalassaf

وسار على هذا المنوال الخبيث الطغاة الذين ابتليت بهم أمة الإسلام، فوضعوا العراقيل والصعوبات للحيلولة دون شعوبهم والرحلة للحرمين، فلا يكاد الواحد منهم ينعم بفرصة حج أو زيارة إلا بعد بلوغه سنّاً أقرب إلى الشيخوخة منها إلى الشباب، وبالتالي يكون أثر الرحلة مقصوراً على فئة عمرية أثقلتها السنون بهوموم الحياة والمعاش، وانصرفوا عن همّ الدين والأمة في غالب شأنهم.

وإذا كان الأثر كذلك مع عامة المسلمين، فهو أكد في حق الخاصة من أهل العلم والفكر والريادة؛ لأن لديهم من الوعي ما يجعل الرحلة للحرمين غير قاصرة على أداء الشعيرة مع عظمها، فتجدهم يهتلون هذه الفرصة للقاء من قد يصعب لقاؤه في غير تلك المشاعر المقدسة والمواضع الطاهرة، وينهلون من علم الأشياخ، أو ينشرون علمهم وما يمتازون به من فنون، وكم من عالم مغربي تجده شيخاً لمشاركة، أو عالم مشرقى يكون شيخاً لمغاربة، ومكان التلمذ والتلقي بينهم في رحاب الحرمين الشريفين. ولم يقتصر الأمر على حمل

لمكة والمدينة - زادهما الله شرفاً - تأثير كبير على نفوس الحجاج والعمّار والزوار، ولذا فكثيراً ما يتغير الإنسان إلى الأحسن بعد زيارتهما والعيش في كنفهما إثر أداء ركن عظيم أو عبادات جليلة. وقد لاحظ المحتل الكافر أثر الحرمين على الشعوب المسلمة؛ فسعى الإنجليز - مثلاً - إلى استصدار «فتوى» تحرّم الحج على الهنود بدعوى مشقة الرحلة وكلفتها وصعوبة الوصول وخشية الأمراض المنتشرة... إلى غير ذلك من أسباب - بعضها - واهية، لكنها وجدت من يفتي بها!

العلوم وأدائها، بل تجاوزه إلى غير ذلك مما لا يستغرب لبركة المكان وربما الزمان.

فقد نادى المجاهد أحمد بن عرفان في الناس بالحج سنة ١٨٢٢م، وأرسل الكتب إلى أنحاء الهند لحث العلماء على الالتحاق بحملته، وأعلن أنه سيتكفل بنفقات من ليس له زاد، وغايته بعث شعيرة الحج التي توقفت فترة من الزمن. وتجمع في حملته ٤٠٠ حاج، وتحرك الركب في شوال ١٢٣٦، وقد حث رفاق حملته على التحلي بحميد الأخلاق؛ ليعرف الناس جمال دينهم ويعودوا إليه، وقال: «إنني لأرجو أن يهدي الله في هذه الرحلة مئات الآلاف من الناس...». وخلال طريق الرحلة كان داعياً إلى الله، معلماً للناس، مصلحاً بينهم، قاضياً حوائجهم، ونفع الله به بلاد الهند والتبت. فلما عاد بدأ حركة إحياء وجهاد ضد المحتل الإنجليزي حتى آخر يوم من حياته، تقبله الله شهيداً.

ومن أثر الحرمين الشريفين ما كان من شأن العلامة الجزائري محمد البشير الإبراهيمي حين التقى - لأول مرة - بلديه العالم المربي عبد الحميد بن باديس - رحمهما الله - في مسجد النبي - صلى الله عليه وسلم - في المدينة النبوية خلال مجاورتهما هناك، وقال الإبراهيمي واصفاً هذه اللقاءات: «كانت هذه الأسفار المتواصلة كلها تديراً للوسائل التي تهض بها الجزائر... وأشهد الله على أن تلك الليالي من سنة ١٩١٣ ميلادية هي التي وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين».

وفي سير عدد من أعلام الأمة في القرنين الأخيرين، أثر عقدي واضح للحرمين، حيث كان انتشار الدعوة السلفية فيهما سبباً لنشرها بين الحجاج وتصحيح النظرة إليها، وكم من عالم أو مجاهد أصبح سلفي المعتقد بعد زيارة مكة أو المدينة، بل إن الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب قد تأثر بلقاء علماء المدينة كالشيخ محمد بن حياة السندي والشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف، وربما أن فكرة القيام بدعوة للتوحيد الخالص قد انبثقت في تلك الرحاب الطاهرة، خاصة أن حفيده قال إن الشيخ دعا الله في حجته وعند الكعبة المشرفة أن يوفقه لدعوة الناس إلى التوحيد وسلامة المعتقد. وقد أثرت رحلة الحج في الكاتب الأمريكي المسلم جفري لانج ودون تفاصيلها في كتابه: (الصراع من أجل الإيمان: انطباعات أمريكي اعتنق الإسلام)، حيث انههر بالتنوع البشري في الحج. كما كانت رحلة الحج سبباً في تصحيح

أفكار الزعيم الأمريكي المسلم مالكوم إكس عن الإسلام، حيث استبان له ضلالة معتقداته السابقة وعاد إلى بلاده داعية إلى الدين الحق الذي عرفه واقتنع به في بطاح مكة الطاهرة، حيث أدى أول صلاة له وفق الهدي النبوي.

كما أن رحلة الحج التي شرع بها الكاتب المصري محمد حسين هيكل ووضع عنها كتاباً بعنوان: (في منزل الوحي)؛ كانت بسبب نصيحة من عبد الكريم جرمانس - المسلم المجري - الذي تحسنت حياته بعد أن أدى فريضة الحج، ووصف رحلته في كتابه عن رحلة الحج بأنها: «لحظة من لحظات الإشراق».

ومن التأثير العلمي للحرمين ما كان من خبر الشيخ عبد الرحمن الإفريقي المالي الذي حج ودرس في مكة والمدينة واغترف من معين العلم فيهما حتى نفع الله به، وكذلك ملازمة الشيخ بكر أبو زيد آل غيهب عشر سنين للشيخ الشنقيطي ودراسته عليه بعض الكتب وتأثره بشيخه لغة وأسلوباً، وهذه من أعظم مزايا قصد الحرمين الشريفين، يقول الذهبي: «ولقد كان من خلق طلبة الحديث أنهم يتكفون الحج، وما المحرك لهم سوى لقي سفيان بن عيينة؛ لإمامته وعلو إسناده»، ويقول عبد الرحمن بن يحيى المعلمي: «كان من أعظم ما يهتم به العالم إذا حج الاجتماع بالعلماء والاستفادة منهم وإفادتهم، لقد كان بعض العلماء يحج ومن أعظم البواعث له على الحج طلب العلم والاجتماع بالعلماء».

ومن بركة الحج أن كان سبباً في سكنى عدد من العلماء والقراء في رحاب الحرمين، حيث نهل من علمهم واستجازهم عدد كبير من المسلمين ما كان لهم أن يفيدوا منهم لولا اشتهاؤهم بين الحجاج وسهولة الوصول إليهم لمن امتن الله عليه ببلوغ الرحاب المقدسة، ومن أشهر أولئك العالم الأصولي الرباني محمد الأمين الشنقيطي صاحب أضواء البيان - رحمه الله - ويذكر الشيخ بكر أبو زيد أن ابن تيمية قد آلت إليه الإمامة في العلم والدين بعد أن أدى فريضة الحج.

هذه أمثلة وغيرها كثير، وقد جعل الله الكعبة قبلة للمسلمين تهوي إليها أفئدتهم، فإذا ما بلغوها ورأوها سرت في أرواحهم حالة شعورية من الإيمان والمحبة لرب هذا البيت، وكم في هذه المشاعر الفياضة من بركة وخير حين يكون معها علم راسخ، وفهم ثاقب، وهمة لا تخور، ونية لا تضدها الشوائب.

الآن



يمكنك تصفح

البیان

زاوية الأخبار "IPad" Newsstand



www.albayan.co.uk

